أنور الجندي

معالم الأدب العربي المعاصر

دار النشر للجامعيين

الطبعة الأولى ، آذار ١٩٦٤

معالم الأدب العربي المعاصر

مطالع البحث

هذا البحث في الادب العربي المعاصر ؛ عصارة دراسة واسعة شملت تطور فنون الادب العربي في العالم العربي كله من المغرب الاقصى الى العراق ؛ في الفترة التي تبدأ بالنهضة العربية التي حمل لواءها جمال الدين الافغاني في السبعينات من القرن الماضي (١٨٧٩) حتى اوائل الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩) .

فقد شغلت نفسي بدراسة الادب العربي المعاصر منذ عام ١٩٣٩ عندما أصدرت كتابي (عرائس البكارى) اول انتاجي ، يضم مجموعة من دراسات النقد في الشعر والنثر والقصة ، وهي دراسات ليست لها الآن أي قيمة . الا من ناحية الدلالة على نقطة البدء ، ثم عدت مرة اخرى الى مجال البحث عام ١٩٥٠ في دراسات ونظرات قصيرة أثمرت كتابي (نزعات التجديد في الادب العربي المعاصر) الذي اقتصر في جزئه الاول والوحيد على دراسة الادب العربي المعاصر في مصر محاولاً ان اربط نفسي بالمرحوم جرجي زيدان الذي كانت قد توقفت دراساته لتاريخ الادب العربي المعاصر الى حوالي عام ١٩١٤ .

غير ان النهضة العربية الكبرى التي رفعت علم الوحدة والقومية العربية قد دفعتني الى تحقيق حلم كان يراود الدعاة منذ وقت طويل . وهو كتابة الادب العربي على مستوى الامة العربية كلها . ومن هنا عزمت على القيام بعمل يغطي البحث كله في مجال الادب العربي المعاصر في العالم العربي كله في فترة زمنية تبدأ

بالنهضة الحاضرة ، وعلامتها « جمال الدين الافغاني » الذي يعد بحق رائد الفكر العربي الاسلامي المعاصر .

واعتقد ان هذا الكتاب ثمرة من ثمار هـذه الدراسة التي امتدت خمس عشر عاماً ، في محاولة لمسح الادب العربي المعاصر ، على نحو يتسم بالشمول والانصاف وتقديم عصارات موجزة لفنونه المختلفة .

ويمكن القول ان الكتـاب الذي بين يدي القارىء هو عصارة موسوعة في خمسة آلاف صفحة ، استطعت ان ابذل الجهد في اعدادهـا عن طريق مراجعة عشرات من مجلدات الصحف اليومية والاسبوعية في العـالم العربي كله ، وأعتقد أن هذا الميدان في حاجة الى جهود كبيرة ، وقد سبقنا في مجاله عدد من الاعلام ربما اختص كل منهم باقليم او قطر او فن ، ولكني أزعم بانني حاولت ان أضم المشرق والمغرب العربيين في باقة واحدة ، وقـد كان ادب المغرب مهضوم الحق في نظر المشارقة وقتاً ليس بالقليل ، ونحن الآن في صدد اعـداد دراسة شاملة عنه، ستقدمها بإذن الله دار النشر للجامعيين في بيروت التي قـامت باخراج هذا السفر ، وعقيدتي أن القارىء الذي يلم بهذه الفصول سيتطلع من غـير شك الى الموسوعة الكبرى حيث تفصل الدراسة فيها عن هذه الفنون المختلفة وأعلامها .

وأملي ان نكون قد قدمنا عملاً نافعاً في مجـال هو خصب ومجهد في نفس الوقت، والله نسأل أن يتيح لنا منالفرصة ما يمكننا من استكمال هذه الدراسات في نطاقها الواسع .

ولا شكان امتنا العربية الآن وهي تصنع «الغد» في أشدالحاجة أن – تنظر الى ماضيها القريب في فنونه من أدب وشعر وصحافة لترى كيف سارت تياراته وتطورت معالمه .

وعقيدتيأنها لنتستطيع أن تتابع التطور الفكري القائم الآن ما لم تلم إلماماً سريعاً وشاملاً بهذه المرحلة التي تسبق حاضرنا وتلاحقه منذ بزغت النهضة وحمل لواءها الابرار ، وجرت المعارك حول المفاهيم والقيم والمناهج .

ويمكن القول بأن هذا الكتاب يرسم صورة كاملة موجزة واضحة الملامح لشخصية الادب العربي المعاصر في هذه المرحلة .

والى لقاء جديد في مجال البحث العلمي من أجل بناء ثقافة عربية اسلامية متجددة .

القاهرة — فبراير (شباط) ١٩٦٤

أنور الجندي

تطور النثر العربي المعاصر
خلال قرن كامل

تكشف دراسة تطور النثر في الفترة الممتدة منذ اوائل النهضة في العالم العربي (١٨٤٠ تقريباً) حتى اوائل الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩) أن هذه الفترة كانت مجال معركة كبرى بين التقليد والتجديد في الاسلوب ، وبين المحافظة والتجديد في الفكرة والمضمون .

وقد تطور النثر العربي الحديث في خلال هذه المائة عام فقط، أربع مراحل واضحة المعالم خلال تيارين كبيرين هما المحافظة والتجديد ، فقد كانت دعوة المحافظين تحمل لواء المحافظة على اللغة العربية والدفاع عنها ، ودخول معارك في سبيل حمايتها ، وابراز امجاد العرب ، وأحياء تراثهم والدعوة الى وحدتهم وعودتهم الى الكيان الواحد والدفاع عن الاسلام ، ومقاومة كل الآراء الباطلة التي اذاعها كتاب الغرب والدعوة الوطنية في سبيل الحرية ومقاومة الاستعمار والمطالبة بالجلاء ، ولم يكن المحافظون من خريجي الازهر وحده بل ان عدداً كبيراً منهم كان متصلا بالثقافة العربية بل ومنهم من تعلم في أوروبا .

وكانت دعوة المجددين تتراوح بين الاعتدال والتطرف ، وتستهدف الاتجاه الى الثقافة الغربية واستعمال أساليبها ، وتحرير الاسلوب العربي من قيود

الزخرف ، – والترجمة من الآداب الغربية ، واعادة كتابة التـــاريخ الاسلامي والعربي وفق الاسلوب العلمي ، كما أدى إلى ظهور أدب المرأة بعـــد تحررها ، وكانت – اي الدعوة – في تطرفها تنقل نظريـــات متعصبي الغرب ، أمثـــال رينان وغيره ممن يرددون نظريات فوارق الاجناس بين السامية والآرية ، واتهام العقل العربي بالقصور،وتغليب اللهجات العامية وأثارة العصبيات القديمة البائدة ، كالفرعونية والآشوريه والبابلية والبربرية وغيرها ومحاولة الغض من شأن الامجاد العربية والتراث العربي واللغة والدين .

وقد عاش التياران جنباً إلى جنب خلال هذه الفترة، يتصارعان ويتداخلان في معارك ضخمة متعددة ، كانت تشتد حيناً وتهدأ حيناً ، ثم يتأثر كل تيـــار منهما بالآخر ، فيجري المحافظون الى الامـــام فيجددون في الاسلوب والمضمون ويذهب المجددون الى التحفظ قليلاً في انكارهم للقديم كله ، فنشأ من ذلك أربعة تيارات متداخلة . التيار المحافظ ، والمحافظ المعتدل ، والتيار المجدد المتطرف ، والمجدد المعتدل ، أما التيـــار المتطرف فهو الذي دعا الى تغريب الفكر العربي تغريباً كاملاً ، والسير سيرة الغرب ونقـــل حضارته كاملة (ما يحب منها وما يكره وما يحمد منها وما يعاب) والتيار المجدد المعتدل، الذي يدعو الى التطور في النقل ، ومراعاة الظروف ، وحماية الشخصية الذاتية بحيث يزيدها النقل قوة ولا يمسخ معالمها الواضحة .

* * *

وفي خلال هذه الفترة الممتدة من ١٨٣٠ الى ١٨٤٠ عاش الادب العربي حياة خصبة ضخمة شديدة الحركة واسعة التطور،قامت في أساسها على اليقظةالفكرية التي جاءت بعد فـترة طويلة من الجمود والتقليد في أواخر حكم المماليك ، كما يبدو في أساليب كتابنا في تلك الفترة ، وبعد أسلوب « الجبرتي » عنواناً عليها .

ويمكن القول بان « رفاعة الطهطاوي » هو رائـد التيار الجديد : حمل لواء الحركة التجديدية في العالم العربي كله في ميدانيه الكبيرين ، الاسلوب والمضمون

وهو يمثل الصورة التي امتدت طويلاً خلال تاريخ حياتنـــا الأدبية ، اذ يجمع في دقة وقوة بين اللونين اللذين ظلا يؤثران في حياتنا الفكرية ، ويمزج بينهما ، وهما الثقافة الدينية (الأزهر والزيتونه والقيروبين) والثقافة الغربية . وقد استطاع أن يمزج بين أسلوبى المحافظة والتجديـد في اعتدال وقوة ، وقطع بذلك مرحلة طويلة في هـذا الطريق الذي سار عليه من بعده الموكب كله ، فهو قـــد جدد « الاسلوب » حيث تحرر من الزخرف القـــديم ، وترجم من الأدب الفرنسي ، وحمّل كتاباته من « المعاني » على نحو جعل الأسلوب وسيلة للأعراب عنهـــا ، وبذلك القى الضوء الأول على طريق المرحلة التجديدية .

ومن ثم بدأت الهجرة الى أوربا وأمريكا من مختلف أنحاء العالم العربي، حيث شكلت جماعات الأدب المهجري وبعثات الجماعات ، وقـــد اتسم التجديد أول الأمر بالعنف ثم رد بعد ذلك الى شيء من الاعتدال ، وهو انما اندفع الى العنف والتطرف نتيجة لروح الجمود الذي سار عليها الأدب العربي فترة طويلة ، وتحت ضغط ما بهر المهاجرين والمبعوثين من عظمة حضارة الغرب وحريته الفكريـة ، ولذلك مضى التيار التجديدي يعمق ويندفع ، وقد قام في الأغلب على الثقافـة اللاتينية والترجمة العلمية من الانجليزية والترجمة الأدبية من الفرنسية ، ويمثل علماء لبنان جداراً ضخماً في حماية اللغة العربية « اليازجيين والبستانيين واليسوعيين».

وكان كتّاب الشام أشد جرأة من كتّاب مصر، وقد حملت الشام لواء احياء اللغة وتجديد الأدب ودعوة القوميـــة العربية والترجمة ، فلمـــا كانت الهجرة الاضطرارية الى مصر امتزج تيار الشام بتيار مصر — الذي كان طابعه علمياً في الأغلب — وقد جرى الصراع بين المحافظين والمجددين في ميدانين :

(١) حول الاسلوب التقليدي الذي كان يحمل لواءه توفيق البكري ومحمـد بيرم وعبدالله نديم ومحمد المويلحى وابراهيم اليازجي ، والاسلوب الجديد الذي برز في كتابات فـارس الشدياق ، ويعقوب صروف وجرجي زيدان وفتحي زغلول وقاسم أمين ، ثم في أسلوب فرح انطون ، وشبلي شميل .

وكان الصراع في الفكر تقدميـــاً واضح الجرأة يقوم على أساس الدعوة الى

الحرية ومحاربة الاستبداد والاحتلال ، وتحرير الدين من قيود التقليد ، وتحرير المرأة من الحجاب ، ودفعها الى التعلم والسفور .

قاوم جمال الدين ومحمد عبده وعبدالله نديم وعبدالرحمن الكواكبي الاستبداد والاستعمار في قوة وعنف ، ودعا فارس الشدياق ورفاع الطهطاوي وقاسم أمين الى تحرير المرأة ، وبدأ الطهطاوي وفتحي زغلول وعشرات غيرهم الترجمة من الفرنسية ويعقوب صروف وفارس الشدياق من الانجليزية .

وبرزت الدعوة الى احياء التراث الاسلامي وبُعثت اللغة العربية في كتابات رشيد رضا ورفيق العظم ، وظهرت باحثة البادية وأخوات لها في الشام كزينب فواز يكتبن في الصحف وينشئن الفصول .

وهكذا تمثلت في هذه الفترة جميع عناصر الحياة الفكرية ، وهي تندفع الى الحركة والحياة ، لتسد الفراغ الذي عاش فيه الأدب العربي خلال فترة الجمود والتقليد التي امتدت أكثر من ثلاثة قرون ، وكأنما قد بدأت الحياة الفكرية تندفع بقوة ، وتتمثل في محاولة مقاومة الاستبداد السياسي ، والاستعمار والاحتلال الفكري ، وقد حملت الصحافة لواء المعركة بين المحافظة والتجديد ، كانت مرآة الفكر كله ، على صفحاتها أثيرت كل قضايا السياسة والاجتماع والأدب ، صدرت « العروة الوثقى » في باريس لتقاوم الاستعمار البريطاني ، وصدر المقتطف « في بيروت ثم انتقل الى القاهرة ليترجم العلوم ، وتطورت الحضارة ، وصدرت صحف تحمل رأي الاستعمار ، وصحف تحمل رأي الحكام والامراء ، وصحف تحمل لواء الرأي العام وظهرت صحف تدعو الى الجامعة الاسلامية ، وصحف تدعو الى القومية العربية ، وصحف تدعو الى القومية الضيقة في كل وطن عربي .

* * *

فاذا ما بدأ القرن العشرون تبلورت هذه الحركات الفكرية ، وتعمقت هذه النزعات الفكرية ، ومضت تشق طريقها في قوة .

أما الاسلوب التقليدي في الكتابة فقد ظل قائماً ، وإن كان قـــد تقلص في عدد قليل من الكتب، فنحن لا نلمحه الا في حديث عيسى بن هشام لمحمد المويلحي وليالي سطح لحافظ ابراهيم ، وأسواق الذهب لشوقي ، اما فيما عدا هـــذا فاننا نجد أن الأسلوب العربي قد قطع شوطاً جديداً في طريق التبسيط والوضوح ، وخاصة على أيدي كتّاب الصحف ومحرريها، وفي هذه المرحلة تعمق تيار الترجمة فنرى « سليمان البستاني » يترجم الالياذة الى اللغـــة العربية شعراً ويستغرق في ترجمتها أكثر من خمس عشر عاماً .

وظهر تيار الكتابة العلمية المتطرفة في كتابات شبلي شميل وترجماته للنشوء والارتقاء ونظرية دارون ، كما ظهر الأسلوب الانشائي يحمـل الفكرة والقصة والترجمة في كتابات المنفلوطي والبرقوقي .

وظهرت مجلات أدبية تحمل لواء الترجمة من الغرب ، مع احياء التراث العربي على اختلاف في النهج والوسيلة ، وشاركت القيرويين والأزهر والزيتونة بتخرج طائفة من العلماء ، لم تقف عند الفقه بل اتجهت الى الأدب .

وفي هـــذه الفترة كانت الكتابة الأدبية هي أقوى ألوان الكتابة ، كان الاستعمار قد سيطر على المنطقة كلها أو كاد ، وظهرت الصحف تحمل لواء الدعوة الوطنية المندفعة بأسلوب العاطفة والحماسة ، ثم ظهر تيار يدعو الى التقارب مع الاحتلال ومصالحته ، وقبول التعامل معه باسم الدعوة الوطنية الضيقة .

وبدا الكتّاب المجددون في العالم العربي أحد فريقين : فريق يسير في ركاب المحتل ويؤمن بحضارته وأفكاره ايماناً كاملاً ، وفريق مستنير يأخـــذ من القديم بطرف ومن الجديد بطرف ، على هدى وبصيرة في سبيل الحفاظ على شخصيتنا العربية الاسلامية .

وظهر في هذه الفترة الدعاة الى حماية اللغة ، يعملون على تقويمها وترقيتهـــا ودفعها الى الامام لمواجهة الحضارة وكلماتها ، ويدفعون لحملات السوء التي بـــدأ يشنها عليها غربيون ومتغربون ، ظهر في هـــذه الفترة عبدالقادر المغربي ،

وانستاسن الكرملي، واحمد تيمور، ومحمد مسعود، واحمد زكي باشا ، والالوسي، وطاهر الجزائري .

وبدأت كتابة التاريخ القومي على النحو الحديث بكتابات أحمد شفيق ، وفي هذه الفترة ظهرت كاتبات عربيات : عملن في الصحافة وكتبن المقالة ونظمن القصيدة ، أبرزهن : هند نوفل ولبيبة هاشم .

ولم تطل هذه الفترة حيث وقعت الحرب العالمية سنة ١٩١٥ وامتدت الى سنة ١٩١٨ ثم اندلعت الثورات في مصر والعراق والشام وفلسطين والمغرب وبدأت بعد الحرب العالمية مرحلة من أضخم مراحل النهضة الفكرية كان قوامها البحث عن أساس لحياة فكرية وأدبية واجتماعية جديدة ، قد امتد فيها الصراع بين المحافظة والتجديد على نحو أشد قوة وعنفاً .

* * *

تتسم الفترة التي تلي الحرب العالمية الاولى بعمقها واتساعها وضخامتها وغزارة محصولها ، وكتابها ، لقد كان طبيعياً أن تظهر بعد الحرب العالمية الاولى نتائج واضحة الحركات ، ودعوات الحرية والاستقلال التي سبقت الحرب ، وزاد من دقة الموقف أن الدول المحاربة اقتسمت العالم العربي فيما بينها واحتلت الاجزاء الباقية منه ، وخاصة الشام والعراق بعد أن فرقته الى أقطار ، وبعد أن ذاقت الامة العربية خلال الحرب ويلات ضخمة نتيجة لسيطرة الغزاة على أرضها واستغلال خيراتها ، مع الوعود التي اعطيت بالحرية والاستقلال ولم تلبث أن تحولت إلى احتلال وانتداب ووصاية ، وكلها لا تعني غير الاستعمار مختفياً وراء اسماء تخفف من وقعه ، وفي خلال فترة ما قبل الحرب كانت ليبيا والمغرب قد وقعت تحت قبضة الاستعمار .

وقد اندلعت على أثر انتهاء الحرب الثورات المتوالية واضطرت الدول المحتلة أن تعطي لهذه الاقطار استقلالاً ذاتياً ، ودستوراً وبرلماناً واحزاباً متضاربة ، هنالك ، بدأت حركة جديدة من حركات التطور الفكري والثقافي ، فان الاقلام

التي كانت قبل الحرب العالمية تقاوم الاستعمار ، وتدعو الى الحرية والاستقلال والجلاء وتهاجم الاستبداد الممثل في السلطان والخديو والامير ، قد تحولت الى صراع داخلي بين الاحزاب المختلفة منصباً في الاغلب على سلطة الحكم، وقد لوّن هذا الصراع الحزبي الادب في جميع اقطار العالم العربي ، فكانت قضاياه في الاغلب جزءاً من السياسة أو مشابهة لها في اسلوب العرض ووجهات النظر ، وكأنما أحس الاستعمار بان سلطانه القائم على الاحتلال العسكري ، او السيطرة على الحكام ليس كافياً في نظره للبقاء الطويل ، لذلك اتجه الى السيطرة على الفكر العربي والادب والثقافة واللغة والمقدرات والتراث والدين ، وحاول ان ينتشىء صراعاً وأقليمية في هذه القوى جميعها ، وذلك حتى يتبلبل الرأي الواحد وتتحول الفوارق المصطنعة التي أقامها الى فواصل حقيقية ، فقام من يدعو الى الثقافات المحلية ، والى تحويل اللغة العربية الى لغات محلية بتقوية اللهجات ، والكتابة بها ، وايثارها على اللغة الفصحى الأم ، متخذا من موت « اللاتينية » وتفرقها الى لغات فرنسية وانجليزية وايطالية وغيرها مثلاً يضرب، أو منوالاً يحتذى ، واتسع نطاق الدعوة الى فرنسة وجلنزة اللغة والفكر ، وامتد هذا الاتجاه الى مقاومة القومية العربية بالذات ، بالدعوة الى احياء التراث الاقدم ، وقامت اذ ذاك ، دعوات الفرعونية والفينيقية والبابلية والاشورية والبربرية ، وظهرت ابحاث ودراسات تحاول ان تجعل لهذه الدعوات أدباً وثقافة ، وتجري لربط هذا الماضي البعيد بالحاضر القائم ، ثم ظهرت دعوات الى حضارة البحر الابيض المتوسط والى تغليب اليونانية على العقل العربي ، والى التحرر من الطربوش والعمامة الى القبعة ، والى دعوات متعددة في مجالات الثقافة والفكر والاجتماع ، كلها تهدف الى غرض واحد ، هو التشكيك في ماضي الامة العربية وتحويل الفوارق المصطنعة الى فوارق طبيعية، واثارة النزعات القديمة التي انمحت بعد ان اصبحت الرقعة وطناً عربياً موحداً .

وكان هناك من حمل لواء أصحاب التيار التجديدي بقسميه : المتطرف والمعتدل ، وفي نفس الوقت زادت قوة التيار المحافظ وتطور وكسب كثيراً

من المثقفين ، وواجه المعركة في قوة ، وحمل لواء الدفاع عن اللغة العربية ووحدة العالم العربي والاسلامي .

ولم يلبث أصحاب هـذا التيار أن عدّلوا طريقهم فاقتربوا قليلاً من المجددين وتغير اسلوبهم ، وحملوا لواء الدعوة الى « البنـاء على الأساس » وبعث القديم في أساليب حديثه والنقل من الغرب فيما يزيد شخصيتنا قوة ، واضطر كثيرون من معتدلي المجددين الى الانتقال الى صف هذا التيار ، بعد أن كشفت أحداث ما بعد الحرب عن خيبة أمل في الحضارة وحماتها نتيجة لمواقفهم المهينه ، بالنسبة لحرية الشعوب ولتداعي نظرياتهم وآرائهم ، وبعد ان تكشف ان هذه الدعوات انما هي دعوات استعمارية ، اتخذت العلم ستاراً لها ، ولم تكن هي من العـلم في شيء ، وان علماء منصفين من الغرب نفسه قاموا يدحضون هـذه النظريات ، ويقولون بتعصب أصحابها ، واضطر المجددون ان يخففوا من غلوائهم ، عنـدما شاهدوا قادة منصفين من رجـال الفكر الغربي ينصفون العرب ، ويذكرون فضلهم على الحضارة الأوروبية ، ويكشفون عن الدور الكبير الذي قاموا به في سبيل الحضارة والثقافة ، بعد أن نقلوا تراث اليونان والرومان العلمي ، وزادوا فيه ، واضافوا اليه ، وبذلك حملوا ميراث الحضارة في فترة القرون الوسطى التي أظلم فيها الغرب ، ولم يكن هؤلاء الكتاب قلة ، ولم يكونوا من مجهولي الاسم أو الأثر ، بل كانوا أعلاماً بارزين ، وهناك تحول بعض كتّاب التجديد المتطرفـين عن موقفهم ، وبقي آخرون يصرون على الخطأ ، وكانت لهم مواقف – بعـد توقيـع المعاهدات التي عقدت في بعض البلاد العربية مع اعلان الاستقلال الذاتي في ظل وجود جيش الاحتلال ونفوذ المعتمد البريطاني والفرنسي – فيها إمعان في التعصب للحضارة الغربية وإنكار للقومية العربية . ومع إصرار عدد من كتابنا على الوقوف موقف التطرف والانحراف في الدعوة الى التراث العربي ، والتهوين من مكانة اللغة العربية ، وقد كان لهؤلاء صلة ببعض دوائر المستشرقين الذين كان الاستعمار يتخذهم اداة له في تحريف مفاهيم الثقافة العربية ومعالمها .

ومع هذا ، فان كفة « المدرسة الوسطى » التي حملت لواء الجمع بـين الشرق

والغرب والقديم والجديد (على هدى وبصيرة) قد رجحت ، وظهرت صحف في العالم العربي تعد علماً على هذه المرحلة ، وقد زاد من قوة هذا الجناح الأوسط، ان عدداً من كتابنا في مصر ، قد طافوا بالعالم العربي وعادوا وقد تحول اتجاههم فانكروا القومية الضيقة ، وآمنوا بالوحدة الكبرى ، ومضت اقلامهم تدافع عن القيم العربية .

وكان لدعوة التبشير التي اندلعت في هذه الفترة أثرها في نفوس بعض الكتاب فقد اندفعوا الى التماس تحرير الفكر العربي ، بالرجوع الى التراث الاسلامي وامجاد التاريخ العربي .

* * *

وقبيل الحرب العالمية الثانية ، برز عدد من الكتاب والكاتبات حملة أولية المدارس المختلفة ، المحافظة والمجددة ، واتسمت هذه الفترة ببروز عدد كبير من الكاتبات ، كما تعمقت خلال هذه الفترة المذاهب والابحاث والدراسات ، حتى ليمكن القول ان كتّاب هذه الفترة هم امتداد للفترة السابقة، وإن لم يتألقوا تألق السابقين ، ولم يهزوا الحياة الفكرية بأحداث وثورات ومعارك قوية الدلالة.

وتعطي هذه الصورة فكرة التقارب بين المذاهب المختلفة ، والتقاء المحافظة بالتجديد ، فإن أغلب كتاب التجديد قد اتجهوا الى إحياء التراث ، وأخذوا يبعثون القديم في صور جديدة ، في حين جدد الكتاب المحافظون اسلوبهم ، واندفعوا الى شيء من التطور ، غير ان أوضح ما في هذه الفترة هو اختفاء الأسلوب التقليدي الذي عرف في كتابات البكري والمويلحي وشكيب ارسلان، وخلفه اسلوب انشائي نقي ، وأسلوب أقرب الى العلمية ، ومعنى هذا ان الاسلوب العربي قد بلغ في هذه المرحلة درجة من الجودة والنقاء وحسن الاداء ، وزادت إمكانية كتاب « تأديب التأريخ » ، والكشف عن معالم ثقافتنا العربية مع اصطناع الأسلوب العلمي الحديث .

وهكذا بدأت تتركز قواعد (المدرسة الوسطى) على نحو غير منحرف ولا

منحاز يمزج بين القديم والجديد ، والشرق والغرب ، وفي هـذه المرحلة ظهرت مجلات متخصصة للشعر والقصة ، واتسعت آفاق الأدب في الصحف اليوميـــة اتساعاً واضحاً ، فكانت لكل جريدة صفحة أدبية كاملة يومية ، وكان لوجود الكتاب الذين سبقوا في الميدان ، اثر واضح في ان كتاب هذه الفترة لم يبرزوا الى ميدان الصدارة ، وقد كان بعضهم تبعاً لهؤلاء او تلاميذ بحكم سيطرة الأولين على الصحف ومراكز الصدارة في الحياة الفكرية والهيئات .

وهكذا نصل الى الحرب العالمية الكبرى الثانية ١٩٣٩ ، حيث بدأ لون جديد من الأدب وتيارات اخرى لها طابعها الخاص .

أدب المقاومة والتجمع في الأدب العربي المعاصر

ليس أدل على أصالة نظرية الوحدة العربية الشاملة من استجابة الأدب العربي المعاصر كله في فترة من الزمن لمقاومة النفوذ الاجنبي من البصرة على الخليج العربي الى الدار البيضاء على المحيط الاطلنطي .

وقد بدأ ذلك منذ عام ١٨٣٠ عندما احتلت الجزائر ، وكانت قد سبقت ذلك محاولات لاحتلال مصر ١٧٩٩ بواسطة الحملة الفرنسية (نابليون) و ١٨٠٧ بواسطة الحملة البريطانية (فريزر) ، ولم يمض بعد ذلك اكثر من ربع قرن حتى سقطت الجزائر في قبضة الاستعمار الفرنسي ، وتوالت البلاد العربية ، ولم تلبث ان اسفرت الحرب العالمية ألاولى عن خطة شاملة تم بها احتلال اجزاء المنطقة كلها ما عدا الحجاز واليمن،وهنا بدأت مقاومة كان للأدب شعراً ونثراً وقصة، وللصحافة وللكتاب الأثر البعيد في هذه المعركة .

قام الادب العربي في هذه المرحلة الضخمة بدوره كاملاً ، فهو فضلاً عن انه استجاب للتطور ، وتمثل مختلف الالوان التي عاشها الادب العربي في تاريخه الطويل ، قد ابتدع (الادب الوطني) الذي حمل لواء المقاومة للاستعمار والاستبداد ، وطغيان الحكام والامراء ، ونادى بالتجمع والوحدة ، وكشف عن أصالة الامة العربية وقدرتها على المقاومة ، وكان هذا الادب نشيد الثورات المتوالية التي لم تتوقف في خلال قرن وربع قرن . وكان الصوت المدوي الذي

يهز القلوب ، ويدفع الجموع الى الاستشهاد والفداء .

وعندما نستعرض هذه الصور لقرن وربع قرن من أدب المقاومة والتجمع ، نجد ان هناك عوامل موحدة تنظم المنطقة كلها : إيمان بالحق الطبيعي في الحرية اصرار على المقاومة ، صيحات عالية مدوية للتجمع ، قلوب تخفق وتتلاقى من انحاء الوطن العربي تستطيع بايمانها ان تقاوم كل حلقات الارهاب التي قام بها الاستعمار ، وحركات التغريب واساليب التمزيق ومؤامرات التضليل ، كان الشعر ينفث السحر ويهز القلوب ويدعم الروابط ، كانت الامة العربية تتنادى من المحيط الى الخليج وتتجاوب .

ولعل الادب العربي لم يتأثر بحدث كما تأثر « بمأساة فلسطين » وحرب التحرير الجزائرية ، فصور حقيقة الغدر الغربي ، وحمل صورة الحقد والثأر . وعبأ المشاعر .

وكان مفتاح اليقظة التي شملت العرب ، والينبوع الذي تفجرت منه عواطف الكتاب والادباء ، ووحياً وإلهاماً للشعراء ، وقد صور هذا الادب اكبر أثرين خلفتهما النكبة : وهما ضياع فلسطين والنازحين ، كما رسم صورة الشوق والحنين بذكر الوطن ، وابرز صورة « العودة » والايمان بها ، والاعداد لها .

وكان أدب معركة التحرير الجزائرية عنواناً على الايمان بحق الجزائر في الحياة، ودفاعاً عن روحها ، وتصويراً لبطولتها القوية في المقاومة والاستشهاد ، وهو أدب اشترك فيه كل قطر عربي ، وامتزجت فيه صورة فلسطين المضيعة ، بالجزائر التي تصمد للمقاومة والحرب ، وتقدم الشهداء والضحايا .

فاذا تساءلنا ماذا يمكن أن يعطينا هذا الأدب في خلال قرن وربع من الزمان ، وجدنا انه يعطينا صورة عقل « الامة العربية » وعاطفتها في أدق مرحلة من مراحل كفاحها وصراعها واثبات شخصيتها .

ذلك بان هذه الفترة منذ بدأ الاستعمار يغزو العالم العربي سنة ١٨٣٠ حتى

اليوم تمثل احدى الملاحم الضخمة التي خاضتها الأمة العربية في مقاومة مطامع المغيرين الذين كانوا يتطلعون دائماً الى هذه المنطقة ليضعوا ايديهم عليها .

وهي حلقة من حلقات الصراع بين العرب وخصومهم، وسبقتها ثلاث ملاحم ضخمة مع الصليبيين والتتار والعثمانيين . ومن كل ملحمة من هذه الملاحم ، كانت الامة العربية تقاوم بكل قوتها معتزة بشخصيتها وتاريخها وموقعها وتراثها الثقافي ومكانتها الروحية .

ولقد كانت هذه الملحمة الرابعة (الاستعمار الغربي الحديث) من أضخم هذه الملاحم من غير شك ، نظراً لتضخم السلطان العسكري للغرب الذي اكتشف البخار ، ودخل دور الصناعة الحديثة باختراعاته وكشوفه وسلطانه المادي ، في الوقت الذي غفل فيه العرب عن القوة ، فاكتسحوا بالغدر والخيانة والمؤامرة .

وقد صور الأدب هذه المؤامرة الضخمة ، وكشف عن طريق النثر والشعر والمقال والقصيدة والصحيفة والكتابة والخطابة ، عن عمليات الابادة التي قام بها الاستعمار في ليبيا والجزائر وفلسطين ، وكان القوة الدافقة التي تجمع الجموع وتدفع المجاهدين الى الصفوف الاولى .

تستطيع هذه الصورة ان تعطينا عدداً من الحقائق التي تكشف عن جوهر الامة العربية ، فقد كان الادب (شعره ونثره) هو ديوان العرب ، وكانت اللغة العربية هي قوام هذه الرابطة الضخمة ، رابطة القومية العربية على العصور .

وقد حاول الاستعمار في تجربة ضخمة حشد لها كل قواه ، وجند كل امكانياته وعلمائه للقضاء على هذه اللغة وابدالها باللهجات المحلية ، سعياً وراء جعلها لغات أقليمية ، ولكن دون جدوى ، فقد ذهبت جهوده ادراج الرياح ، وبقيت الامة العربية ملتفة حول سارية عالية لا سبيل الى تحطيمها ، وظلت (اللغة العربية) التي كانت قد ضعفت في أواخر العهد العثماني تنمو من جديد ، وتتجدد وتنصقل ، وتتطور على السنة الشعراء واقلام الكتاب ، ترسل

الصيحات المدويـــة فتعبىء المشاعر وتحفز الهمم ، وكانت « العربية » شرارة الثورات المتوالية التي اندلعت في العـالم العربي ، وتوالت وتتابعت ولم تتوقف ، وكانت زاد الشهداء الذين قدموا ارواحهم فداء للفكرة العربية .

وقد كان أبرز مظاهر الادب العربي الحديث في هذه الفترة : هـــذا اللون الوطني – ولا أقول السياسي – الذي أطلقنا عليه « أدب المقـاومة والتجمع » فقد ساد هذا اللون وطغى ، واتسع نطاقه ، وكان أبرز الالوان وأقواها وأشدها اصالة ، وحملته الصحافة في الاغلب ، فكانت رسالته ، وحمله الكتاب ، ونقلت هذه الآثار من الاوطان المضيق عليها الى غيرها ممن كانت أكثر حريـة ، بـــل انتقل الادباء انفسهم وهاجروا من مناطق الظلم ، ولم يقف امرهم عند هذا بـل قدموا الضحايا من أهل العلم ، وسجناء ومهاجرين ومشردين .

ويمثل هذا الادب جانباً ضخماً من أهم جوانب الادب العربي في قرن وربـع قرن ، يكشف عن صدق الاحساس واصالة العـــاطفة ، ووضوح روح المحبـة والاخوة والتلاقي .

وفي الوقت الذي كان الاستعمار فيه يضغط على الحدود المصطنعة ، او يدفع المذاهب التغريبية في محاولة للحياة ، او يوجه صنائعه من حكام الاقطار ليضاعف من قسوة التجزئة ، ويضع بذور الفتنة والشقاق بين قطر وقطر .

كانت قصيدة واحدة تحمل معنى الاخوة العربية والمقاومة والتجمع كافيـة لأن تجعل السدود تنهار ، والحصون تتحطم ، فقد تهتز لها القلوب ، فتجري على الألسنة وتتناقلها الركبان .

فاذا أردنا ان نصور التيارات الفكرية التي كانت تضطرم في المنطقة ، فلا شك ان الدعوة الوهابية كانت مناراً قوياً للحركة الفكرية ، وكانت مقدمة لرسالة جمال الدين الافغاني وما تلاها من حركات فكرية ، حملت رسالة الأدب والثقافة في المهدية السودانيـة ، والسنوسية الليبية ، وخير الدين التونسية ، والألوسية العراقية ، ودعوة الكواكبي في مصر وسوريا ، وابن باديس في الجزائر ، ودعوة محمد عبـده في مصر . وهي تمثل الدعوة الى الحرية والمقاومة للاستبداد ، الهادفة الى العودة

الى المنابع الأولى للعقيدة .

وكان الشعر بالطبع ابرز من النثر اثراً ، فقـــد هاجم شعراء العراق والشام الاستبداد العثماني ، ثم اتجه الشعر الى مقاومة الاستعمار الفرنسي والبريطاني في مختلف انحاء الوطن العربي ، وقد كان الوجود السياسي للعرب سبيـــله الادب كتابة وشعراً وخطابة ، فلم يكن العرب بمدافعين عن وجودهم إلا باللغة العربية في مقالات وقصائد ومطبوعات أثارت نوازع الحمية العربية ، وأطلقت الألسنة والاقلام .

وقد قاوم الشعر العربي مقاومة فعالة ، ودعا الى التجمع ، واضطر الشعراء الى ان يكسبوا سخط الحاكمين وعداوتهم ، ومن هؤلاء : الزهاوي والرصافي في العراق ، كما هاجر من أجل ذلك الكاظمي من العراق الى مصر ، وفي الشام فؤاد الخطيب وشفيق جبري ، واليازجي من قبل ، وشكيب ارسلان الذي اضطره الاستعمار الى الهجرة .

المعركة في المغرب العربي :

ارتقت لغـــة الكتابة بعد التحرر من سلطان الأتراك ، واستهدف الادب العربي القومية العربية والوحدة الاسلامية ، وأفاد الادب العربي من الأساليب الحديثة الأدبين الفرنسي والانجليزي .

وكان اعلان الدستور العثماني ١٩٠٨ في العراق والشام والحجاز ، اعلانـــاً لتطور الأدب العربي من الاسلوب التقليدي الى دعوة الحرية ومهاجمة الاستبداد، مع الحماسة وذكر البطولة والاشادة بالأمجاد ، والدعوة الى النضال .

وكما انشأ طاهر الجزائري المدارس العربيـــة في الشام ، انشأ عبد الحميد بن باديس المدارس العربية في الجزائر ، لمقاومة التيار الفرنسي الذي كان يحمل سموم التغريب .

وقد حمل الاستعمار معه مؤامرة التجنيس والتجزئة ، والفصل بين عنصري

الأمة (العرب والبربر) والادماج ، وحاول في كل واحدة من هذه المؤامرات ما وسعته المحاولة .

فعل ذلك في تونس ومراكش والجزائر والشام،فعلت ذلك ايطاليا في ليبيا، وانجلترا في مصر والسودان وفلسطين والعراق ، وقد رفض البربر الذين كانوا قد امتزجوا مع العرب هذا الاتجاه وتمسكوا بوحدتهم مع العرب ، وسقطت سياسة الادماج ، بعد ان عجزت سياسة « التجنيس » ، وكانت سياسة « التغريب » أكثر فشلاً .

وحاولت فرنسا إحلال اللغة الفرنسية محل اللغة العربية ، فلما عجزت حاولت إحلال الفكر الغربي المنحرف محل الفكر العربي ، ثم دعت الى بعث أمة مغربية تقوم على فكرة الجنس البربري ، ثم حاولت تشويه رسالة الاسلام ، وأتهمته بأنه يتنافى مع العلم والترقي .

ثم عمدت الى القضاء على كل مقومات النهوض بالأمة ، ولكن «الادب العربي» الذي حملته الصحافة كان اداة قوية للقضاء على هذه المؤامرات جميعاً ، فقد تعالت الصيحات من كل أنحاء الشمال الافريقي تقول : « نريد انسانيتنا لا انسانية الآخرين » واننا « لا نعتبر انفسنا أحراراً الا إذا حررنا فكرنا من اللغة الاجنبية ، وحررنا كلماتنا من الدلالات الاجنبية » .

وبالرغم من القيود التي فرضها الاستعمار الفرنسي على الثقافة ، فان الشمال الافريقي كله قد سبق الى توجيه الثقافة العربية عملياً ، عندما بعث بأبنائه شطر الأزهر ، في الوقت الذي قصر فيه المشرق على الالتقاء بالمغرب ، وقاومت جمعية العلماء في قسطنطينة ووهران الثقافة الفرنسية مقاومة جبارة ، وكان باديس والابراهيمي والعقبي وبيوضي أقوى عقبة وقفت في وجه مؤامرات التغريب.

ودليل ذلك ان فرنسا قاومت تعليم اللغة العربية في الجزائر ١٢٦ عاماً مقاومة عنيفة ، ولا يوجد الآن في الجزائر من يتكلم غير العربية اكثر من عشرة في المائة من العرب .

وقد اضطر مفكروا الغرب الى الاعتراف بفشلهم في القضاء على الوحدة بين أجزاء المغرب الثلاثة، ولم تفلح كل الوسائل الفرنسية في تحويل أذواق الجزائريين عن اللون العربي الخالص .

وقامت الزوايا والكتاتيب بأخطر مهمة في تاريخ اللغة العربية ، هي حفظها من تبلبل اللهجات ، حاولت فرنسا ان تجعل من المثقفين الذين تعلموا في فرنسا عملاء لها ، وأنصاراً لثقافتها ، ولكنها فشلت ايضاً ، فقد تكشف لهؤلاء انهيار القيم الانسانية في نظر الاستعمار الفرنسي، فاندفعوا الى صفوف المجاهدين لمقاومة ثقافة فرنسا التي تطمع في (تغريب العرب) .

وكانت الصحافة في تونس والجزائر ومراكش (المغرب) وليبيا، والصحف السورية ايضاً عماد هذه المقاومة تحمل المقالة والشعر ، وبذلك أفلتت الشخصية العربية من محاولة القضاء عليها بالرغم من جميع وسائل القمع ، وباتت أهداف الأدب العربي واضحة بانها الدعوة الى الوحدة الوطنية ، والتحرر من الأفكار الاستعمارية .

وكما شارك الشعر العربي في الجزائر وتونس ومراكش وليبيا في معارك فلسطين ، شارك الشعر العربي في الشام ومصر والعراق في معارك الجزائر ، ووقف الادب العربي كله وراء ثوار الجزائر يؤجج عواطفهم ، ورجع الى الأمة العربية محمد ديب ، ومولود معمري ، ومولود فرعون، من كتّاب الجزائر الذين تأثروا بفرنسا في أول الامر ، والذين ما زالوا يكتبوا بالفرنسية . يقول محمد ديب : « نحن معشر الرجال في جبالنا هذه ، يجب ان تقف البلاد بأسرها وتبصق احتقارها في وجوده الطغاة » وقد تأثر المغرب العربي كله بجمال الدين الافغاني والعروة الوثقى ، وكانت الزيتونة والصادقية والخلدونية في تونس أدوات القوة الفكرية التي حملت لواء دعوة المقاومة للتغريب والاستعمار كله .

وكان الثعالبي وعلي باش حمبة والبشير صفر صحفيين حملوا اقلاماً مؤمنة صادقة دافعت عن الامجاد العربية ، ودعت الى المقاومة والتجمع .

وقـــد تأثر المفكرون في أقطار الشمال الافريقي بالادب في مصر ، وأثار جمال الدين الافغاني ، ومصطفى كامـل والمويلحي وحافظ وشوقي ، وهبت في وقت واحد محاولات لاحياء التاريخ العربي القومي .

وتجمعت الأمـة بعد أن تفرقت ، ودعمت كيانهـــا القومي ، ثم تداخلت عناصرها ، فإن ما حدث في الجزائر حدث مثله في تونس .

تجاوب المشرق مع المغرب :

ونشر الثعالبي مقالات وطنية نارية هاجم فيها فرنسا – وهو التونسي – في صحف مصر وسوريا والعراق والحجاز والهند ، وكانت هذه المقالات تترجم الى الفرنسية وتنشر في صحف تونس ، كما نشرت في صحف مصر مقـــالات نارية وقصائد من العراق وسوريا في مهاجمـــة الاستبداد العثماني ، وترابطت الأفكار والأقطـار ، فكان للرصافي شاعر العراق في تونس مكان مرموق . وكان لشوقي في الشام ولحافظ في لبنان مكانة بارزة .

وتعد مسألة « التجنيس » من أبرز القضايا الفكرية في تاريخها الطويل ، وكان للصحافة في تونس أكبر أثر في توسيع دائرة الحركة الفكرية ، وكان للجمعية الخلدونية أثرها في التجاوب مع الشرق العربي في جميع أحداثه ومواقفه ، فقـد احتفلت بشوقي وحافظ ، وعززت مواقف جهـــاد فلسطين ، وضرب دمشق بالقنابل ، وأحداث مصر والعراق .

وكان قوام الأدب العربي في هذه المرحلة الايمان بالحيـاة والارض والحرية ، وإبان الانتاج الفكري عن عمق الايمان بالوطن ، وبرزت معــه صورة التطلع للمستقبل بروح الأمل والتفاؤل ، وتأكيد الروابط بين أقطـــاره مع تأكيد الوحدة العربية الكبرى ، وكما ذهب شكيب أرسلان من لبنان فأقام في جنيف، ذهب الثعالبي من تونس الى مصر ، والبشير السعداوي من ليبيـــا الى دمشق ، وكانت مصر بالنسبة لليبيا مركزاً لمقاومة الايطاليين .

وكانت من قبل بالنسبة لسوريا مقر الجمعيات السرية لمقاومة العثمانيين ، وقـد

تجاوبت مصر وسوريا وتونس وفلسطين ، وحملت صحافتها لواء الدفاع عن ليبيا وكشفت جرائم الاستعمار الايطالي ، وفي الوقت الذي أوصد الاستعمار الايطالي أبواب ليبيا عن الكتب والصحف العربيـــة ، كان الشباب الليبي نفسه يندفع ليربط نفسه بالفكر العربي مهاجراً ، وقـد فرضت ايطاليا تعلم اللغة الايطالية ، وقاومت اللغة العربية ، حتى أنها أودعت السجن مجموعة من الشباب كانت تقرأ كتاب (العبرات) للمنفلوطي .

كما أن صحف الاستعمار أخذت تذيع الأفكار المدمرة للعقل العربي ، فضلاً عن أنها أشعلت النيران في المكتبات العربية الضخمة ، وساقت الجماهير لتشاهد وأد ثقافتها ولكن هذا لم يطفىء جذوة النضال ضـــد المستعمر ، بل زادهـا اشتعالاً .

ومن وراء صفوف الحرب كانت القصيدة العربيـــة الليبية تهز المجـــاهدين وتدفعهم الى الاستشهاد . وســاهم الشعر الليبي في بث الوعي العربي ، ولم تشغله معركته الوطنية عن الدعوة للوحدة الكبرى .

وأضاف العهد (الجغبوبي) الى الأزهر والزيتونـــة والقرويين مزيداً من طلاب الثقافة ، وفشلت محاولة ايطاليا في سحق اللغة العربية وافنائها ، وإلغاء تراثها في ليبيا ، ولم تستطع ثلاثون عاماً من مقـام اللغة الايطالية في ليبيا أن توهن من اللغة العربية ، أو تضعف مكانتها .

وفي السودان ومصر جرت المحاولات لعزلها ، ولكن الفكر العربي ارتبط بين مصر والسودان من ناحية ، وارتبط بين البربر والعرب في السودان ، فأصبح من العسير أن تمزق قوة قـــد امتزجت ، ولقد لقي السودان من عنف الاستعمار البريطاني ما لقيت مصر ، ولذلك قاوم في ثورات متتالية ، وقـــد انبعثت في أنحاء السودان بعثـــات بيكر وغردون وجي وكازاتي ، تعمل على استئصال جذور الوحدة ، ومنع الامتزاج بالقوة ، مقاومة كل زعماء العرب السودانيين ، اللذين يحملون اللغة العربية الى مختلف الأنحاء ، وقـــد جرى قتلهم وطردهم الى

منطقة البحيرات ، وتجمعت كل هذه الاضطهادات في إطـار ثورة ضخمة تحمل علم المقاومة العربية ، وتمثل رد فعل حقيقي عنيف ضد أعمال الابادة والتجزئة .

وكانت المهدية كالسنوسية معاصرتها ، والوهابية من قبــل ، حركة سياسية فكرية تهدف الى المقاومــة والتجمع ، حتى أن (المهدي) كان يطمع في أن يفتدي (إعرابي) المحكوم عليه بالنفي بغردون ، ولم تستطع الثقافة الانجليزية التي حاول الانجليز اقرارها القضاء على الثقافة العربيـــة واللغة العربية بالذات ، واستطاع السودان أن يستوحي سلالاته وقبائله وماضيه وتراثه ، دون أن يؤثر ذلك في روابطه العربية ، وتأكد أن العناصر البشرية فيه قـــد امتزجت الى درجة يستحيل معهـــا الاحتفاظ بفكرة البقاء العنصري ، وكذلك حدث في تونس وليبيا ومراكش والجزائر .

* * *

وساهم الأدب السوداني بشعره ونثره في أحداث الأمة العربية مساهمة فعالة، وتجاوب مع الأمة العربيـــة ، وبدأ فيه عمق الروابط بين مصر والسودان : وحـــدة الدين واللغة والمصالح المشتركة والمقاومـــة لكل أسباب الاستبداد والاحتلال .

وحمل الشعر السوداني كراهية الاستعمار الغربي ، واستمرار المقـــاومة ، وبروز العامل الوطني الذي التقت فيه الاجناس السودانيـة ، وفشلت مؤامرة القضاء على اللغة العربية في السودان ، وفي الجزيرة العربية كانت المقاومة واضحة في الادب اليمني ، وادب الخليج، وكان للبترول اثره الاجتماعي والفكري البعيد المدى ، حيث بدأت المجتمعات تأخذ صورة جديدة في بناء مجموعات ضخمة من المباني ، مع ادخال مظاهر الحضارة الغربية وبعض مخترعاتها النافعة .

وفي اليمن ادب يحمل معنى المحافظة على الاستقلال ، والمقاومة لكل مـا هو من شأنه ان يؤثر في الحرية ، وفي عُمان والبحرين وقطر ادب يقطر دمـــا ، ويصور البطولة والفداء .

وفي الحجاز ادب فيه الاحساس بالبكاء على المجد العربي القديم ، والدعوة الى اليقظة ، والاتجاه نحو المعالي .

وفي الكويت ادب فيه قلق فكري وتطلع الى الغد .

وفي لبنان أدب تمتزج فيه المدرسة اليازجية والجبرانية المنطلقة الشاعرية ، « والارض » هي اقوى ابطال القصة اللبنانية و « الهجرة » اهم موضوعاتها .

وفي سوريا ادب فيه ايمان عميق بالقومية العربية والوحدة ، وفيه تطلع الى الآفاق البعيدة ، وابرز مظاهره الايمان بالحرية والعروبة .

وقد قاوم الأدب الشامي صراع اللغة التركية ، كما قاوم صراع الثقافة الفرنسية .

واصطبغ الادب العراقي بصبغة التمرد على الحياة ، والضجر من الطبيعة ، والتأفف من الناس ، كما وسم بالثورة وسم بالسخط .

وقد نافح الادب العراقي عن الحرية ، كما نافحت الصحافة العراقية ، وقدما ضحاياهم من كتاب وشعراء للسجن والقتل والتشريد .

وقد قاسى الادب العراقي كثيراً ، فقد كانت الصراحة في الادب والتعبير تلقى جزاءها ثمناً غالياً فادحاً من المطاردة والحرمان .

أما الأدب العربي في مصر ، فقد قاوم طغيان اسرة محمد علي وخديويها ، وكانت ثورة عرابي والاحتلال ودنشواي وثورة ١٩١٩ أحداثاً ضخمة ، تأثر بها الأدب العربي . وقد تشرد كتاب مصر ونفوا وسجنوا وقاسوا الارهاب .

وكانت كلمات جمال الدين الافغاني ، ومصطفى كامل ، وعبدالله نديم ، وعبدالرحمن الكواكبي ، وعبدالعزيز شاويش تهز الشرق كله، وقد هزت أشعار شوقي وحافظ والبارودي ضمير الأمة العربية .

وقد هاجمت الأمة العربية الاستعمار البريطاني والفرنسي والايطالي بصحافة

مصر وكتابها ، وامتزجت عوامل الفكر والثقافة والأدب بين مصر وسوريا ، وكان للسوريين اثر واضح في صحافتها وأدبها .

* * *

وهكذا صوّر الأدب العربي معركة المقاومة والتجمع، صوّر ادب فلسطين : ادب الدم والثأر ، وصوّر أدب المغاربة الأشداء ، وصوّر الجزيرة العربية بصحرائها ووهادها وجبالها ، وصوّر هجرة السوريين واللبنانيين من وجه الظلم والمجاعة والاضطهاد الى امريكا ، وإقامتهم هناك يصنعون المجد والثروة . فكان أدبهم هنالك ذا حنين ، وصيحة ايمان بالعروبة ، ودعوة الى التحرر ، وكان لمجزرة سطيف بالجزائر ، وميسلون بالشام ، ودنشواي بمصر ، رنين في الأدب .

وظهر الشعر الاجتماعي يدعو الى تحرير المرأة ، ويطالب بالعدالة الاجتماعية، وبالرغم من أن الأدب ظهر في مصر وفي لبنان وفي السودان ، وفي أجزاء كثيرة من العالم العربي يحمل الدعوة الى الوطنية الضيقة ، ويفاخر بالأمجاد الفرعونية أو الفينيقية أو غيرها، فان ذلك قد أصبح على مرور الزمن ايماناً بأن الادب الوطني قد يستمد من مجده الفرعي قوة على الدعوة للمجد العربي الاصيل .

وانه حين يمجد رقعته الضيقة ، انما ينظر اليها على انها جزء من الوطن العربي الكبير .

ولا شك ان عظمة لبنان هي عظمة للعرب ، وان شجاعة سوريا جزء من الشخصية العربية ، وان امتزاج الاجناس في تونس ومراكش والسودان هي حقيقة قائمة وراء الايمان القوي بالامة العربية .

وكذلك لم يعرف الادب العربي في هذه الفترة العزلة والانكماش ، ولم يعرف السلبية، وانما امدته هجمات الاستعمار ومؤامرات التغريب ودعوات الانفصالية، والتجنيس والتجزئة ، قوة على ان يحيا ويعمق ويتسع فاستفاد من الادبين الفرنسي والانجليزي في الاسلوب والمعنى ، وفي العرض والاداء ، وامتص منهما

مـــا زاده قوة في نفس الوقت الذي ظلت ملامحـه الحقيقية واضحة لم يضعفها الامتصاص .

وبذلك لم يتحقق لدعاة التغريب من العرب مطمعهم في ان ينتقل من العربية الى العـــامية ، او من الاصالة الى الركاكة ، او يتنكر لامجـاده ويزدريها ، او يستجيب للقومية الضيقة وينفر من التجمع،وسافرت البعثات متوالية من القاهرة ومن تونس ومن لبنان ومن كل انحاء العالم العربي الىاوروبا وعادت دون ان يغير ذلك من فهمها سوى افراد قلائل كشفهم العرب ونبذهم ، بـل ان الذين ذهبوا الى أقصى الارض وعاشوا في قلب التيار الغربي ، لم يستطع هـذا التيار ان يطويهم .

يقول الشاعر القروي في مهجره عن الوطن العربي :

(امتي : اذا اقتطع ذئـاب الاستعمار منها قطعة فكأنما أكلوا جوارحي . واذا أهدروا عربيـاً في لبنان او تطوان فكأنما شربوانخبه من دمي ، وكان كل بلد قوي من بلادي ساعدي مفتولاً ، وكل شعب خامل زندي مشلولاً ، بـل ما أعد ذاتي الا خلية في جسد أمتي . أنا وحدي من سبعين مليونـاً من العرب ، كل واحد منهم أنا . فينبغي أن أحبهم سبعين مليون ضعف حبي لنفس . من افتداهم فكأنما احياني سبعين مليون مرة ، ومن خانهم فكأنما قتلني مثلها) .

وهكذا غلبت قوة الادب العربي الاصيلة على التيارات الضالة التي ما تزال تتردد في خفوت ، ويحملها عملاء للغرب من العرب يدعون لها باسلوب أو بـــآخر ، ولكن ليس في حماسة ما كان في الماضي ولا قوته ، ونحن نثق بأنه لم يعد ممكناً بعـد ان بلغ عمق دعوة الوحدة في الادب ما بلغ ان تستطيع هذه المـــذاهب التغريبية ان تنتصر او تجد سوقاً رائجة .

ولكن الادب العربي مع ذلك يجب ان يظل من اليقظة بحيث يواصل معركة المقاومة التي لم تنته ويضرم نارها .

وصدق الرصافي إذ يقول : « اننا أمـة تدرأ الضيم ، ولا تستكين قط لوال

أو لغاصب » .

وأمكن خلال هذه الفترة أن تدحض نظريات كثيرة كانت متألقة في أول القرن ، فلم يعد صدقاً ما قيل من أن النهضة العربية مستقاة من الثورة الفرنسية .

وقد مضى عهد الخداع الذي بكى فيه شعراء العرب بأحاسيس انهيار بعض الدول الأجنبية ، ولم تعد كلمات أوروبا ذات مكانة في النفس ، بعد مجازر الاستعمار في الوطن العربي .

وجملة القول أن الأدب العربي المعاصر قد ساده خلال فترة المقاومة والتجمع اتجاهان واضحان : التجديد في الأسلوب والموضوع ، والتطور مع روح العصر ومقتضيات الزمن والمحافظة على القديم ، والتمسك بالتراث العربي واحتذاؤه وبعثه ، وقد كانت الحرية هي أبرز دعوات الأدب العربي المعاصر .

وفي كل قطر عربي ظهرت أناشيد كتبتها الأيدي التي قاست الجراح . وكانت معركة مقاومة استبداد عبد الحميد ، واسماعيل ، وتوفيق ، وعباس ، ودعاة الطورانية من الاتحاديين ، هي أبرز معاركنا ، ثم كانت معركة فلسطين والجزائر .

وقد كان طابع الأدب في أول القرن مزيجاً من التشاؤم والشكوى والدموع والبكاء على الأمجاد ، ولكنه لم يلبث أن اكتسب الايجابية والاصالة ، ودخل المعركة في قوة وحمل دعوة المقاومة والتجمع ، وأعلن ثورية على الظلم والطغيان ، وعلى الاستعمار وأعوانه .

ولا شك أن معركة فلسطين وحدت العرب ، وكانت بعيدة الأثر في أدبهم وتاريخهم كله .

تطور الشعر العربي المعاصر

ثلاث مراحل مر بها الشعر المعاصر خلال ثلاثة أرباع القرن منـــذ مطالع النهضة الفكرية التي مر بها العالم العربي كله حتى أوائل الحرب العالمية الثانية .

(الأول) مرحلة التقليد والبعث : حيث بدأ الشعر يتحرر من قيوده العثمانية القديمة . ويأخذ طريقاً جديداً الى البعث بالعودة الى الشعر الجاهلي والسياسي ، وأمام هذه المدرسة في العـــالم العربي كله ، **محمود سامي البارودي** وقد عرفت هذه المدرسة بجزالة العبارة والتعبير عن مشاعر النفس ازاء العواطف الذاتيـــة وازاء الأحداث القومية .

(الثانية) مرحلة التجديد الذي حمـــل لواءه خليل مطران بديوانه ١٩٠٩ ومدرسة الديوان (شكري والعقاد والمازني) ومدرسة المهجر (نعيمـــة وأبو ماضي) .

وهذه المدارس كلها تأثرت بالشعر الغربي عامة . تأثر خليل مطران بالشعر الفرنسي وتـــأثرت مدرسة الديوان بالشعر الانجليزي وتـــأثرت مدرسة المهجر بالشعر الأمريكي وقد اتسمت هذه المدارس في مجموعها بالاتجاه الى الذات وتصوير المشاعر الشخصية مع الايمان بوحدة القصيدة .

(الثالثة) مرحلة تطور الشعر الوجداني والقومي . وفي هذه الفترة تبلورت المدارس الثلاث ؛ رومانسية مطران والديوان والمهجر وفي صورة لها طـــابع

واضح حول جماعة ومجلة أبولو التي ضمت شعراء من العالم العربي كله وان كان مقرها القاهرة . وقدمت جيلا جديداً . كما برزت مدرسة المهجر الجنوبي ذات الطابع القومي .

وهذه المرحلة هي التي عرفت بمدرسة « التعاون الأدبي » حيث ضمت جميع المراحل ومن مختلف أنحاء الوطن العربي .

المرحلة الاولى : مرحلة البعث : المدرسة التقليدية

هي مرحلة الثلث الأخير من القرن التاسع عشر : وهي المرحلة التي استيقظت فيها المشاعر النفسية والوطنية والاجتماعية في العالم العربي كله على أثر رحلة جمال الدين الأفغاني من الهند الى الاستانة الى مصر الى أوروبا . واقامته سبع سنوات في القاهره (١٨٧١ – ١٨٧٩) واتصاله بالمتفتحين من شباب العالم العربي : الكاظمي في العراق وشكيب إرسلان في لبنان وعبد القادر المغربي في سوريا والبارودي ومحمد عبده في مصر .

وقد ذكرت الكاظمي وشكيب ارسلان والبارودي ، لانهم ولا شك تلاميذه في حركة البعث الذي تحول به الشعر من اتجاهه الجامد المضطرب الذي عرف في مصر والعالم العربي كله قبل فجر هذه النهضة . فقد التقى الكاظمي بجمال الدين في العراق والتقى به شكيب في الاستانة . اما البارودى فقد عرف جمال الدين في مصر واتصل به خلال اقامته. وقد احبه السيد ووضع فيه آماله.

ولا شك كان لتعاليم الافغاني اثرها في التحرر الذي برز واضحاً في التعبير والمضمون وفي الشعر والنثر . وفي مجالي الصحافة والدعوة السياسية . في المطالبة بالدستور والمعارضة في مجلس النواب .

وقد حملت هذه المدرسة الجمالية بذور النهضة والتجديد والبعث ودعوة

الحرية في جميع ميادينها . في المقاومة بالقلم في الصحافة (أديب اسحق)والبعث في الشعر (البارودي) وفي تجديد اللغة وأسلوب النثر (محمد عبده) .

كان الشاعر اداة من ادوات الشرف في بـــلاط الملوك والامراء وحفلات التأبين ومناسبات المواليد والوفيات ومناسبات الذكريات التاريخية والوطنية . وقد ظل طوال هذه الفترة التي نؤرخها يؤدي هـــذه المهمة . ومن هنـا يبدو الشاعر في صورته الحقيقية فهو لم يكن حراً ليقول ما يشاء بقدر ما كان يكلف بالنظم في هذه المناسبة أو تلك ولذلـــك قل الاتجاه الى الشعر النفسي والذاتي وغلب الشعر التقليدي لذي قلما كان صادراً من احساس منفعل أو شعور أصيل.

ولقد عاش شعراء هـــذه الفترة وهم مربوطون الى هـــذا القيد الثقيل وفي مقدمتهم شوقي وحافظ والزهاوي والرصافي وكثـــير من شعراء مصر والشام والعراق عاشوا ايضاً مرتبطين الى حد كبير بالقصور والملوك والامراء . وهـو ولاء مثلث ؛ ولاء للخليفـة العثماني وولاء للخديويـــين والملوك . وولاء لممثلي السلطة : الاستعمار والاحزاب والحكام .

فكرومر مُـدِح في مصر وكان هناك شعراء ثلاثـــة يسيرون في ركبه ويسبحون بحمد الانجليز في كل مناسبة هم: احمد نسيم وولي الدين يكن والكاشف ومن شعر نسيم قوله في كرومر :

يا منقذ النيل لا ~~كف~~ـك النيل	يداً لها في فم الاصلاح تقبيل
انا نودع فيك العرف اجمعه	وما لنا غير حسن الصبر تعليل

وفي العراق مدح الزهاوي الانجليز .

وظل شوقي وحافظ على ولاء للخليفة العثماني في كل مناسبة وعيد .

أما الولاء للقصر والحاكم ، فقد اشترك فيه جميع الشعراء فيما عدا قليل جداً منهم : احمد محرم في مصر ، والرصافي في العراق .

كان البارودي هو أول من حمل لواء تحرير الشعر ونقله من مرحلة الركود التي

مر بها خلال فترة طويلة تزيد عن أربعة قرون . وبذلك بدأت مرحلة جديدة للشعر العربي المعاصر نطلق عليها « مرحلة البعث والتقليد » هذه المرحلة هي التي أنهت عصر الانحطاط .

وكان معنى هذه اليقظة التحرر من :

- اللغة القديمة ذات السجع والركاكة والمحسنات البديعية والألفاظ المرسومة .
- الاقتباس والتشطير والتخميس .
- التحرر من الطابع العثماني ونشوء الطابع القومي .
- التحرر من المدائح الرديئة .

وقد رجع البارودي الى أساليب الشعر الجاهلي والسياسي ، فرد الى الشعر رسالته وعارض الشعراء العباسيين ، وحرص على جزالة اللفظ ، وحرر الشعر من الاستعارات والكنايات .

وكان عمله مزدوجاً : (١) بعث اسلوب الشعر ونقله من الصنعة التقليدية والمحسنات البديعية الى إحياء الأساليب القديمة . (٢) نقل ديباجة الشعر من التمدح ، وطلب العطاء الى تصوير المشاعر في ظل التجربة العاطفية والانسانية والانفعال بالطبيعة والحنين ومشاعر الحب والحزن .

كان شعراء عصر الانحطاط يقصرون شعرهم على المدح : مدح الخديو والوزراء وقد مدح الشاعر الساعاتي الوزير اسماعيل صدقي الذي كان مثالاً للقسوة والظلم فقال :

وحبك بالاجماع منا فصادح   بحمدك غريد وآخر باغم

ويقول الساعاتي في مدح الخديو :

رفع القواعد من دعائم دولة   عزت به فنظيرها لا ينظر
قد طاولت بالعدل كسرى واعتلت   شرقاً وقصر عن مداها قيصر

فلما ظهر البارودي تحول الاتجاه ، ارتفع مستوى اللغة بالعودة الى الرصانة العباسية والجزالة الجاهلية ، وارتفع مستوى المضمون ، وبرزت شخصية الشاعر وعواطفه تجاه نفسه وتجاه الأحداث التي من حوله .

وتبع هذا إحياء اللغة وبعثها . وكان كتاب (الوسيلة الأدبية) للمرصفي موجهاً هاماً لمن جاء بعد البارودي : صبري وحافظ وشوقي ومحرم .

وكان طبع الدواوين القديمة ، والاطلاع على الأدب الأجنبي من عوامل تطور الشعر في هذه المرحلة .

ولا شك كانت مرحلة أواخر عصر اسماعيل بعد ظهور جمال الدين بعيدة الأثر في البعث : وقد اتصل هذا البعث بالكتابة والشعر . وبدأت ثورة على الأسلوب التقليدي فيهما معاً . وفي النثر حمل لواء الثورة : محمد عبده واديب اسحق ، وفي الشعر : البارودي .

وكان لديون اسماعيل وما تبعها من تغلغل النفوذ الأجنبي أثرها في ظهور روح المعارضة في مجلس النواب وفي الصحافة ، وقد ارتبط الشعر بالأحداث السياسية ارتباطاً واضحاً .

وكان الحزب الوطني (الأول) هو الذي حمل لواء اليقظة العسكرية .

وفي هذه المرحلة بدأ اتجاه الشاعر الى مجتمعه والأحداث من حوله وهو اتجاه أشد إصالة من اتجاه مدرسة التجديد التي جاءت من بعد . وانفصلت عن الأحداث والمجتمع واكتفت بشعر العاطفة الذاتية .

وفي العالم العربي ارتبط « شعر البعث » بنشأة الحركة العربية في سوريا والعراق وفلسطين ولبنان . وقد آزر الشعر هذه الحركة ومضى معها في مرحلتي تطورها وانحرافها . وتجاوب مع الأحداث في الثورة العربية التي قادها الشريف حسين، وثورة ١٩١٩ في مصر، وثورة ١٩٢٠ في العراق، وثورة ١٩٢٥ في سوريا، وثورة ١٩٣٦ في فلسطين ، كما تجاوب الشعر مع الأحداث الكبرى : دنشواي

مصر ١٩٠٦ ، وميسلون (سوريا) ١٩٢٤ وغيرها ، وكان لفلسطين اثرها الواضح في الشعر العربي .

ونشأ هذه المرحلة :

(الشعر الوطني) شعر المقاومة والحرية ، وكان في مصر مقاوماً للاستعمار الانجليزي ولاستبداد الخديو ، ومقاوماً للرجعية . في المرحلة الاولى من الاحتلال البريطاني ١٨٨٢ الى ثورة ١٩١٩ ، نظم الشعراء عديداً من القصائد في مهاجمة الاستعمار وكرومر ، ونظم المنفلوطي قصيدة في مهاجمة الخديو قال فيها :

قدوم ولكن لا أقول سعيد وملك وإن طال المدى سيبيد

وفي المرحلة الثانية بعد ثورة ١٩١٩ اشترك شوقي علانية في المشاعر الوطنية ودعا الى الحرية والى الوحدة القومية وهاجم اختلاف الاحزاب وصراعها فقال :

الام الخلف بينكم الاما وهذه الضجة الكبرى علاما

وفي العالم العربي كله : كان الشعر لسان المقاومة للاستعمارين البريطاني والفرنسي كما مجد الشعر زعماء الكفاح والوطنية في العالم العربي .

وفي الشام بأقطاره الاربعة (فلسطين والاردن وسوريا ولبنان) والعراق حمل الشعر لواء مقاومة الاستبداد العثماني والدعوة الى القومية العربية والوحدة العربية . وقد سار الشعر في ركب التحرر من الاتراك وقيام الحكومة العربية التي رأسها فيصل ومضى مع ثورة العراق وثورة سوريا مقاوماً الاستعمار الانجليزي في العراق الفرنسي في سوريا ولبنان وفلسطين .

وكان خليل مردم والزركلي وشفيق جبري والشبيبي والرصافي السنة صادقة في تصوير مشاعر المقاومة والحرية والوحدة .

وعرفت مصر شعر الوحدة العربية : نظم شوقي في ثورة سوريا .

وللحرية الحمراء باب بكل يد مضرجة يــدق

ونظم حافظ تجاوب المشاعر بين مصر والشام في قوله :

كلما أن بالعراق جريح لمس الشرق جنبه في عمانه

كما صور الشعر تجاوب المشاعر بين العراق وتونس في شعر الرصافي :

اتونس ان في بغداد قوما ترق قلوبهم لــك بالوداد
ويجمعهم واياك انتساب الى من خص منطقتهم بضاد
فنحن على الحقيقة أهل قربى وان قضت السياسة بالبعاد

ولا شك ان شعراء الشام والعراق وليبيــا زادوا على الشعر الوطني الذي عرف في مصر الشعر القومي الذي حمل لواء الوحدة العربية .

وظهر الشعر الاسلامي في مصر وهو نوعان: شعر في احياء المعاني الاسلامية وشعر يمكن ان يطلق عليــه الشعر « العثماني » هذا الشعر الذي نشأ في مــدح الخليفة وتمجيد عظمة الامــبراطورية العثمانية وانتصار تركيا على اليونان والبكاء على الخلافة واعلان الظفر بالدستور العثماني ١٩٠٨والحرب الطرابلسية الايطالية.

ونظم الشعر الاجتماعي في العالم العربي كلــه يحمل لواء الدعوة الى تحرير المرأة (حافظ والرصافي والزهاوي) ويصور مشاعر الشعب وفقره وآلامــه (حافظ ومحرم والرصافي) .

وفي (السودان) كانت القصيدة الطويلة والقافية والواحدة . وكان كل بيت وحدة مستقلة وكانت العناية بالجرس والتجويد والتشبيهات والاستعارات وكان المضمون هو النسيب ووصف الناقة والطبيعــة والمديح والفخر والرثاء وشكوى الزمـــان . وكان الشعراء يجمعون في القصيدة الواحدة كل الاغراض من غزل ووصف وفخر وحكم .

ثم تطور هذا الاتجاه فظهر الشعراء متأثرين بالتطور الذي أحدثــه البارودي ومن بعده اتباعه صبري وشوقي وحافظ ومحرم .

وارتبطت دعوة البعث في الشعر السوداني بالدعوة الى الحرية والاستقلال بالقومية السودانية وفي شعر عبدالله عبدالرحمن وعبدالله البنا وصالح عبدالقادر.

وفي العراق كان الزهاوي والرصافي والشبيبي والصافي شعراء مقلدون في الشكل مجددون في المضمون لهم نزعة واقعية تقدمية .

وقد تناول الشعر العربي في (العراق): فنون المدح والرثاء والطبيعة والغزل. وبدأ التجديد في المضمون وكان الكفاح من اجل الحرية اظهر معالمه . والدعوة الى التخلص من الخرفة والشعوذة . والدعوة الى التمدن وكانت ابرز معالم الشعر في هذه الفترة : الدعوة الى الحرية السياسية ومقاومة الاستبداد والفساد .

وسار التيار القومي في الشعر العراقي بجوار التيار الاجتماعي .

وفي (سوريا ولبنان) غلبعلى الشعر حمل لواء الدعوة الى المقاومة واستنهاض الهمم والتذكير بالشهداء وعظمة ماضي الامةالعربية وجلالها ومقاومة الاستبداد العثماني ثم مقاومة الاستبداد الفرنسي كما ظهر شعر الطبيعة ومفاخر العرب .

وهكذا يمكن القول بأن فنون الشعر في هذه المرحلة كانت :

١ – الشعر الوطني ٢ – الشعر القومي ٣ – شعر المقاومة ٤ – الشعر الاسلامي ٥ – الشعر الاجتماعي ٦ – شعر الرثاء والمدح ٧ – شعر الطبيعة .

ولا شك ان بروز مدرسة البعث والتقليد في العالم العربي كله كانت تحمل مفهوماً واحداً للشعر هو تصوير المشاعر والخواطر وابرازها في لفظ مؤتلف بعيد عن التكليف . وكان هدفه تهذيب النفوس وتدريب الافهام وتنبيه الخواطر الى مكارم الاخلاق – على حد تعبير البارودي – وكان ابرز ملامحه تصوير مشاعر مقاومة الاحتلال . وقد عرف الشعراء بملامح واضحة . كان طابع شعر البارودي غمامة حزن واضحة ، عرفت في شعر حافظ ومحرم وعرف الكاظمي بالقدرة الوافرة في النظم على السليقة وعرف الزهاوي بالجرأة في معالجة القضايا الاجتماعية كتحرير المرأة ومقاومة الجمود وغلبة الشعر الفلسفي والايمان بالتجديد

وكان نظمه أقل جودة وعنايته بالمعنى اكثر من العناية باللفظ . مع ثورة على التقاليد وكان الرصافي شبيهاً به مع فوارق في الطبيعة والاتجاه .

وقد غلبت ديباجة البحتري على معظم شعرائنا وعرف الشعر في هذه المرحلة بالجزالة . وعرف الرصافي بالشعر الاشتراكي فقد تأثر بالفقر وهاجم الملكية في بغداد وهاجم الانجليز وهو في هذا يختلف مع الزهاوي الذي جامل الملكية والانجليز .

لم يقرأ البارودي او حافظ الشعر الغربي وقرأه شوقي وخليل مردم وعلي الجارم ولكنهم لم يتأثروا به كثيراً . وقليل من شعراء هذه الفترة من اكتفى بتسجيل عواطفه وإنما جعلوا همهم الاكبر تصوير مشاعرهم ازاء الاحداث الوطنية .

وقد اتسمت هذه المرحلة بالنزعة المثالية ، كانت هذه النزعة واضحة في شعرهم فقلما رأى احدهم انه في سبيل التعبير عن مشاعره يخرج عن المألوف ما عدا قليل جداً ممن نظموا شعراً وتحرجوا عن ان يودعوه دواوينهم او يحملوه اسمائهم .

وفي الوقت الذي كان شوقي وحافظ يمجدان عبد الحميد كان الشبيبي والزهاوي — وغيرهم يذمون عبد الحميد . وقليل من شعرائنا من كانوا في جرأة الزهاوي في الخروج على التقاليد الموروثة فقد اعتاد الشعراء ان يجروا مع ارضاء الجماهير .

وبالرغم مما اتسم به الشعراء من انهم يمدحون ويذمون وفقاً للمصالح . وانهم يجرون وراء زعيم أو أمير مأجورين . فان هناك شعراء ظهروا غاية في النقاء والتجريد والبعد عن مطامع الشعراء . من هؤلاء أحمد محرم وعبد المحسن الكاظمي .

واللغة العربية وجدت من يدافع عنها (حافظ ابراهيم) والاسلام وعظمته (احمد محرم) وكان هناك من وقفوا في وجه تيار التغريب ومن هؤلاء (عبد

المطلب) والدعوة الى الامجاد العربية والاسلامية وابرازها شكيب ارسلان وشوقي ولا شك ان المدرسة التقليدية قد تأثرت بدعوة مطران والديوان والمهجر وحاولت ان تغير من اساليبها . وعمدت الى ابتداع فنون جديدة . وقد ابتدع شوقي . (المسرحية الشعرية) وسار في هذا التيار عزيز اباظه كما كان للنفي اثره فقد تأثر به شوقي وتحول كما كان للغربة اثرها في شعر البارودي المنفي الى سيلان والكاظمي المهاجر الى مصر ورفيق شاعر ليبيا .

وكان للمرأة دورها في الشعر في هذه المرحلة . فقد ظهر شعر المرأة – بعد أن تخلف زمناً طويلا – في نظم عائشة التيمورية ووردة اليازجي ورباب الكاظمي .

ولقد امتدت المدرسة التقليدية بعد ظهور المدرسة الحديثة ومدرسة أبولو ولم تتوقف حتى نهاية الفترة التي نؤرخها وما بعدها . وإن لم تظهر بها عبقريات بارزة على نحو البارودي وشوقي والزهاوي ومحرم الكاظمي وقد عني شعراء المدرسة التقليدية بالوطنيات والقوميات والاجتماعيات والاخوانيات والوصف والاسلاميات كما عنوا بالملكيات والمراثي والاجتماعيات . ولا شك أن شعر الغراميات والاخوانيات والمداعبات يمثل الجانب الذاتي للشعراء . وهو أصدق هذه الألوان جميعاً .

وتحوي دواوين شعراء هذه الفترة شعر يمكن أن يطلق عليه شعر المطالبة والاستجداء . هذا الشعر الذي يبدأ بقول الشاعر : عنت للشاعر حاجة الى السيد السند الأجل الاكرم فلان فقال فيها : أو « أغضى الوزير الفلاني عن رغبة الشاعر فعاتبه بقوله » :

وقد اندمج بعض شعراء التقليد في الأحزاب المختلفة ، وأوقف بعضهم شعره على بعض الأسر والبيوتات : وهناك باب في ديوان أحد الشعراء اسمه (الرازقيات) عن آل عبد الرازق وذلك فضلاً عن شعر استقبال العظماء وتوديع الكرماء .

وعندي أن الشعراء في هـــذه الفترة كانوا تابعين ، ولم يكونوا متحررين . وأنهم على الجملة كانوا الى ذلك جوقة النشيد الى الحرية والجهاد والنضال ولكنهم لم يتحرروا تمامــاً من السلطان والتبعية للملوك والأمراء والحكام . وكانوا شأنهم شأن كتاب الصحف الحزبية يمدحون أنصارهم ويذمون خصومهم . وأن طـابع « المداحين » الذي عرف عنهم في الفترة السابقة للبارودي كان غاليــاً وأنهم لم يتخلصوا منه تمامــاً فقد كان أغلبهم يتكسب بالشعر أو يتخذه سلاحاً لبلوغ الحظوة .

وربما كان الدافع الشخصي مصدراً لحملات لهـــا طابع الوطنية ومقاومـة الاستبداد ولا يمنع هذا من القول بأن الشعر العربي في مجموعة في هذه الفترة قـد ضم صوراً ومعان ولوحات غـــاية في الروعة ويمثل ديواناً كاملاً في المقاومـــة والتجمع والحرية والوحدة الكبرى كما يقدم صورة رائعـــة في شعر الحنين الى الوطن وشعر الحرب وقصائد الاسلام والعروبة وشعر الغناء .

مرحلة التجديد

تبدأ « مرحلة التجديد » في الشعر العربي المعاصر في العـالم العربي بدعوة مطران التي اعلنها عام ١٩٠٠ في مجلة « المجلة المصرية » الى تحرير الشعر العربي من قيوده .. وتمتد إلى ظهور ديوان « مطران » الذي يحمل هـذه الدعوة عام ١٩٠٨ ثم ظهور ديوان شكري ١٩٠٩ وتوالى ظهور دواوين شكري والمازني والعقاد الى ظهور الديوان بقلم (العقاد والمازني) عام ١٩٢٢ والغربال (ميخائيل نعيمة) وهو دستور التجديد في شعر المهجر (عام ١٩٢٤) وتضم هـذه المرحلة أربـع تيارات كبرى :

(١) تيار مطران ويضم شيبوب وابو شادي (٢) تيـار الشعراء الثلاثة الذي أطلق عليهم مدرسة الديوان (شكري والعقاد والمازني) (٣) مدرسة المهجر (ميخائيل نعيمة وايليا ابو ماضي) (٤) امتداد التيار التقليدي بمـا ادخل عليه من تجديـد في ظهور المسرحيات الشعريـة لشوقي وشعر التجديد والمرسل والزهاوي والرصافي .

لا شك كانت دعوة مطران ، هي الصيحة الاولى للتجديـد في الشعر العربي المعـاصر وهي صيحة هادئة مضى مطران يرددها في كتاباته ويطبقها في نظمه وشعره متأثراً في ذلك بالمدرسة الاوروبية الحديثة عامةوبالمدرسة الفرنسيةخاصة وكان مطران قد أوغل في مطالع حياته في قراءة الشعر العربي الجاهلي والعباسي

ونظم شعراً تقليدياً قبل أن يتصل بالمطالعات الغربية ثم انكره . وبدأ ينظم شعره الجديد على أساس دعوته : التي تتلخص في وحدة القصيدة والتجديد في المضمون وتطعيم الشعر العربي بمذاهب الشعر الغربي ، وقد جدد مطران في المضمون وظل محافظاً على جزالة الاسلوب كما دعا الى التحرر من تقيد الشعراء بذوي الجاه والنفوذ وانكار شعر المناسبات والوقوف عند شعر الذات .

وقد صور مذهبه في قوله (شرعت أنظم الشعر لترضية نفسي حيث أتخلى أو لتربية قومي حين وقوع الحوادث الجلى . متابعاً عرب الجاهلية في مجاراة الضمير على هواه ومراعاة الوجدان على منتهاه . موافقاً زماني فيما يقتضيه من الجرأة على الألفاظ والتراكيب وذلك مع الاحتفاظ جهدي بأصول اللغة وعدم التفريط في شيء منها .

والمعروف ان مطران لم يستطع ان يتمسك بمذهبه كاملاً فقد أوغل في شعر المناسبات وذلك بحكم طبيعته التي تؤثر المجاملة وهو من أجل ذلك أيضاً حرص على ارضاء المحافظين والمجددين . فجمع بين التجديد والتقليد حيث جدد في المضمون واحتفظ بجزالة اللغة .

وقد اكتفى بالدعوة ولم يكوّن مدرسة تحمل لواء حركة . ولم يجعل من هدفه الحملة على القديم تحت ضغط ظروف أبرزها طبيعته التي لا تحب الجدل والمعارك وظروفه الخاصة من الهجرة والاغتراب وطبيعته الانطوائية وظروفه الدينية والاجتماعية .

وقد ابتكر مطران في المعاني والافكار الشعرية . وأدخل الوحدة العضوية الكاملة في القصيدة وصور ارتباط مشاعره بالطبيعة . وأدخل الى الشعر العربي الاتجاه القصصي ، فنظم القصص التاريخية ذات الطابع الرمزي والدرامي .

وكانت خلاصة دعوة مطران أن يكون الشعر صورة للحياة التي نحياها وبذلك أنشأ التيار الموضوعي في الشعر العربي الحديث .

وقـــد أعلن كثير من الشعراء تأثرهم بمطران في مقدمتهم : خليل شيبوب وزكي ابو شادي وابراهيم ناجي . وقد اتيح من بعد لزكي ابو شادي ان يحمـل لواء الدعوة الى التجديد في المرحلة الثالثة التي تبدأ عام ١٩٣٢ .

والواقع أن دعوة الشعراء الثلاثة (شكري والمازني والعقاد) بحسب ترتيب صدور دواوينهم (١٩٠٩ – ١٩١٣ – ١٩١٦) .

وهي في مجموعها لم تخرج عن مضمون دعـــوة مطران وأن زادت عليهـــا عنصرين هما :

● التحرر من قيود الرصانة في الاسلوب .

● الحملة على المدرسة القديمة ودخول معركة ضخمة في سبيل تحطيم قواعدهـــا فقد تحرر شكري – وهو أول من تابع مطران تاريخياً – (اذ اصدر ديوانـــه عام ١٩٠٩) من قيد الرصانة في الاسلوب .

وحمل المـازني والعقاد لواء الهجوم العنيف على المدرسة التقليديـــة فهاجم المازني الشاعر حافظ ابراهيم ١٩١٤ وهاجم العقاد الشاعر احمد شوقي ١٩٢٢ .

ويرى كثير من النقاد ان شكري تأثر بأخيلة مطران وعباراته ووحـــدة الطريقة عندهما وأن الفروق التي بين شعريهما ترجع الى الاختلاف في الشخصية .

وقـــد احتذى شيبوب مطراناً . وتأثر ابو شادي بالطلاقة الفنية عنده ، وتأثر ناجي بجو مطران واخيلته . ومن الملاحظ هنـا ان ثقافة مطران فرنسية وثقافة الثلاثة (ش . م . ع) انجليزية وكذلك ثقافة الدكتور ابو شادي .

بدأ التيار الذي عرف باسم (الديوان) منذ أصدر شكري ديوانه الأول ثم كان اللقاء بين شكري والمازني والعقـاد مبعث نهضة شعرية امتدت منذ صدور ديوان شكري الأول ١٩٠٩ الى صدور (الديوان) ١٩٢٢ .

فقد كانت ثقافة الشعراء الثلاثـة انجليزية المصدر . وكانت مطالعاتهم للشعر الانجليزي وتأثرهم بالناقد [هازلت] هي مصدر الاتجاه الذي عرفوا بـه . ولا

شك كان أشدهم رصانة في مفاهيم الشعر الحديث (شكري) وأكثرهم عنفاً في حمل لواء المعارضة « العقاد » ويليه المازني وكان لاشتغالهما (ع و م) بالصحافة أثره القوي في بروز دعوتهم والالتفات الى معاركهم .

وكان يمكن أن تكون هذه المدرسة ذات أثر قوي بالغ لولا أنها تفككت سريعاً . فقد وقعت الخصومة بين شكري والمازني بما قضى عليهما معاً . ذلك أن شكري اتهم المازني في مقدمة ديوانه (الخامس) بأنه سرق عدداً من قصائد الشعر الانجليزي ونسبها الى نفسه وقد كشف هذه القصائد وأبان مصادرها . فكانت هذه المعركة التي امتدت مصدر خسارة كبرى حتى أن جماعة الديوان عندما بدأت تركز دعوتها في حركة ذات كيان . كان شكري رأس الجماعة قد تخلف عنها وحمل الديوان لواء الحملة عليه . كما حملها على الخصوم من رجال المدرسة التقليدية ، بل أن حملة المازني على شكري بعنوان (صنم الألاعيب) كانت أشد عنفاً من حملة العقاد على شوقي .

وكان أن اعتزل شكري الأدب واعتزل المازني الشعر بعد ، ولم يعد الديوان غير شاعر واحد هو العقاد .

والواقع أن « الديوان » لم يكن مدرسة بالصورة التي تفهم من هذه الكلمة وإنما كان امتداداً لدعوة مطران وأهم آثارها انها زادت الدعوة الى مذهب الشعر الحديث عمقاً وقوة باتساع نطاقه وظهور شعراء لهم نفوذ صحفي أعانهم على التبريز وبالمعارك التي حمل لوائها زعمائه وأبرزها معركتين : المازني مع حافظ والعقاد مع شوقي .

وهناك رأي يرى أن هجوم العقاد والمازني على المدرسة التقليدية (حافظ وشوقي) بالذات لم يكن هدفاً مذهبياً أو عملاً فكرياً له إطاره ومقوماته . وإنما جاء في طريق العمل الصحفي السياسي الذي كان (المازني والعقاد) مرتبطان به .

فالعقاد كاتب الوفد كان يهاجم شوقي لأنه على خصومة أو خلاف مع سعد

زغلول ، ويتصل بهذا ما يقال من حملة طه حسين على شوقي الذي كان يبغضه رئيس حزب الأحرار ، بينما كان يحتضن حافظاً .

ولقد تحول المازني عن حملته على حافظ ، كما تحول طه حسين عن حملته على شوقي ، وبقي العقاد مصراً على موقفه بداعي شعاره الذي يقول أنه لا يغير آرائه .

وليس لهذا التحول معنى إذ أن هذه الآراء – في نظر العقاد – لم تكن خالصة مجردة كاحكام ادبية ، وإنما كانت (نزوة صحفية سياسية) .

وإذ استطاعت جماعة الديوان ان تكون « حركة » فانها عجزت عن أن تكون « مدرسة » .

ويرى بعض النقاد أن شكري والمازني والعقاد ، بالرغم من حملتهم على التقليد في الشعر العربي وثورتهم على قيود الأوزان والقوافي لم يخرجوا بالشعر عن دائرته الغنائية . ولم يفعلوا إلا ما فعله مطران من تحويل الشعر نحو الموضوعية القصصية كما أنهم لم يتحللوا من الأوزان وإن قالوا بالقافية المزدوجة لكل بيتين .

أصدر شكري أول دواوينه ١٩٠٩ ، وظل يواصل اصدارها حتى ١٩١٩ ثم توقف نهائياً . وأصدر المازني أول دواوينه ١٩١٣ ، وتوقف في نفس الوقت الذي اعتزل فيه شكري . وقد علل انصرافه عن الشعر إحساسه بأنه لن يستطيع التبريز فيه والوصول الى القمة ، فتطلع الى ذلك في مجال النثر .

وأصدر العقاد أول دواوينه ١٩١٦ وظل يواصل قرض الشعر وإصدار دواوينه الى ما بعد نهاية المرحلة التي ندرسها .

وكان شكري رائد المدرسة في قرض الشعر وإن لم يكن له دور في مجال النقد والتوجيه ، وكان اتجاه العقاد والمازني وشكري الشعري هو : الثورة ضد الحياة والبرم بها والتمرد عليها ، والشك في الإيمان بالله والحياة الآخرة .
وقد عرف المازني بالتيار العاطفي الشاكي المتمرد المتشائم ، وعرف العقاد

بالتيار الفكري التأملي . أما شكري فقد جمع بين التيارين .

ويرى شكري أن :

- أجل الشعر ما خلا من التشبيهات البعيدة والمغالطات المنطقية .
- أجل المعاني الشعرية ما قيل في تحليل عواطف النفس ووصف حركاتها .
- ان قيمة البيت في الصلة التي بين معناه وبين موضوع القصيدة ، لأن البيت جزء مكمل ، ولا يصح ان يكون البيت شاذاً خارجاً عن مكانه من القصيدة بعيداً عن موضوعها .
- ينبغي ان ننظر الى القصيدة من حيث هي وحدة كاملة لا من حيث أنها أبيات مستقلة .

وقد وصف شكري بأنه شاعر وجداني ذاتي ، يرى الشعر نسيج مشاعره وليس نسيج الأحداث السياسية . والحب في شعره هو الحب المحروم وقد سيطر التشاؤم على شعره كما سيطر على شعر زميليه العقاد والمازني .

والفرق بينه وبين المدرسة التقليدية هو أن شوقي مثلاً اذا تحدث في فرعونياته او اسلامياته اشاد بمجد الآباء . أما شكري فانه يصور مشاعر نفسه وخواطره ازاء هذه المعاني . وإذا رثا لم يذكر امجاد الميت كما يفعل القدماء وانما يتحدث عن الموت والحياة وأثر الموت في نفسه .

ومذهب شكري هو « النظر الى القصيدة من حيث هي شيء فرد كامل لا من حيث هي أبيات مستقلة . ويرى أن قيمة البيت هي في الصلة التي بين معناه وبين موضوع القصيدة ويرى ان الشاعر الذي لا يعنى باعطاء وحدة القصيدة حقها مثل النقاش الذي يجعل نصيب كل أجزاء الصورة التي ينقشها من الضوء نصيباً واحداً » .

وقد حاول شكري أن يدفع الرأي القائل بتأثره بمطران فقال « بالرغم من

اجلالي خليل مطران والدكتور ابو شادي أقول أن شعري ليس فيه احتذاء لطريقة خليل بك ولا يقارب من طريقة ابو شادي » .

اما المازني فله في هذه المرحلة دورين : نظم الشعر والنقد العنيف .

وقد اهتم المازني في صدر شبابه بقول الشعر . ثم فصل بين ماضيه وحاضره

بعد أن تحول عن الشعر ، وجعل المازني الجديد يرثي المازني القديم . ويقول في بعض استشهاداته : قلت هذا المعنى (ايام كنت أقول الشعر) والمازني القديم هو الشاعر والمازني الجديد هو الكاتب .

وقد نشر المازني ديوانه من الشعر عامي ١٩١٣ و ١٩١٧ .

ووصف شعره بأنه « لا يصور النفس على حقيقتها ولا يعبر عنها تعبيراً صحيحاً لأن الاقتباس فيه بالقديم من شرقي وغربي اكثر من الاستجداد من التجريب » .

وعنده : ان الشعر خاطر لا يزال يجيش بالصدر حتى يجد مخرجاً ويصيب متنفساً .

العقاد

صور العقاد في ختام كتابه « شعراء مصر » اتجاه تيار « الديوان » بأن الجيل الناشىء بعد شوقي وليد مدرسة لاشبه بينها وبين من سبقها في تاريخ الادب العربي الحديث « فهي مدرسة أوغلت في القراءة الانجليزية ولم تقتصر قراءتها على اطراف الادب الفرنسي . كما كان يغلب على أدباء الشرق الناشئين في أواخر القرن الغابر » .

« ولعلها استفادت من النقد الانجليزي فوق فائدتها من الشعر وفنون الكتابة الاخرى . ولا أخطىء إذا قلت أن « هازلت » هو امام هذه المدرسة كلها في النقد لانه هو الذي هداها الى معاني الشعر والفنون وأغراض الكتابة . وان المدرسة العصرية ليست مقلدة للادب الانجليزي ولكنها مستفيدة منه مهتدية على ضيائه » .

وقال : أنهم اطلعوا على الادب العربي القديم من مصادره واستفادوا اللغة من الجاهليين المخضرمين والعباسيين « وعنده أن هذه المدرسة قاومت الفكرة التي يفهم اصحابها الادب القومي على أنه الادب الذي تذكر فيه الظواهر والمعالم القومية بالاسماء . والتواريخ والحوادث .وهكذا كان جيل شوقي يفهم القومية. فليس من الادب القومي عندهم أن يصف الشاعر عواطفه الانسانية . وعنده أن يكون الشاعر انساناً يشعر بقومه وبالدنيا والارض والسماء » .

والفكرة الثانية التي قاومتها مدرسة الشعراء الثلاثة هي عنـد العقاد فكرة أن لا يكتب الكاتب حرفاً لا ينتهي الى لقمة خبز فمدرسة الشعر المصري تعنى بالانسان .

ويجمل دعوة العقاد في الشعر هي (١) التعبير عن الذات (٢) الوحـدة العضوية للقصيدة (٣) التحرر من القافية الواحـدة والدعوة الى تنويع القوافي (٤) الاتصال بالطبيعة (٥) التقاط الاشياء العابرة والتعبير عنهـا تعبيراً فنياً جميلاً – ويرى العقاد « ان القصيدة بنية حيـة وليست قطعاً متناثرة يحملهـا اطار واحد » .

صدر الديوان عام ١٩٢١ في جزئين وقدمه صاحباه بأنـه كتاب في النقد والادب – يتم في عشرة أجزاء لمؤلفه عباس محمود العقاد المحرر بجريدة الاهرام وابراهيم عبد القادر المازني المحرر بجريدة الاخبار ، الجزء الاول في ٦٢ صفحة يضم ثـلاث موضوعات شوقي في الميزان (للعقاد) « في ٤٥ صفحة » و (صنم الالاعيب) في نقد شكري بقلم (ابراهيم عبـد القادر المازني) النشيد القومي (لعبد الرحمن صدقي) .

والجزء الثاني في ٩٦ صفحة يضم ثلاث موضوعات : أدب الضعف (في نقد المنفلوطي) لابراهيم عبد القادر المازني . وباقي مقال شوقي في الميزان للعقـاد (في ١٥ صفحة) وباقي مقال صنم الألاعيب للمازني في نقد شكري .

وأبرز ما يتضمنه الديوان :

(١) نقد شوقي (٢) نقد المنفلوطي (٣) الحملة على شكري .

وقد حاول العقاد تطبيق نظرية وحدة القصيدة على شوقي ، وأتهمه بأن من عيوب شعره انعدام الوحدة في قصائده . وتناول قصيدة « المشرقان عليك ينتحبان» التي رثا بها مصطفى كامل وبدل أبياتها وغير مواضعها ، مثبتاً ان ذلك التغيير لم يؤثر في القصيدة وأن دلالة ذلك هو عدم وحدة القصيدة .

غير أن الدكتور مندور جاء باحدى قصائد العقاد من ديوانه (هدية الكروان) وهي « رقيق الصبا المعسول أبكيك والصبا » يرثى بها حسن الحكيم وفعل بها مثل ما فعله العقاد بقصيدة شوقي وانتهى الى نفس النتيجة .

وقد أوضح الكثيرون ان حملة العقاد على شوقي كانت حملة سياسية ولم تكن عملاً فكرياً خالصاً، وأن العقاد نفسه لم يتقيد بالأصول التي رسمها للشعر الحديث ولم يطبقها على شعره ، وأنه هو الداعي الى إنكار الألوان التقليدية من شعر المناسبات والمديح والرثاء ، قد اقترف هذه الألوان من بعد وأوغل فيها . وكان العقاد قد بدأ حياته الشعرية باللون التقليدي في مثل قصيدته عن السلطان حسين وانتهى الى مدح الملوك والزعماء وحشد القصائد لمن ناصرهم من رجال الأحزاب.

وقد انتهت جماعة الديوان عام ١٩٢٢ ، وكان الديوان علامة على نهايتها ككل ، وذلك بعد انقسامها وحملة المازني على شكري . فقد هجر شكري الميدان ، وانصرف المازني بعد قليل عن الشعر ، ومضى العقاد في طريقه مصراً على اتجاهه .

وخلاصة القول في تيار الديوان أنه : تقدم بالشعر خطوة عن دعوة مطران فنظم على النحو الجديد على أساس وحدة القصيدة والصورة النفسية وشعر الطبيعة الذاتية ، وزاد عن مطران : التحرر من قيد الرصانة اللفظية . والحملة على الشعر القديم ومدرسته ، وفي نفس الوقت ساير التقليديين في النظم وفي فنونهم التي أنكرها أول الأمر ، وليس هذا العيب قاصراً على تيار الديوان (شكري والمازني والعقاد) بل ان مطران نفسه وقع فيه .

وكان تيار الديوان يستمد من الثقافة الانجليزية بينما كان مطران (المدرسة الحديثة) وشوقي وصبري (المدرسة التقليدية) يستمدان من الشعر الفرنسي ومن الثقافة الفرنسية .

وقد اتسمت مدرسة الديوان بالتشاؤم . وكان شكري ذروة هذا التشاؤم في حزنه العميق وانقباضه . ومصدر هذا أنهم أصيبوا بمرض العصر وهو

الصراع بين طموح الشباب وظروف المجتمع فحملوا المعاول لهدم القديم . وقد استطاع العقاد والمازني أن يحولا طاقتهما الى الصحافة . أما شكري فلم يستطع .

* * *

تيار المهجر :

وكان لمدرسة المهجر دورها الواضح وأثرها الكبير في تطوير الشعر العربي المعاصر وهي امتداد لدعوة مطران وتيار الديوان . وتمثل مدرسة المهجر تياراً واضحاً في الأدب العربي المعاصر كله . هـذا التيار الذي يتمثل في الدعوة الى تجديد الأسلوب والمضمون .

وعندنا أن « ميخائيل نعيمة » هو فيلسوف هذه المدرسة وفقيهها وناقدها الأول وأن « إيليا أبو ماضي » هو رمز للشعر المهجري في الشمال،« والشاعر القروي » رمز للشعر المهجري في الجنوب . والمعروف أن المدرسة المهجرية مرت بمرحلتين وجناحين ، المدرسة الأولى التي أنشأها جبران ونعيمة وإيليا أبو ماضي في نيويورك (١٩١٤) وهي التي أطلقوا عليها مدرسة (الرابطة القلمية) وقد انطوت هذه المدرسة في الثلاثينات بوفاة جبران وعودة « نعيمة » بعد أن امتدت الى ١٩٣١ ، وفي الثلاثينيات أيضاً بدأ الجناح الثاني في إنشاء مدرسة المهجر الجنوبي (مدرسة العصبة الأندلسية) التي ولدت في سنة ١٩٣٢ وهناك فوارق طبيعية بين المدرستين .

الأولى : غلب عليها النثر . واتسمت بحملتها على اللغة العربية ، ودعوتها الى التجديد والشعر الذاتي كانت بالغة العنف في مهاجمة المدرسة التقليدية .

الثانية : غلب عليها الشعر وكان طابعها الدعوة الى القومية العربية وأمجاد العرب والعناية بالرصانة اللفظية من أبرز مظاهرها .

ويرى المستشرق اغناطيوس كراتشقويفسكي أن سيطرة « المدرسة السورية المتأمركة » انتهت بانتهاء الحرب العظمى (الأولى) فانقطعت الصلة بين روادها

وبين الحياة الراهنة في العالم العربي وان زعامـة الحركة الأدبية عنده قد عادت الى مصر .

وقد صور (نعيمة) مقومات التيار المهجري في الشعر في كتابه (الغربال) على انه :

● ينبغي ألا يكون الشاعر عبد زمانه ورهين ارادة قومه وعليه ألا يطبق عينيه ويصم اذنيه عن حاجات الحياة .

● الوزن ضرورة أما القافية فليست من ضروريات الشعر .

● ليست العصرية في الشعر أن ينظم شعراؤنا في بعض مظاهر حياتنـا الحديثة وانما العصرية ان تستفيق نفوسهم على رعشة الحياة في داخلها .

● ان تكون القصيدة وحدة .

● لا بد من العاطفة والخيال والرنة الشعرية التي تجعل من الشعر والموسيقى توأمين .

وقد حمل (نعيمة) على العروض فقال « لا الاوزان ولا القوافي من ضرورة الشعر فرب عبارة منثورة جميلة التنسيق موسيقية الرنة كان فيها من الشعر اكثر مما في قصيدة من مائة بيت بمائة قافية .

ويصور ايليـــا أبو ماضي بوصفه أبرز شعراء المهجر الشمالي مذهبه الشعري في قوله :

لست مـني أن حسبت الشعر الفـــاظاً ووزنـــا
خـالفت دربــك دربي وانقضى مـــا كان منا

والشعر عنده هو الذي يستمد غذائه من تربة الحياة ونورها وهوائها .

ومن المحقق بعد أن نشر ميخائيل نعيمة مذكراته (سبعون في ثلاثة اجزاء) ان تيار « الديوان » وكتابه أسبق من (الغربـــال) الذي يعد قوام مذهب

المهجرين .

فقد أشار في ص ١٩٨ من الجزء الثاني أنه تلقى نسخة من الديوان قبل أن يصدر الغربال . قال : ولكني ما اطلعت على الكتاب (الديوان) حتى صفق قلبي ابتهاجاً بهذين الرفيقين (المازني والعقاد) التقى واياهما بغتة على طريق واحد . وهدف واحد ، أنهما يريدان تحطيم الاصنام وتقويم المقاييس الادبية) .

يبقى بعد ذلك الفارق بين اتجاه مدرسة « الديوان » في الشعر والنقد وبين « الغربال » وانصاره .

وقد صور نعيمة في مذكراته (سبعون) مذهبه الشعري فقال : أن أول ما أبحث عنه في كل ما يقع تحت نظري باسم الشعر هو نسمة الحياة ، والذي أعنيه بنسمة الحياة ليس الانعكاس بعض ما في داخلي من عوامل الوجود في الكلام المنظوم الذي أطالعه فان (عثرت) فيه على مثل تلك النسمة ايقنت أنه شعر والا عرفته جماداً . ومتى ايقنت ان ما اطالعه شعراً ميزته عن سواه . أولاً باتساع مداه بعمقه وعلوه وانفراج ارجائه وبعد ذلك فحصت عن سرواله الخارجي عن دقة تركيبه وحلاوة رنته وطلاوة ألوانه وآخر ما أعيره انتباهاً هو الاوزان والقوافي العروضية والقواعد اللغوية » .

وقد عرفت المدرسة الشمالية بالمنهج الفلسفي الانساني ومشاكل النفس الانسانية والطبيعية والوجدان ممثلة في انتاج جبران وأبو ماضي ونعيمة أولاً . اما المهجر الجنوبي فقد اقتصر على الشعر القومي والوجداني . عرف بالشعر القومي الشاعر القروي – وفرحات ، وبالشعر الوجداني : فوزي المعلوف والياس فرحات والقروي . ويمكن القول بان شعراء الجنوب قد عالجوا منالفنون الشعرية : القومي والوجداني والاسطوري والاجتماعي والروحي والخيال التأملي .

وقد اجمع النقاد على اختلاف الجنوبيين عن الشماليين . وامتياز الجنوبيين بالحماسة والقومية والنزعة العربية فحين عرف الشماليون بالجرأة والحرية المطلقة

والنزعة الانسانية والاقليمية احياناً . عرف الجنوبيون بالمحافظة ويعد الشاعر القروي رأس هذه المدرسة وقد اتسم شعره بالبلاغة والجزالة مع ايمان واضح بالفصحى والقومية العربية . وله دعوة الى العرب « علموا القرآن والحديث ونهج البلاغة في كل مدارسكم وجامعاتكم لتقوم بالفصحى السنتكم » ولا شك كان جبران – وهو شاعر مقل – رأس المدرسة الشمالية وأبعد المهجرين اثراً في الشعر العربي المعاصر فهو الذي ابتدع الكلمات ذات الظلال والاضواء . مثل « الذات المجنحة وخمرة السنين دموع الشفق . مراشف الارواح . ابتسمت شفاة الازهار . مرور أنامل النسيم . على ثغر الورد . تبدد الرياح بقايا الغيوم فوق خط الشفق » .

وقد تأثر به شعراء لبنان وعديد من شعراء مصر (محمود حسن اسماعيل) وغيره والشابي شاعر تونس والتيجاني من السودان ونازك الملائكة من العراق .
وجملة القول ان العناصر البارزة في الشعر المهجري هي :

التحرر من قيود القديم – الاسلوب الفني والطابع الشخصي . الحنين الى الوطن ، التأمل – النزعة الانسانية عمق الشعور بالطبيعة الغنائية والموسيقية . الحرية الدينية .

ويمكن القول بأن جناح الشمال يتسم بالتحرر من القديم والتمرد وغلبة المعنى الانساني على المعنى القومي . امـا في الجنوب فالمحافظة والايمان باللغة العربية وقواعد الشعر والقومية العربية والايمان بالشرق : هي ابرز معالمه .

وقد كانت فئة المهجر الشمالي جريئة وأكثر اتصالاً بالغرب وأدبه مع تغليب المعنى الانساني المبهم على المعنى القومي الواضح . أما الجنوب فغلبت المحافظة على الجزالة اللفظية وقواعد اللغة . مع الهدف العربي الواضح حول معاني الحرية والوحدة ويمكن القول أن مدرسة الشمال تمثل مرحلة الاندفاعة الاولى وأن المدرسة الجنوبية تمثل مرحلة الاعتدال والتركيز .

تطور المدرسة التقليدية :

امتدت المدرسة التقليدية في هذه المرحلة(١٩٠٠ – ١٩٣٢) وعمقت مجراها

وتألق فيها شوقي وحافظ في مصر والزهاوي والرصافي في العراق وشعراء سوريا القوميون (خليل مردم والزركلي وشفيق جبري) وغيرهم في السودان والجزيرة العربية وكانت أخصب مرحلة بالنسبة لهذه المدرسة ، بالرغم ، من ظهور التيار الجديد الذي حمل لوائه مطران ومدرسة الديوان ومدرسة المهجر وقطعاً كان لظهور هذا الطيار الجديد اثر واضح في الشعر التقليدي .

فقد كان للمعارك التي حمل لواءها العقاد والمازني ونعيمة أثرها في ظهور الشعر التمثيلي الذي حمل لوائه شوقي وسار به عزيز أباظه في المرحلة التالية شوطاً .

كما حمل الزهاوي على الشعر القديم ودعا الى وحدة القصيدة فقد دخل مساجلة بين طه حسين وهيكل عن تطور الشعر (السياسة الاسبوعية ٣ سبتمبر ١٩٢٧) وقال : هناك شيء يستحبه الذين تشبعت أدمغتهم بالادب الغربي هو وجوب ان تكون القصيدة الواحدة خاصة بفكرة واحدة او وصفاً لشيء واحد من غير خروج الى غير الموضوع ولو كان في فصل منعزل عن الأول .

وهذا ليس من الشعر في أصله بل هو تابع للاذواق وطريقة الشاعر في شعره ولا ينوع الشاعر المبرز في العربية الموضوع في كل قصيدة فكثيراً ما يحصر شعره في القصيدة الواحدة في موضوع واحد » .

قال الزهاوي : ان القافية ليست من الشعر لان الشعر بالوزن وحده ، فهو الموسيقى التي تميزه عن النثر . وما الحرص على بقاء القافية المشتركة في القصيدة الا نتيجة الإلفة والعادة .

وليس في الأوزان القديمة كبير ضرر وهي في الأغلب ارقى من الأوزان الغربية والأوزان العربية ليست ستة عشر وزناً كما هو الشائع . بل هي نزعاتها قد تزيد على الخمسين ومن اليسير اكثار هذا العدد » .

كما دعا الزهاوي الى الشعر المرسل فقد اشار في الهلال (يونيه ١٩٢٧) الى أنه منذ عشرين عاماً (١٩٠٧) نشر في المؤيد قصيدة بعنوان (الشعر المرسل) قال أنه استحدث هذا النوع من الشعر العربي الذي أطلق ايـاه من القوافي

« ذلك القيد الثقيل الذي تبرم به الشاعر وحببته الالفة الى السمع « وقـال أنه لا يرى لالتزامه من مبرر » .

وبالرغم من الحملة على الشعر التقليدي فقد ظل سلطانه قويـاً وبقيت مكانته ونفوذه الشعبي خاصة وأن زعماء التحديد اضطروا ان يجرو في مجراه . وعندي أن حملات العقاد والمازني وطه حسين لم تهز المدرسة القديمة ولم تحطمها أو تضعفها فانها استمرت من بعد وازدادت قوة .

كما حققت المدرسة التقليدية تقدمـــاً في التعبير عن النفس ووحدة القصيدة ووصف الآلات والمستحدثات في نفس الوقت الذي أبـــدع فيه شوقي في الشعر المسرحي ونظم الزهاوي الشعر المرسل .

تطور تياري الشعر الوجداني والقومي

لهذه المرحلة ملامح واضحة ، قوامها (١) تشكيل جماعـة أبولو وصدور مجلتهـا في مصر سنة ١٩٣٢ (٢) ظهور جماعـــة العصبة الاندلسية في المهجر الجنوبي ١٩٣٣ .

(١) كانت جماعة ابولو في مصر ، عملاً جماعياً له صورته العربية — فقـــد ضمت شعراء من التقليديين والجددين وشعراء من مصر وتونس والعراق والسودان والمهجر . امثال عبد الرحمن عبد الرحمن ومحمد احمد المحجوب وتوفيق البكري من السودان وابو القاسم الشابي ومحمـــد الحليوى من تونس والجواهري وحسن الطريقي من العراق وايليا ابو ماضي وشفيق المعلوف ورياض المعلوف من المهجر.

وقد يكون صحيحاً الى حد كبير أن هـذه الجماعـــة لم يلتق افرادها على مذهب شعري واضح له خصائص مميزة ولكنها تتفق في الشعر الوجداني الذاتي. وقد حدد ابو شادي اغراض جماعة ابولو في : السمو بالشعر العربي وتوجيه جهود الشعراء توجيهاً شريفاً . ومناصرة النهضات الفنية في عالم الشعر وترقية مستوى الشعراء ادبياً واجتماعياً .

وقد كانت مجلة ابولو اول مجلة شعرية عربية تخصصت في الشعر ونقده وقد

صدر العــدد الاول منهــا في سبتمبر ١٩٢٢ ، واستمرت في الصدور الى سنة ١٩٣٥ .

وجمعت القدماء والمجددين ورأسها شوقي ومطران وضمت من القدماء : احمد محرم ومصطفى صادق الرافعي واحمد نسيم ومحمد الاسمر وتوفيق البكري واحمد الزين ورمزي نظيم وضمت زكي مبارك وخليل شيبوب .

وتعتبر جماعة ابولو عصارة التطور الشعري كله . في حلقاتها ومراحلهـا من الشعر التقليدي الى دعوة مطران الى جماعة الديوان الى جماعــة المهجر وكانت خلاصة هذا التطور كله وثمرته .

وعند بعض الباحثين ان جماعة ابولو لم تكن مدرسة قائمة بنفسها وانما كانت رابطة تنتظم عدة مدارس . وعلى كل فقد غلب عليها الطابع الرومانسي .

وقد ارتبطت « مــدرسة ابولو » في محيطها المصري بعهد اسماعيل صدقي حيث كان جو الدكتاتورية السياسية والحد من سلطة الفكر والرأي والقــلم . ولذلك ارتد الشعر الى الشكوى والانين الذاتي والتحدث عن الاحلام والاشواق والهرب من واقع الحياة كما ارتبطت في محيطها الخارجي بحركة المقاومة الشاملة للاستعمار في العــالم العربي وبروز مسألة فلسطين كمشكلة اثارت الرأي العــام العربي . ودفعته الى التجمع والدعوة للقومية العربية . وهذا هــو الجانب الذي تأثره شعراء المهجر الذين كان شعرهم في مــدرسة العصبة الاندلسية قائمــاً على الرصانة في الاداء والدعوة الى الحرية والقومية العربية وابتعاث امجــاد الامــة العربية وتراثها وقد قامت العصبة عام ١٩٣٢ في المهجر الجنوبي بعد ان انطوت مدرسة الشمال المهجري بطابعها التحرري الجريء ونزعتها الانسانية غير أن نهاية مدرسة المهجر كجماعــة بعد موت جبران وعودة نعيمة وأمين الريحاني. عاشت كتيار واضح المعالم في الادب العربي المعاصر نــثره وشعره . فعبارات جبران وكلماته ذات الظلال والاضواء قد دخلت الى الشعر العربي وتأثر بهــا شعراء لبنان في الاغلب كما تأثر بــه الشعراء الرومانسيون في مصر والسودان وتونس ومحمود حسن اسماعيل ونازك الملائكة والشابي والتيجاني وغيرهم .

ثم كان تجمع ابولو تجمعاً له صورتـــه العربية الواضحة التي تمثل تطور الشعر العربي كله في هذه المرحلة .

فزكي ابو شادي مكون الجماعة وقطبها ومحرر المجلة قد نظم في كل فنون الشعر وهو تلميذ رائد التجديد في الشعر العربي الاول وقد عاصر مدرستي المهجر وقد دخل باكراً في معركة المازني وشكري كطرف .

وقال الشعر منذ عام ١٩١٢ تقريباً وبذلك استطاع ان يرث التيارين جميعاً وأن يخلق من هذه الحركة كلها تجمعاً فكرياً في ابولو ونجح فيما فشل فيه دعـــاة الديوان وهو خلق جبهة من الانصار .

ويمكن القول بأن مطران كان داعياً الى الشعر العربي الجديد . وأن الشعراء الثلاثة (تيار الديوان) قد حملوا لواء معارك هدم المدرسة التقليديـــة وافساح الطريق فقد ساروا على طريق مطران وزادوا فيه ان حملوا لواء الدعوة ودخلوا المعارك وهو ما عجز عنه مطران . ثم جاءت ابولو فحققت ما عجز عنه الديوان وهو تكوين جماعة متناسقة بالرغم من اختلاف مفاهيمها الشعرية .

وليس شك ان دعوة مطران وحركة الديوان لم تكن مصرية خالصة وانما كانت حركة للشعر العربي كله تأثر بها شوقي فجدد واندفع الى انشاء المسرحية الشعرية كما تأثر بها الزهاوي في دعوته الى وحدة القصيدة والدعـــوة الى الشعر المرسل .

وكذلك كانت حركة المهجر في دوريها الاول (١٩٢٠) والثاني (١٩٣٢) ذات أثر واضح في شعر العالم العربي كله. تأثرت بها مصر ولبنان وشعراء العراق والحجاز وسوريا .

وما من شاعر ظهر في هذه المرحلة الا وقد تأثر بالديوان والمهجرين .

ومن العوامل التي ساعدت على تحقيق قيام ابولو هي ايمان الدكتور ابو شادي بدعوة (الاخاء الأدبي) فقد صور هذا المعنى منذ أوائل حياته الأدبية فقال : « ان الاخاء الأدبي مظهر عملي وجوهر من جواهر الروح العاليـــة التي تتسع نظراتها فنذهب الى مدى بعيد ثم تكون عالية الاحساس تسخر بالقيود وأوهام

التعصب والتحزب والتحاسد والانانية . وكلما تجلى الاخاء الأدبي نشأ عنه تبادل الفوائد الادبية وخدمة الادب ذاته . بتصحيح مقاييسة وتهذيب مراميـــه الى الغايات الفنية بدل المنازع المادية والشخصية .

وقال ابو شادي في مذكرة تشكيل جماعة ابولو : محاربة الزعامات الأدبية والالقاب الجوفاء المصطنعة حتى ولو جرى العرف على التسامح بها .

وقـــد اشار الدكتور ابراهيم ناجي الى ان مدرسة ابولو في اتصالها بالأدب العالمي ومتابعتها للتيارات الفكرية الجديدة وفي ايمانها برسالاتها كمجددة للشعر العربي موسعة لأغراضه محددة لوظيفته كعمل انساني شامل وكجامعـــة تضم شباب ادباء الشرق في ندوة واحدة. وأن مدرسة ابولو قـــد استرعت الانظار فهي تمثل طلاقة الفن كما تمثل التجاوب الفني بين اعضائها .

وقد احصى عبد العزيز الدسوقي في كتابه جماعة ابولو نزعات شعراء الديوان النزعة العاطفية والوجدان الفردي والنزعة التأمليـــة والنزعة الوصفية والنزعة الاجتماعية والنزعة الانسانية .

وبعد : فـان زكي ابوشادي وعلي محمد طه وابراهيم ناجي هم من ابرز شعراء ابولو وبالرغم من تأثر ابولو بمطران ومدرسة الديوان ومدرسة المهجر جميعاً فإن زعماء ابولو اعترفوا بفضل مطران وزعامته . فقال ابو شادي : ان اثر مطران في شعري هو أثر عميق لأنه يرجع الى طفولتي الأدبية ويصاحبني في جميع ادوار حياتي وإن كان استقلالي الادبي متجلياً الآن في اعمالي . فهو في الوقت ذاته يمثل الاطراد الطبيعي للتعاليم الفنية التي تشربتها نفسي الصبية من ذلك الاستاذ العظيم وما زالت تحرص عليها نفس الكهلة الوفيـــة ناظرة الى أثار الصبا . والى معلمي الاول بحنان عميق فهو اشبه الشعور بالتقديس والعبادة . »

وقال ناجي : إننـــا مدينون لخليل مطران بكثير من التوجيهات في شعرنا العصري هو وضع البذور وفتح أعيننا للنور .

ولعل هذا التركيز على مطران بالذات مع تجاهل شعراء الديوان ، مما اقتضته الظروف السياسية التي فرضت قيام معارضة من جانب العقـاد وطه حسين ضد

هذه المدرسة إبان نشأتها . فقد ظهرت في إبان حكم اسماعيل صدقي ، فخيل للزعماء القدامى للأدب أن أبو شادي سينازعهم هذه الزعامة ، خاصة وأن المجلة قد ركزت على شكري وكتبت عنه بعض الدراسات وأشادت بفضله .

والمعروف ان دعوة ابولو بدأت على أساس تجميع كل التيارات في نطاقها .

ولم يكن ذلك طبيعياً ، ولا ممكناً . ذلك أن السياسة كان لها دخلها في مواجهة تيار ابولو . فقد هاجم العقاد وطه حسين دواوين علي محمود طه وناجي هجوماً عنيفاً . كان له أثاره البعيدة المدى بالنسبة لناجي . وكان لا بد لجماعة ابولو أن تدافع عن نفسها . وقد قيل في هذا الاتجاه ان القصر كان يحاول أن يجعل من ابولو وأبو شادي قوة جديدة للقضاء على العقاد .

والواقع ان ابولو وقد كانت دعوة الى التجديد لم تحارب دعاة التقليد ، وإنما حاربت مدرسة التجديد ممثلة في الديوان ، وغلبت شكري على العقاد . وأخذت تثير من جديد الخصومة القديمة وتنفخ في نارها . فصدر كتابي رمزي مفتاح ومختار الوكيل ، وفيهما التعريف بفضل شكري . ومن هنا جاء التركيز على الربط بين جماعة ابولو ومطران رأساً ، دون ذكر أي تقدير للدور الذي قامت به مدرسة الديوان وتجاهلها . فاذا ما ذكرت ، ذكر شكري وحده دون العقاد والمازني ، على أنه هو صاحب الاتجاه التجديدي ، وأنه المظلوم الذي حطمه صديقيه .

وكان هذا كله هو مثار الخصومة التي حمل لواءها العقاد وطه حسين وكانا إذ ذاك في صف الوفد — على جماعة أبولو .

ويمكن القول بأن شعراء جماعة أبولو ثمرة المدرسة الشعرية الحديثة التي بدأها مطران، وامتدت بالديوان في شكري والمازني والعقاد ، والمهجر في نعيمه وجبران وايليا ابو ماضي .

وقد أخذت مبدأ وحدة القصيدة والتعبير عن التجربة الذاتية وارتباط النفس بالطبيعة ، وكان أبرزها فنونها شعر الوجدان (الروماني) الذاتي .

وكان جيل أبولو أقل تأثراً بالمناسبات وشعر المدح والرثاء من جيل الديوان .

وفي هذه المرحلة ظهر شعر المرأة على نحو أوضح من الفترة السابقة فبرزت جميلة العلايلي في مصر وفي أواخر الفترة ظهرت فدوى طوقان في فلسطين ونازك الملائكة في العراق وإن لم تتضح شاعرتها إلا بعد هذه الفترة .

وقد تعددت الأقوال في منهج « مدرسة أبولو » فقال أبو شادي : إن هدفها محاربة الزعامات الأدبية والألقاب الجوفاء المصطنعة حتى ولو جرى العرف على التسامح بها . وقال صالح جودت أن جماعة أبولو لم تكن مدرسة بالذات وإنما كانت رابطة تنتظم عدة مدارس . وقال النقاد إنها كانت تهدف الى ممارسة الذاتية مفصلة عن المجتمع . وانها قد انعزلت عن الحركة الفكرية والسياسية وانفصل شعرائها عن المجتمع لا عن الحياة . وأنه لم يكن شعرائها جميعاً ممن ظهروا على صفحاتها بل كان هناك من لهم تاريخ قبل اتصالهم بأبولو أمثال ناجي وعلي محمود طه والصيرفي وربما كان ناجي أكثر تأثيراً في جماعة أبولو من أبو شادي .

(٢) مدرسة العصبة الاندلسية

وقد اتخذ الشعر المهجري مدرسة أخرى في الجنوب لها طابعها الذي تختلف عن مدرسة الشمال . كان أوائل الوافدين على البرازيل المعلم نعمه يافت وميشال معلوف في عام ١٨٩٣ حيث تأسست أول ندوة باسم (رواق المعري) دام نشاطها الى أوائل الحرب العالمية الأولى .

ثم تأسست (العصبة الأندلسية) عام ١٩٣٢ تيمناً « بالتراث الغالي الذي تركه العرب في الأندلس وإشارة الى الابتعاد عن التطرف الذي اتسمت به الرابطة القلمية في الشمال .

وقد ضمت العصبة طائفة من الكتاب والشعراء في مقدمتهم ميشال معلوف والشاعر القروي (رشيد سليم خوري) والياس فرحات ونظير زيتون وسلمى صائغ وعديد من أعلام الشعر العربي في المهجر .

وقد اتسمت هذه المدرسة باحترام اللغة العربية والعروض والمحافظة على

الديباجة القديمة . والاتجاه نحو الطابع العربي والقومية العربيـة وتنمية الروابط الروحية بين المهجر والمشرق .

وقد أجملت العصبة مبادئهـــا في تعزيز الأدب العربي ورفع مستوى العقلية الأدبية ونفض التقاليد التي تتنافى وروح العصر .

وقد استمرت العصبة نامية قوية أكثر من عشرين عامـــاً أصدرت خلالها مجلتها المرموقة وذلك قبل أن يرحل بعض أعلامها، وأهم دراسات العصبة ديوان القروي ودواوين فرحات وملحمة بساط الريح وملحمة عبقر لفوزي المعلوف .

وعرف أدباء المهجر الجنوبي بالنظم ولم يبرز فيهم من يكتبون النثر كما حدث في الشمال .

وقد اتسم أدب المهجر في الجنوب بما اتسم بـــه أدب المهجر في الشمال من التحرر من القديم . والحنين الى الوطن . والتأمل والنزعة الإنسانية وبراعـــة الوصف والتحليل .

وزاد عليه عمق الاتجـاه القومي . اصالة الأداء . التقدير والاحتفاء الضخم بالتراث العربي وأمجاد العروبة .

كما تخلص الجنوبيون من طابع التحرر والعنف والانحراف الذي اتسم بـــه الأدب في المهجر الشمالي وان يحقق لهم معالجة جميع الفنون الشعرية والاجـادة فيها ويمكن القول بأن مدرسة العصبة الأندلسية هي امتداد لمدرسة الرابطـــة القليمية مع تحول كثير في اتجاههـــا ومفاهيمها . فقد انتهت الرابطـة تقريباً حوالي عام ١٩٣١ بعد أن تكونت سنة ١٩٢٠ بعد وفـــاه وهجرة العديد من أعلامها . فكان قيام العصبة في الجنوب يعني أن مرحلة جديدة للأدب المهجري قد بدأت متسمة بالعمق مبرأة مما انتهت به الرابطة متصلة بالمشرق العربي وبقيمه ومفاهيمه أكثر من ذي قبل .

تطور القصة العربية المعاصرة

« القصة العربية المعاصرة » فن جديد في الأدب العربي المعاصر ، لم يتجاوز ميلاده منتصف القرن التاسع عشر ، حينما بـدأ في صورة « المقامات » ولم يلبث أن دخل مرحلة التعريب والتمصير والترجمة .

ثم ظهرت القصة الطويلة (الرواية) بنوعيها التاريخية والاجتماعية والاقصوصية والمسرحية الشعرية والنثرية ، ويمكن أن تسمى فترة ما قبل الحرب العالمية الاولى بمرحلة التمهيد لظهور القصة ذات الطابع الفني . وفي هذه المرحلة (١٨٥٠ – ١٩١٤) كانت مصر والشام تحملان لواء هذا الفن ، فقد امتزج كتاب مصر والاقطار الشامية في عملية بناء وتركيب القصة ، ويغلب أن اكثر كتاب القصة والاقصوصة والمسرحية من أبناء الشام كانوا قد أقاموا في القاهرة واخرجوا فيها انتاجهم ، ومن رواد القصة في هذه المرحلة: سليم البستاني ، وجميل نخلة المدور ، وفرح انطون ، ونقولا الحداد ، ويعقوب صروف ، وامين الريحاني ، وجبران خليل جبران ، وجرجي زيدان ، وفرنسيس مراش ، ولطفي جمعة ، وحسين هيكل .

وقد كانت أعمال هؤلاء الكتاب مطبوعة بطابع التقليد ، ويغلب عليها السرد التاريخي او الاجتماعي دون ارتباط بمذهب فني واضح . ولم يكن احد هؤلاء قصاصاً متخصصاً ، بل كانت القصة فناً استكمالياً بالنسبة لهم ، او بالنسبة

للصحف التي كانوا يصدرونها . فسليم البستاني وفرح انطون ونقولا حداد ويعقوب صروف وجرجي زيدان كانوا يصدرون مجلات شهرية ، وكانت القصة المسلسلة تمثل جزءاً من هذه المجلات .

ولذلك فان العمل القصصي الذي قدم قبل الحرب العالمية الأولى كله ينقصه التخصص وفنية العمل ، وهو عند هؤلاء الكتاب تقليد للاتجاهات الغربية ، وليس منبعثاً انبعاثاً حقيقياً من البيئة العربية .

كان اول مراحل الاتجاه نحو القصة العربية الحديثة ، هو ظهور فن المقامات في الادب العربي المعاصر ، تحمل طابع التقليد في الصياغة لمقامات الهمذاني والحريري ، وقد ظهرت المقامات في وقت مبكر .

واشهرها (الساق على الساق) ١٨٥٥ لفارس الشدياق ، ومجمع البحرين (١٨٥٦) لناصيف اليازجي . وعلم الدين (١٨٩٣) لعلي مبارك ، وعيسى بن هشام (١٨٩٨) لمحمد المويلحي ، وليالي سطح (١٩٠٦) لحافظ ابراهيم . ثم ورقة الآس لشوقي ، والوجديات لفريد وجدي ، وليالي الروح الحائر للطفي جمعة .

وتتخذ هذه المقامات اسلوب الصياغة القديم المسجوع على نحو يبلغ فيه التقليد مداه ، او يضعف قليلاً ، مع مضمون عصري يتصل بحياة كتّاب هذه القصص واجوائهم وعصورهم .

وتتجه القصة في مرحلة المقامة الى النقد الاجتماعي متأثرة بالقصة الاوربية .

ثم لا تلبث القصة العربية ان تنتقل الى مرحلة أخرى ، حيث بدأت مرحلة التعريب والتمصير والتوليد .

وقوامها الربط بين القصص الشعبي التقليدي ، والقصص الغربي ، ومن أبرز اعلام هذه المرحلة : محمد عثمان جلال ، وانطون يزبك ، ومارون نقاش ، واديب اسحق ، ونجيب الحداد .

وتعد قصة « مغامرات تليماك » التي مصرها رفاعه الطهطاوي تحت اسم

وقائع الافلاك « في حوادث تلياك » علامة على هذا الاتجاه الذي سار فيه من بعد محمد عثمان جلال .

وقد تحررت الكتابة في هذه المرحلة من السجع والزخرف ، واتصلت من الناحية الفنية بالقصة الغربية ، وان لم تستمر المرحلة طويلا ، فقد دخلت في مرحلة الترجمة على اثر ظهور عدد كبير من كتاب لبنان ومصر ، الذين عكفوا على ترجمة القصة الغربية (والفرنسية بوجه خاص) على نحو لم تكمل فيه عناصر الترجمة الفنية .

ويمكن القول ان أغلب المصريين او المصريين كانوا يعملون في ميدان المسرحية ، ويقدمون مسرحيات معربة أو ممصرة ، بتحويل شخصيات وبيئات المسرحية الغربية الى شخصيات وبيئات مصرية أو عربية .

فقد ترجم مارون نقاش قصص موليير ، ودرس المسرح الايطالي ، وكتب ثلاث مسرحيات هزلية . كما عرب خليل اليازجي (المروءة والوفاء) أغلبها منقول بتصرف عن كورني وهيجو وديماس وشكسبير .

أما مرحلة الترجمة فقد اتسع نطاقها ، وبرز فيها عدد كبير من الكتاب ، وكان أبرزهم طانيوس عبده ، ومارون النقاش ، ويعقوب صنوع ، وهي مدرسة مصرية — سورية .

وقد عرف المنفلوطي بالترجمة مع التصرف في العبارة عن الأصل وجو القصة. وأغلب هذه القصص التي ترجمت سواء للقراءة أو للمسرح ، غلبت عليها الترجمة السقيمة والعبارة الضعيفة ، ولم يراع في اختيارها على حد تعبير مستر جيب « حالة مصر الاجتماعية ، ولا حالة الثقافة العامة ، ولا الذوق الأدبي للبلاد » .

وكانت هذه الخطوات مقدمة لتأليف القصة العربية المعاصرة ، وباجماع المؤرخين والباحثين أن سليم البستاني هو أول من كتب القصة عام ١٨٧١ ، وهي قصة زنوبيا . وقد دارت حول الصراع الذي قام بين ملكة تدمر والرومان في القرن الثالث ونشرها مسلسلة في مجلة الجنان .

وقد كتب القصة سليم البستاني ، وفرنسيس مراش ، وفرح انطون ،

ونقولا حداد ، وصروف ، وامين الريحاني ، وجرجي زيدان ، نعيمه ، وخليل بيدس .

وقد ظهرت في فترة ما قبل الحرب العالمية الأولى : الرواية (القصة الطويلة) بنوعيها الاجتماعي والتاريخي ، والقصة القصيرة (الأقصوصة) .

تطور القصة بين الحربين :

وإذا كانت القصة العربية قد ظهرت منذ منتصف القرن التاسع عشر تقريباً ، فان القصة الفنية لم تظهر على نحو واضح ، إلا بعد الحرب العالمية الأولى ، عندما ظهرت في مصر المدرسة الحديثة التي نظرت أمامها الى قصة (زينب) لهيكل ، وأخذت تكون لنفسها كياناً .

وقد ظهرت القصة العربية بعد الحرب يغلب عليها طابَع المحلية ، وتصوير قطاعات المجتمع ، في لبنان وسوريا والعراق ومصر ، وذلك تحت تأثير ارتفاع مد الدعوة القومية والإقليمية معاً . وقد ظهر اللون المحلي واضحاً في قصص هيكل ومحمد تيمور في مصر ، وتوفيق عواد وكرم ملحم كرم في لبنان ، ومحمود السيد وذو النون في العراق . وغلب لون القرية على القصة العربية في هذه الفترة .

صور هيكل الريف المصري بطيوره ومجرى مياهه وقراه وحركات الفلاحين ، وصور كرم ملحم كرم القرية اللبنانية .

أما توفيق الحكيم فقد ظهر في الثلاثينات ، وعالج قضايا اجتماعية وانسانية على أساس رمزي ، وربط فنه بالمجتمع ، وعرف بمهارته في رسم الشخصيات وقوة الحوار .

وكانت اللغة العربية هي لغة أغلب القصص العربية ، غير ان الحوار كان موضوع الخلاف ، فقد رأى هيكل في قصة زينب (١٩١٤) أن يجري الحوار بين الفلاحين بالعامية ، وبين المثقفين بالفصحى ، وأجرى ميخائيل نعيمه حوار قصته (الآباء والبنون) ١٩١٧ على نفس الطريقة .

ويمكن القول أن القصة العربية المعاصرة قد تأثرت بالقصة الفرنسية في الأغلب الأعم ، فقد أخذ المسرح العربي المسرحيات الفرنسية ، فعربها وحور أسماء شخصياتها بما يناسب الجو العربي . وكان ذلك مقدمة لكتابة القصة العربية الخالصة .

أما محمود تيمور فقد كتب القصة بالعامية أول الأمر ، حيث كتب (الشيخ جمعه) ثم عاد فتحرر من هذا الاتجاه ، وكتب باللغة العربية الفصحى .

أما المازني ، فقد استعمل الفصحى في قصصه : ابراهيم الكاتب وابراهيم الثاني .. وعنده أنها أشد مرونة من العامية أو البسيطة، وإن كانت قصة ابراهيم الكاتب قد وصفت بأنها غربية باخلاقها ، كما اتهم بنقل صفحات كاملة من قصة (ابن الطبيعة) .

واتصلت القصة العربية في هذه الفترة بالحركات الوطنية ، فصورت (عودة الروح) لتوفيق الحكيم حوادث ثورة ١٩١٩ ، كما صورت (الرغيف) لتوفيق يوسف عواد قصة مجاعة لبنان ، وموقف الشام بعد الحرب العالمية الأولى .

وتأثر كثير من كتابنا بالقصة الفرنسية المكشوفة كمحمود كامل ، وقد استغرقه موضوع الحب العنيف والتحليل العاطفي للخيانة الزوجية .

ويمثل (طاهر لاشين) اتجاه المدرسة الحديثة في مصر التي ظهرت بعد الحرب العالمية الاولى ، حيث يمتاز بالحبكة القصصية الواضحة الاطراف .

ويبرز في القصة المهجرية التي تعد قاعدة انطلاق القصة اللبنانية (ميخائيل نعيمه) الذي كتب القصة عام ١٩١٦ ، واستمر يكتبها حتى اليوم ، ويرى نعيمة ان القصة انتقلت الينا بفضل الغرب ، وانه كان من اسبق الناس اليها ، حيث وجد فيها مجالاً واسعاً لوصف الحياة والتأثير في العقول والقلوب .

اما كرم ملحم كرم الذي يعد في لبنان بمثابة محمود تيمور في مصر ، فهو اغزر القاصين اللبنانيين انتاجاً ، وقد عني بالترجمة والاقتباس والتأليف ، وهو مصور القصة اللبنانية مع عناية باثارة عواطف الجماهير .

وفي ميدان استلهام التاريخ والادب القديم ظهر عدد كبير من القصص، منها

على هامش السيرة لطه حسين ، وأهل الكهف لتوفيق الحكيم ، والملك الضليل لفريد ابو حديد ، ومجنون ليلى لشوقي . وقد سار على طريق جرجي زيدان في ميدان القصة التاريخية كثيرون : فريد ابو حديد ، ومعروف الأرناؤط ، وعلي الجارم ، وسعيد العريان ، وإبراهيم رمزي ، وعلي احمد باكثير .

وفي ميدان القصة المستمدة من التاريخ الفرعوني ظهر نجيب محفوظ ، وعادل كامل ومحمد عوض محمد .

أول قصة عربية ليست « زينب »

ولا بد من الاشارة هنا الى قصة (في وادي الهموم) المطبوعه عام ١٩٠٥ — بمطبعة النيل بمصر ، والتي كتبها (محمد لطفي جمعه) فهي في الواقع القصة الاولى على اسس الفن الحديث في كتابة القصة . وليست (زينب) الدكتور هيكل ، والتي جاءت بعدها بحوالي عشر سنوات .

وممن عمل في ميدان القصة وإن لم يحسب منه : زكي مبارك بكتابه (ليلى المريضة) في العراق والرافعي بقصصه الاسلامي الذي نشره في الرسالة وجمعه في وحي القلم وما كتبه الزيات من صور وذكريات تمثل طفولته في مجلة الرواية .

وهناك شخصيات اخرى عملت في ميدان القصة مثل : سعيد عبده ويوسف جوهر وابراهيم المصري . وله دور كبير في القصة بما ترجم والف ، وحواريته (نحو النور) تسبق اهل الكهف لتوفيق الحكيم .

ويمكن القول بالربط بين مدرسة القصة في المهجر وفي لبنان ، ومؤرخو الادب العربي يعدون الأدب المهجري جزءاً من أدب لبنان القومي .

وكان جبران قد كتب القصة منذ أوائل القرن حتى قبيل الحرب العالمية الاولى ، ثم توقف وتحول الى فنون اخرى من الكتابة ، وكتب نعيمه القصة منذ ١٩١٤ ، وهو اول من عالج الاقصوصة المحلية ، وصور حياة المهاجرين الى امريكا . وقد اتسمت القصة اللبنانية بتصوير الجبال والينابيع وتاريخ لبنان ، وعنيت اكثر عناية بموضوعين كبيرين هما الهجرة والارض .

ورسمت صورة المهاجر الذي ترك ارضه بحثاً وراء الرزق في الآفاق البعيدة

بطلا يحمل متاعه فوق كتفه، ويمضي ويجوب البحار السبعة ، كما صورت الصراع بين ماضيه وواقعه وكيف واجه مشاكل العيش والآلة ، وكيف ظل مع ذلك كله مرتبطاً بوطنه الأم ، دون ان يغريه بهج الحضارة .

ثم كيف يعود مرة اخرى مخفقاً او منتصراً الى الارض الحبيبة التي ظل مرتبطاً بها . ولذلك كانت الارض من اقوى ابطال القصة اللبنانية ، وقد صور هذا اللون ميخايل نعيمه وفؤاد البستاني والخوري غصن ، وكرم ملحم كرم ، وعواد وخليل تقي الدين ، ثم مارون عبود وسعيد تقي الدين بعد الحرب الثانية .

وتبدو محلية القصة واضحة في كتابات القصة في انحاء العالم العربي في معالجتها قضايا متصلة بواقع الحياة والناس ، فهي في كل قطر تصور مشاكله الخاصة . ولم تبحث مشاكل عامة ، غير انها بالرغم من المحلية فان القصة العربية حاولت ان ترسم الحياة الاجتماعية كما يحياها الانسان العربي بين قريته ومدينته ، وعالجت الى حد ما المشاكل المحتملة المتشابهة التي يضطرب فيها .

وقد تأثر معظم كتاب القصة العربية بعوامل متشابهة ، منها الأدب الروسي (تولستوي وتورجينف وجوركي ، والادب الفرنسي الرومانتيكي ، ونظرية التحليل النفسي ، للغرائز والعواطف بين الرجل والمرأة .

اللغة العربية في معركة البناء

تمثل اللغة العربية قطاعاً هاماً من حيـاة الفكر العربي المعاصر فهي القاعدة الكبرى التي قامت على هذا التراث العظيم . والاداة الحية للأدب العربي واللسان الذي يربط الأمة وهي أساس ودعامة وقاعدة للوحدة العربيـة . ولا شك كان لهذه اللغة مكانة ضخمة بين اللغات . فقد كانت بطبيعتها مخالفة للقوانين الطبيعية التي عرفتها مختلف اللغات فظهرت شابـة مكتملة دون أن تمر بمرحلة طفولة أو تتعثر في طريق طويل وكان نضوجها من الأعاجيب التي شغلت الباحثين والعلماء.

وقد عاشت قرابة ألف وخمسمائة سنة وهي تؤدي مهمتهـا على نحـــو حي متحرك تجاوبت فيــه مع الزمن والتطور . وتفردت بين اللغات السامية باطراد الأوزان وقواعد التعريب والاعراب واستطاعت أن تجري مع الحضارة وتلبي مطالبهـا .

وقد كان الاسلام عاملاً ضخماً من عوامل انتشارها وبالرغم من أنها خرجت من الجزيرة واتجهت الى فارس والهند والشام ومصر وعبرت البحار الى افريقيـا فالأندلس فإنها استطاعت أن تحتفظ بفصاحتها ووحدتها وكيانها رغم اختلاطها بلغات أخرى . بل انها استطاعت أن تزيح هذه اللغات وأن تملي سيطرتهـا على ثقافات الأمم .

وقد قاومت اللغة العربية في معارك ضخمة محاولة القضاء عليهـا واعتصمت

بالمعاهد الكبرى كالأزهر والقرويين والزيونة ازاء هذه المؤامرات فاحتمت بها .
وفي عهد الأتراك العثمانيين واجهت معركة ضخمة في سبيل البقاء وقاومت محاولة اقصائها واحلال التركية محلها في المدرسة والمسجد والمحكمة .

وفي معركة العثمانيين مع العرب كان الهدف هو القضاء على اللغة العربية كوسيلة لإدماج الأمة العربية في الجامعة الطورانية . وقد استطاعت اللغة العربية أن تحتفظ بقوتها وكيانها دون أن يقضى عليها . وإن بلغت مرحلة من الضعف والعجز ، وفي ظل هذه المعركة انحسرت عن أجزاء كثيرة من العالم الاسلامي كالهند وفارس وتركيا واستقرت في العالم العربي وحده .

ثم واجهت بعد ذلك معركة أشد عمقاً ومؤامرة أعنف أسلوباً هي محاولة الاستعمار الذي أراد القضاء عليها والذي شنّ عليها حرباً أشد قسوة وضراوة .

كانت معركة اللغة العربية مع النفوذ الغربي الذي غزا العالم الإسلامي والعربي منذ عام ١٧٩٨ بالحملة الفرنسية على مصر وعام ١٨٣٠ باحتلال الجزائر وسيطرة النفوذ الغربي على الامبراطورية العثمانية منذ اوائل القرن التاسع عشر .

وقد بدأت هذه المعارك في المشرق والمغرب في وقت واحد وحمل لوائها بعض الاجانب من القضاة والمستشرقين وغيرهم . ففي مصر ظهر ويلكوكس والقاضي وليمور ، وفي المغرب علا صوت ماسينون ثم توالت الدعوات يحمل لواءها مثقفون كانت امانتهم للغرب اكثر منها لاوطانهم .

وفي خلال هذه المعركة التي حاول الاستعمار ان يجعل عنوانها « عجز اللغة العربية عن اداء مهمتها ازاء المخترعات الحديثة » ظهرت قوى عاملة في الميدان لا حد لها . ظهر اصحاب المعجمات في لبنان ومصر . ونشأت مجامع عربية في سوريا ومصر والعراق وظهرت دراسات وكلمات .

وكانت دار العلوم في مصر البؤرة الأولى لهذا العمل . وظهرت معاجم الكرملي والمعلوف وشرف وعيسى والشهابي وكال باشا والبستاني .

وكان للازهر والزيتونة والقرويين وجمعية العلماء ومعاهد النجف ابعد الاثار في حماية اللغة وجرت محاولات لادخال كلمات جديدة الى اللغة العربية بوسائل

متعددة منها النحت والاشتقاق والترجمة والتعريب .

كما جرت محاولات لتيسير الطباعة واختصار حروف المطبعة .

وحمل خصوم اللغة العربية الدعوة الى الكتابة بالعامية والى الكتابة بالحروف اللاتينية وفشلت كلا الدعوتين ولم تجد احداهما استجابة او صدى بالرغم مما احيطا به من عوامل الاغراء والخداع .

وقد هاجمت تركيا اللغة العربية بعد الانقلاب العثماني . وفي ١٩٣٣ بدأت حملة ضخمة عليها في محاولة للتخلص من الكليات العربية بعد ان تخلصت من الحروف العربية واستغل دعاة التعريب هذه الحملة ووسعوا نطاقها .

وكان من رأي الاستعمار أن القضاء على مقومات الشخصية العربية في العالم العربي هي وسيلته للبقاء والاستمرار في السيطرة على مقدرات البلاد ، وكانت اللغة العربية في مقدمة عوامل الوحدة والتجمع والالتقاء بين العرب ولذلك ركز غزوه الثقافي عليها في محاولة للقضاء عليها .

ولقد كان هدف الاستعمار أن تصير اللغة العربية الى ما صارت عليه اللغة اللاتينية ، « لغة متحف » تدرس مع الآثار والتحف ، وأن تصبح اللهجات المحلية في أقطار العالم العربي لغات مستقلة لها أدبها وثقافتها وبذلك تتعدد اللغات ويقضى على اللغة العربية ويقضى بذلك على القرآن الكريم والتراث العربي الإسلامي الضخم الذي اشترك في إبداعه مئات الفلاسفة والكتاب والعلماء منذ بزوغ فجر الاسلام حتى اليوم .

ولقد جند الاستعمار قواه لهذه الغاية وحرص عليها ورسم لها خططاً بعيدة المدى ، وقامت في الأقطار المحتلة منظمات لهذا الغرض ليس لها مهمة غير توجيه الحملات الى اللغة العربية واتهامات بالقصور وعدم الكفاية العلمية ، أو ارتفاع مستواها عن مفاهيم المجموعات ، العامة ، أو اتهام حروفها ونطقها وكتابتها بالصعوبة والتعقيد . وكانت هذه الاتهامات مقدمة للنفاذ الى الدعوة الى اللغة العامية أو استخدام الحروف اللاتينية وتحطيم عمود الشعر .

ولقد واجه الشمال الأفريقي عملاً أشد عنفاً فقد قضى على اللغة العربية نهائياً

في المدارس الرسمية ولم تبق إلا في الكتاتيب وحلقات المساجد والمدارس الأهلية وجامعتي الزيتونة والقرويين .

وكان هذا أعنف إجراء في القضاء على اللغة العربية وإحلال لغة المحتل مكانها .

أما في المشرق العربي فقد توالت الحملة في صورة دعوات متوالية استمرت وتوالت وتعددت واحدة بعد أخرى يحمل لواءها في أول الأمر غربيون مقيمون ثم وطنيون مستغربون .

وكان من هؤلاء وليم ويلكوكس المهندس الذي دعا الى العامية وحاول ترجمة الانجيل إليها ، والقاضي ويلمور الذي دعا الى العامية مع كتابتها بالحروف اللاتينية ثم ظهر على الأثر لطفي السيد يحاول في عبارات ساحرة أن يحمل نفس اللواء على نحو خادع عنوانه تقريب اللغة العامية الى العربية وتحسين عباراتها وتمصير اللغة العربية وجرى ما أطلق عليه اسم « أزمة » اللغة العربية وحمل الدعوة إليها فريق المعتدلين ، غير أن سلامة موسى وأمين الخولي ومحمود تيمور — وقد عاد عن هذه الدعوة بعد — وعبد العزيز فهمي وجورجي صبحي في مصر كل هؤلاء حملوا لواء هذه الدعوة ، كما حملها في لبنان كثيرون في مقدمتهم :

الخوري مارون غصن وآخرون غيرهم من بينهم سعيد عقل في الفترة الاخيرة ، وهكذا عاش العالم العربي في خلال فترة ستين عاماً في صراع بين دعوة تريد ان تحطم اللغة العربية لتقضي عليها وبين مقاومة لها ذات شقين : شق يدافع عن عظمة اللغة العربية ، وشق يصلح هذه اللغة ويبحث في عناصر التعريب والنحت والاشتقاق لتمكين اللغة العربية من استقبال المصطلحات العلمية الجديدة ، حتى الشعر كان له دور في الدفاع عن اللغة فقد انشد حافظ قصيدته المعروفة : أنا البحر في أحشائه الدر كامن ..

وقد أعان انصار اللغة العربية في القضاء على دعوى العامية عوامل كثيرة ، منها ان اللغة العربية واجهت في العصر العباسي مثل ما تواجهه اليوم عندما ترجمت اليها مؤلفات الرومان واليونان ، فقد استطاعت ان تستقبل عشرات

ومئات من المصطلحات دون ان يعجزهـا ذلك ، وان عشرات من اعلام الغرب الذين درسوا اللغة العربية قد اعترفوا بعظمة هذه اللغة وكمالها وقدرتها القـادرة على تقبل كل تطور والاستجابة لكل عصر .

وكان من عوامل ضعف الدعاة الى العـامية انهم لم يستطيعوا ان يكتبوا بها او ان يحققوا نموذجاً صالحا لما يدعون اليه ، وقد حاول لطفي السيد في المـاضي وطـه حسين في القريب الكتابة بالطريقة القديمة جـداً التي تدمج الشكل في الكلمات ، غير ان هذه الدعوة قـد لقيت السخرية والامتهان كما لقيت دعوة الكتابة بالحروف اللاتينية التي دعـا اليها عبد العزيز فهمي وكان قـد سبقه الى الدعوة اليها كثيرون .

وشارك المغرب العربي في هذه المعركة حين دعا المستشرق ماسنيون الى العامية والكتابة بالحروف اللاتينية عام ١٩٢٨ في انديـة الشباب العربي في باريس ولقى معارضة كبيرة ، كما وجد المستشرق كولون رداً عنيفاً على دعوته من الـكاتب العربي المغربي عبدالله كنون .

وقد حملت معركة الهجوم على اللغة العربية روح التعصب والغرض والهوى ، ولم تكن خالصة صادقة ، وقد واجهتها مقاومة علمية صارمة قائمة على أساس من التفكير العلمي الخالص ، ومن أهم اسسها :

ـ ان الفرق بين لغة الكتابة ولغة التكلم عندنا ليس بالشيء الكبير ، وقد لا يكون اكثر من الفرق بين لغة كتاب الانكليز ولغة عامتهم .

ان الناطقين باللغة العربية تختلف لغتهم العـامة باختلاف الاصقاع ، والفرق بين لغة مصر والشام ليس بأقل من الفرق بين الفصحى والعامية ،

فاستبدال العامية بالفصحى يحرم كل قطر الانتفاع بانتاج القطر الآخر .

ذلك أن إغفال الفصحى يستوجب إغفال كل ما كتب عنها من العلوم منـذ ألف وأربعمائة عام ، وهي خسارة لا حد لها .

ـ الوحدة بين أجزاء العالم العربي قائمة بالمحافظة على اللغة الفصحى ، إذ لولا القرآن لتشتت شمل الشعب العربي .

– إن اللغة العامية منحطة لانحطاط عقول الناطقين بهـــا ، ولا تقوم مقام الفصحى في اللغة العربية التي هي بشهادة المنصفين ، أرقى لغات العالم .

وقد كشف المنصفون عن عظمة اللغـــة العربية واتساعها وكثرة الفاظها وتعدد معانيها ، وقد أمكن حصر مائة الف مادة من كلامها مما لا يمكن معــه – وصفها – بالقصور ، كما أشاروا الى اتساع مجالها لأغراض الكتابة وفنون البلاغة من أطناب وإيجاز وتصريح وتلميح واستعارة .

وانها قد خاضت معركة الترجمة من اليونانية والهندية إبان العصر العباسي ، حيث استطاعت ان تستوعب كتب الطب ، والحكمة ، والحيوان ، والنبات ، والكيمياء ، والحيل ، والرياضيات ، والفلك ، ممـــا لا يقـــع تحت حصر ، ولم يستعص عليها أي مصطلح .

وشهد للغة العربية كبار مفكري الغرب – حتى الذين بلغوا غاية التعصب ضد الإسلام والعرب ، مثل « ارنست رينـــان » الذي سجل في كتابــه (تاريخ اللغات السامية) ان اللغة العربية بدأت فجأة على غاية الكمال ، وان هذا عنده من أغرب ما وقع في تاريخ البشر وصعب حله،وقد انتشرت سلسلة ً أي سلاسة، غنية أي غنى ، كاملة لم يدخل عليها منذ ذلك العهد إلى يومنا هــذا أي تعديل مهم ، فليس لها طفولة ولا شيخوخة ، إذ ظهرت لأول أمرها تامة مستحكمة ، ولم يمض على فتح الأندلس أكثر من خمسين سنة حتى اضطر رجـــال الكنيسة أن يترجموا صلواتهم بالعربية ليفهمها النصارى .

وقال شبنجلز في كتابه ، انهيار الغرب : إن اللغـــة العربية لعبت دوراً أساسياً كوسيلة لنشر المعارف ، وآلة للتفكير في خـــلال المرحلة التاريخيــة التي بدأت حين احتكر العرب على حساب الرومان واليونان طريق الهند .

وقال العلامة فريتاغ الالماني : ان اللغة العربية ليست أغنى لغات العـــالم فحسب ، بـــل ان الذين نبغوا في التأليف بهـــا لا يكاد يأتي عليهم العــد ، وان اختلافنا عنهم في الزمان والسجايا والأخلاق ، أقـــام بيننا ونحن الغرباء عن العربية وبين ما ألفوه ، حجاباً لا يتبين ما وراءه الا بصعوبة .

وقال ريتشرد كوبتهيل انه لا يعقل ان تحل اللغـــة الفرنسية أو الانجليزية محل اللغة الفرنسية ، أو الانجليزية محل اللغة العربية ، وأن شعباً له آداب غنية منوعة كالآداب العربية ، ولغة مرنة لينة ذات مادة تكاد لا تفنى ، لا يخون ماضيه ولا ينبذ إرثاً اتصل اليه بعـــد قرون طويلة عن آبائه وأجداده ، وان التباين الجزئي الذي يبدو بين اللهجات العربية لا بد ان يزول ، وعليه فستكون عندنا منطقة عربية تتكلم لغة واحدة شاملة . لقد كان للعربية ماض مجيد ، وفي مذهبي أنه سيكون لها مستقبل باهر .

وقال وليم ورل : إن اللغة العربية لم تتقهقر قط فيما مضى أمام أي لغـة من اللغات التي احتكت بها ، وانهـــا ستحافظ على كيانها في المستقبل كما فعلت في الماضي ، وان لها ليناً ومرونة يمكنانها من التكيف وفقاً لمقتضيات العصر ، وان اللغات الاوروبية في خلال ٢٥٠ سنة لم تستطع السيطرة على العربية أو إضعاف مكانها .

وقال ماجليوث ان اللغة العربية لا تزال حية حياة حقيقية ، وانهـا إحدى ثلاث لغات استولت على سكان المعمورة استيلاء لم يحصل عليه غيرها (الانجليزية والاسبانية) ، وهي تخالف اختيها بأن زمان حدوثهما معروف ، ولا يزيد سنهما على قرون معدودة ، أما اللغة العربية فابتداؤها أقدم من كل تاريخ .

ولعل خير ما نختم به هذا الفصل ما سجله الخليل بن احمد في كتاب (العين) من ان عـــدد أبنيـــة كلام العرب المستعمل والمهمل (١٢٫٣٠٥٫٤١٢) كلمة (اثني عشر مليونـــاً من الأبنية وثلاثمائـــة ألف) ، وان عدد الالفاظ العربيـــة (٦٫٦٩٩٫٤٠٠) لفظاً (ستة ملايين وستمائة وتسعة وتسعين ألفاً) ولا يستعمل منها إلا ٥٦٢٠ لفظاً والباقي مهمل .

تطور الترجمة في الادب العربي المعاصر

« الترجمة » قطاع ضخم في ادبنا المعاصر ، له خطورته وأثره البعيد المدى ، فهو النافذة التي تصل الينا منها صورة آداب الشرق والغرب وثقافاته وآراؤه وهي المرآة التي نشاهد فيها حياة الاخرين وافكارهم ، ولذلك كان لهذا القطاع اهميته الكبرى ، من ناحية مضمون ما ينقل ووسائل نقله وترجمته .

وقد مر الادب العربي قديماً بتجربة الترجمة حين نقل آثار اليونان والرومان والفرس واختار منها الجوانب الايجابية ذات الاثر النافع لشخصيتنا وحياتنا الفكرية . وقد تخير العرب في حركة النقل الأدبي ما هم في حاجة الى نقله من فنون المعرفة وضربوا صفحاً عن الفنون الأخرى التي رأوا انه لا حاجة لهم بها . وكان عملهم خطيراً بعيد المدى في تنمية الثقافة العربية وتطوير الحضارة الانسانية ، فقد استطاع العرب بعد ذلك ان يضيفوا كثيراً الى هذه الثقافات والعلوم .

أما الترجمة في ادبنا العربي المعاصر فقد جاءت في ظل النفوذ الأجنبي الذي سيطر على العالم العربي كله خلال القرن التاسع عشر ، ولذلك فإن جانب الاختيار والتفضيل لفنون الثقافة الغربية لم يكن مكفولاً . وبذلك نقلت الى ادبنا العربي جوانب منوعة ايجابية وسلبية وكانت وسائل الترجمة على درجات متفاوتة فيها القدرة والكفاية وفيها الضعف والاضطراب .

ولذلك فإنه قــد تسرب الى ادبنا العربي لغو كثير وغثاء كثير من ترجمات القصص بالذات .

لقد بدأت النهضة بالترجمة العلمية التي حمل لواءها « رفاعة رافع الطهطاوي » ومدرسة الالسن في الثلاثينات من القرن التاسع عشر، وكانت هذه النهضة ايجابية الهدف ارتبطت الى حد كبير بالمدرسة والعلوم والفنون والثقافة والقانون .

واستطاعت ان تحقق عملاً ضخماً ونتائج بعيدة المدى . وقد حملت القاهرة ولبنان لواء الترجمة في العالم العربي .

غير ان هذا الاتجاه لم يلبث طويــلاً حتى تحول الى ناحية الآداب والقصص تحت تأثير النهضة المسرحية التي بــدأت في الشام وانتقلت الى مصر وتصدر الكتابة لها عدد من الكتاب السوريين في أول الامر .

وقد كانت هذه المرحلة مضطربة اشد الاضطراب فقد اختلط فيها التعريب والتمصير والترجمة .

وبلغت الترجمة فيها حداً بعيداً من الهزالة والنزول فقد كان هدف المترجمين في هذه الفترة ارضاء القارىء وتسليته ، من اجل هــذا عمدوا الى القصص المثير المتصل بالجنس ونقلوه نقلاً مشوهــاً ، ولم يكونوا قادرين على فهم النص ولا على أدائه باللغة الفصحى .

وكان سوء اختيــار القصص والتركيز على الادب الفرنسي وحده في هذه الفترة سبباً في ظهور حصيلة ضخمة من هــذا القصص الذي فتحت له الصحف اليومية طريقاً الى النشر في رفارفهــا ، كما صدرت سلاسل متعددة متخصصة في القصص والروايات ، وكان طــانيوس عبده ونقولا رزق الله واسعد داغر اكثر هؤلاء المترجمين إسرافاً في الترجمة،فقد ترجم طانيوس وحده/٦٠٠/ قصةوكتاب ما بين اقاصيص وقصص وروايات ودواوين شعر ، وعني بنقل القصص التافهة .

وكانت الترجمــة بالنسبة له ـ كما ذكر اكثر من نقده ـ كسب عيش وليس عملاً فنياً ، مع جهله قواعد اللغة العربية وضعفه في اللغة الفرنسية . وقد وصفت ترجماته وترجمات نقولا رزق الله بالركاكة .

وقد ذكر النقاد ان لغة طانيوس عبده لم تكن تنال ما تستحقة من التهذيب والتشذيب . فقد كان لا يأبـه إلا لإداء المعنى كيفما اتفق ولا يتقيد بالأصل ولا يدقق في التعبير . وقد اشار كرم ملحم انه كان حريصاً على مجافـاة التقيد بالاصل مع تشويه القصد . وكان يقرأ الفصل في لغته الاصلية ثم يكتبه منعنده، وكان يعطي لنفسه الحق في إدخال اشياء من عنده الى الأصل .

وقد امتدت هذه المدرسة واتسع نطاقها حتى لفتت نظر الباحثين الأجانب فقال « مرجليوث » :

« ان اكثر ما ترجم الى العربية من تأليف اهل الغرب انمـا هي روايات مقصدها اللهو دون المنفعة ، وقل مـا يوجد في اعمدتها اسمـاء كتب جديدة موضوعها التاريخ او الفلسفة او فن من الفنون ، ولا يخفى ان خلفاء بني العباس لما عقدوا النية على ان يجعلوا لغتهم ادبية كان مبدأ عملهم ان كلفوا تراجمة حذاقاً نقل كتب متقدمي اليونان الذين اشتهروا بسعة معارفهم .

وقال مستر « جيب : » ان القصص التي ترجمت لم تترجم ترجمة سليمة ولم يراع في اختيارها حالة مصر الاجتماعية ولا حالة الثقافة العامة ولا الذوق الأدبي للبلاد » .

كما ندد « جيب » بالترجمـات التي نقلت من اللغة الفرنسية والتي استهدفت الإثارة دون المنفعة . ولعله كان يقصد بذلك في الأهم مترجمات الدكتور طـه حسين التي نشرها في السياسة اليومية (أيام الاثنين) عـام ١٩٢٣ وما بعدها وقد حرص في هذه القصص على الإثارة ونقل الصور المكشوفة .

وقد لقيت هذه القصص نقداً عنيفاً من عدد من النقاد في مقدمتهم المـازني ، والغمراوي ، يقول الاستاذ الغمراوي :

« خذ إليك مثلاً تلك القصص الفرنسية التي لخصها (طه حسين) من آن لآن يلهي بها كثيراً من النشء ويقتل بها كثيراً ، هل ترى بينها وبين روح هذه الأمة صلة أو بينها وبين روح هذه اللغة صلة .

وإذا لم يكن ، فهل فيها شيء يجدد من عناصر الفضيلة والطهارة الروحية في

هذه الأمة ويعينها على سبيل العزة التي تريد ، وما نظن أحداً دخل تلك القصص وخرج منها وهو أقرب الى الفضيلة والعفاف منه قبل بدئها وهذا أهون ما يمكن أن يقال عنها . ولو كنا ضاربين مثلاً لضربنا (الزنبقة الحمراء) التي ألفها أناتول فرانس مثلاً . كان فيها من المعاني ما كنا نظن أن أستاذاً يستحي أن ينقله للناس ، أو أن مجلة مثل الهلال تتنزه عن نشره عليهم ، ولكننا نأبى أن نشير بأكثر من هذا .

والدكتور طه قد دل على أنه ممن يرى إطلاق الفن من قيود الفضيلة فلا يكون هناك على الفنان حرج في أن يصور الرذيلة كيف يشاء بريشته أو بمنقاشه أو بقلمه ما دام يصورها كما هي . وهو مذهب شاع حديثاً في أوروبا وأعان على انتشاره أنه يجد عوناً من الجانب الحيواني من الانسان وأنه وسيلة قوية لنيل الشهرة وجمع المال .

وفيما يتصل بأثر طه حسين في الترجمة ما قام بترجمته عن بودلير الشاعر الفرنسي . والمعروف أن بودلير شاعر منحرف الذات والذوق ، وأن هناك عشرات من الشعراء من ذوي الفن العالي والذوق الرفيع يمكن الترجمة لهم .

وفي إحدى هذه القطع يقول طه حسين ناقلاً عن بودلير : « كذلك نفسك التي يحرقها بريق اللذة الملتهب تصعد سريعة جريئة نحو السماوات الواسعة المشرقة » .

وقد أثار هذه القصة الدكتور حسين الهراوي بمناسبة ظهور قصص اجتماعية لمحمد عبدالله عنان تحت عنوان « فتنة القصص الغربي » فقال :

« ناقشت الكثيرين من أنصار القصص الغربي بأن استفادة الشرق ادبياً لا تساوي ما يجره عليه من العناء الشخصي والقومي والخلقي فللشرق آدابه وقوميته .

والقصص الغربي اليوم قد اندفع نحو وجهة واحدة هي وجهة الاستهتار الجنسي، والروائيون في الغرب لهم في هذه الايام مصدر الهام غير هذا الموضوع. وقبيل الحرب بأعوام كانت الروايات العربية تسير على نسق واحد ، هو

تعارف فتى وفتاة بـــأية طريقة يبدعها خيال المؤلفين ثم تفصلهما عوامل الزمن ويتخطيان العقبات بالمجازفات حتى يلتقيا بالزواج .

وقال الدكتور الهراوي: « ان طغيان القسم النسوي في العالم الغربي واشتهاره جر المؤلفين الغربيين الى ان تكون فكرتهم في رواياتهم كلها عن العلاقات بـــين الجنسين وعن استهتار المجتمع الحاضر بروابط الزواج والأسرة .

وهكذا تغشى الغرب نوبة عصبية من تيار التـأخر الى حال الانسان الأول في ثوب منمق من العلم والمدنية هو اشبه بفعل الخمر او المخدر ، على ان العالم مملوء بما هو أهم تدويناً من انتهاك الحرمات ووصف المخازي » .

وقال انه . « قد ساعد على ذلك دراسات علم النفس واستخدامها في القصص مما زاد التيار اندفاعاً بعد الحرب الاولى حيث كان العالم مملوءاً بالمـآسي الحقيقية والشعوب في حالة حرب » .

ولقد كان هذا الانحراف في الترجمة دافعاً الى وقوع العالم العربي تحت سيطرة الاستعمار والنفوذ الثقافي لفرنسا وبريطانيا . ولعل هذا هو السر في تحول الترجمة عن أهدافها الاساسية الى التسلية وارضاء رغبات القراء ، فقد وقع العمل الأول في ظل حياة حرة لا سيطرة للاستعمار عليها .

هدف الترجمة

ان هدف الترجمـــة الاساسي هو خدمة الأمة العربية بنقل الأعمال الأدبية الكبرى التي تحقق للادب العربي قوة وايجابية .

وقد انحرف هذا الهدف في ظل النفوذ الغربي الى التسلية وترويــج القصص المنحرفة والمثيرة .

ومن هذه النقطة انحرف « منهج » الترجمة كما انحرف « مفهومها » فاصبحت تافهة غلبت عليها العامية والتصرف في النص والاضافة بالتضمين وحذف فقرات بكاملها .

وبذلك غلبت ترجمة القصة على الكتاب في مختلف الفنون الاخرى . وقـد

احصى يوسف اسعد داغر عشرة آلاف قصة ترجمة حتى اوائـل الحرب العالمية الثانية وهو رقم مخيف مفزع ، فقد ترجم اغلب هذه القصص من الفرنسية أولاً وكانت اغلبها من النوع النازل المنحرف ثانياً وكان اغلبها بعيداً عن الاداء السليم في الترجمة .

امـــا القليل الممتاز فهو الذي عنى بترجمته امثال محمـد مسعود والسباعي والمازني وخليل مطران وعادل زعيتر، فقد اهتم هؤلاء بامانة العمل نفسه ومدى أثره في كيان الامـــة العربية وعنوا به من ناحية المضمون والاداء باللغة العربية الفصحى ، وكانوا قادرين في مادة اللغة الاصلية ، وفي ذلك قول مطران : « تالله لو ملكت العامية لقتلتها بلا أسف » .

أمـــا الكثرة الكاثرة فقد ترجمها طانيوس عبده (٦٠٠ صفحة) والـيـاس فياض (٢٥ مسرحية) . وقـد عنى عـــدد من المجلات الشهرية والاسبوعية بالقصص المترجمة والاقاصيص وخاصة الصحف اللبنانية والتي أسسها اللبنانيون في مصر ، واهمها سلسلة الروايات (القاهرة ١٨٩٩) والروايات الشهرية(١٩٠٢) ومسامرات الجيب لخليـــل صادق (١٩٠٥) والروايات الجديـــدة لنقولا رزق الله ١٩١٠ .

وقـد طغى اللون الرخيص الزائف المترجم من ميشال زيفكو وبونسون دي تيرايل وموريس لبلان ، ومن ابرز عيوب هذه الترجمة عـدم تقدير موقفنا التاريخي من الأحداث كأمة عربية ، فـترجم مثلاً نجيب حـــداد قصة صلاح الدين لولتر سكوت وفيهـا رأي لا يتفق مع عظمة صلاح الدين ولا مكانته ولا حقيقته موقفه التاريخي .

وكان للمسرح اثره في انحراف الترجمة فإن اغلب هـذه الترجمات استهدفت التمثل ولذلك ظهرت فكرة التمصير والتعريب والاتجاه الى العامية والنزول الى القصص التافهة لأرضاء الجماهير .

ونال شكسبير حظاً وافراً في المترجمات فقد ترجمله نجيب حداد وطانيوس عبده وخليل مطران ومحمد حمـــدي وابراهيم رمزي وسامي الجريديني ومحمد

بدران وعباس حافظ .

أمـا المترجمات في ميدان العمل الأدبي فقد نالت حظاً من الأهميـة ، فقد استطاعت مدرسة الالسن بزعامة رفاعة ان تترجم اكثر من الفي كتاب ، وجاء من بعدها نابغون في الترجمة من امثال احمد زكي باشا الذي عرف بقدرته الفائقة منذ عام ١٨٨٨ والذي ترجم عدداً من الكتب التاريخية والجغرافية .

يقول في مقدمة كتاب تاريخ الشرق لماسبيرو الذي ترجمه عـام ١٨٩٧ : « بذلت في تعريب الخطوط وضبط اسماء المواقع الجغرافية عناية وتعباً لا يشعر بشيء منها الا من كابد مثل هذا العمل الشاق الذي يوجب ضياع الايام بحثاً في المطولات المتنوعة والتراجم المتعددة للوقوف على حقيقة اسم واحد ، خصوصاً وان هذه الخطوط اغلبها يختص ببلاد الشرق ، وقد نقل الأفرنج اسماءها محرفة مشوهة او تعارفوها مختلة معتلة فكان ارجاعها الى اصلها موجباً لتعب كبير . »

ومع ذلك فقد وجه الى هذا الكتاب والذي كان مقرراً على المدارس بالذات نقد يقول بانه يمثل وجهة نظر الغربيين في تاريخنا وليس وجهة نظرنا نحن .

وقد اتسع نطاق الترجمة الى اللغة العربية فشملت الترجمة من اللغات الفرنسية والانجليزية والالمانية والايطالية ، وكذلك الترجمة من الفـارسية والهندية والصينية وغير من اللغات . غير ان ابرز لغتين تصارعتا في ميـدان الترجمة ، كانتا الفرنسية والانجليزية . وكان للفرنسية الغلبة في العـالم العربي وفي مصر والشام بالذات ، وهما ابرز مناطق الترجمة .

وكانت بريطانيا قد فرضت لغتها على الثقافـة في مصر منذ سنة ١٨٨٢ وفي العراق بعد الحرب العالمية الاولى ١٩٢٠، ومع ذلك فقد ظلت الترجمة من الفرنسية اغلب من المترجمات الانجليزية التي اقتصرت على كتب الدراسات العلمية والتاريخية .

وقد عني بترجمة الادب اليوناني لطفي السيد ولطفي جمعة وطـه حسين ودريني خشبة وعنبرة سلام الخالدي . وفي ميدان الشعر غلبت ترجمـة شعر شكسبير وموليير وهاردي ولامرتين .

وفي الأدب الشرقي عني بترجمة رباعيات الخيـام الزهاوي ووديع البستاني

ومحمد السباعي واحمد الصافي النجفي ، وعني بترجمة أشعار طاغور وديع البستاني .

وعني لطفي السيد بترجمة آراء ارسطو على أساس اعتقاده بأن الفلسفة العربية هي في مجموعها فلسفة ارسطو ، وهو رأي خاطىء .

ولا شك هناك مترجمون على قدر كبير من الكفاية والايمان الحق بالعمل وفي مقدمتهم فتحي زغلول وعادل زعيتر ومحمد بدران وخليل مطران ، فقد كان هؤلاء قادرين على الفهم العميق والاداء الدقيق في اللغتين متقيدين الى حد كبير بالاصل المترجم ، وكان أغلبهم مؤمناً بحق العربية عليه في اغنائها بالآراء النافعة والافكار الجديدة التي تضيف الى شخصيتها قوة وحياة .

وقد عمل في الترجمة عدد كبير من الكتاب الاعلام في هذه المرحلة امثال فتحي زغلول ومحمد مسعود وحافظ عوض ومحمد السباعي وابراهيم المازني وخليل مطران ومحمد بدران وعادل زعيتر ، وكان أغلب هؤلاء الكتاب يهدف الى اغناء اللغة العربية بالآراء الجديدة الايجابية . وهناك طبقة أخرى كان لها دورها الفعال امثال : علي أحمد شكري ومحمد ابو طايله ولطفي جمعة ويعقوب صروف واسعد داغر ومارون عبود ومحمد عوض محمد ومحمد عبدالله عنان ، واحمد زكي وابراهيم المصري ، وسامي الجريديني وابراهيم رمزي وكامل كيلاني وفيلكس فارس ودريني خشبة واسماعيل مظهر وكامل حجاج وحبيب جاماتي والعقاد وفرح انطون وشبلي شميل ومحمد عوض ابراهيم وحسن محمود وعبدالرحمن بدوي وعبد العزيز فهمي وعباس حافظ واحمد زكي باشا .

وهناك المترجمون الذين صنعوا الموسوعات والقواميس الضخمة امثال سليمان البستاني ومصطفى الشهابي والدكتور احمد عيسى وامين المعلوف وانستاس الكرملي والياس انطون الياس ومحمد عمر التونسي والدكتور مرشد خاطر والدكتور حمدي الخياط والدكتور صلاح الدين الكواكبي وكان المقتطف اداة كبرى من ادوات الترجمة .

وقد تمكن هؤلاء الباحثون الاعلام من وضع مصطلحات الطب والكيمياء

والكهرباء والرياضيات والهندسة والنبات والحيوان وعلوم النفس والتربية والفلسفة .

وفي ميدان الترجمة برزت الكاتبة (الزهرة) التي ترجمت عدداً كبيراً من الاثار الادبية منذ ١٩١٨ وعنبرة سلام الخالدي التي ترجمت الالياذة . ولا يمكن ان ننسى في هذا المجال الرجال الاعلام الذين اشتغلوا بترجمة القوانين والانظمة والتشريعات والاعمال الدبلوماسية وفي مقدمتهم محمد قدري باشا واحمد زكي باشا .

وقد اجمعت اراء النقاد على ان ابرز معالم الترجمة الصحيحة هي :

١ – المحافظة على النص .

٢ – سلامة اللغة .

٣ – حلاوة التعبير .

وكان ابرز عوامل النقص في الترجمات المختلفة هي :

١ – عدم التقيد بالاصل المترجم .

٢ – مسخ النص .

٣ – اضافة ما ليس منه .

٤ – اللغة الركيكة المبتذلة .

ومن ناحية اخرى فإن الترجمة من اللغة العربية الى اللغات الاخرى كانت عملاً بعيد المدى ، فقد ترجمت معاني القرآن الكريم وقصة الف ليلة وحي بن يقظان والجبرتي وعجائب المخلوقات للقزويني وشعر ابن الفارض والمتنبي والامثال الادبية وعشرات أخرى من الآثار. وقد قام بهذا العمل بعض الكتاب العرب ، كما قام بالترجمة كثير من المستشرقين والكتاب الغربيين . وترجم امين الريحاني « اللزوميات » الى اللغة الانجليزية ، كما ترجم (رباعيات ابي العلاء).

وألف بعض العرب كتباً باللغات الأجنبية للكشف عن الحقائق ، من هؤلاء الدكتور علوش الذي ألف كتاباً عن الإسلام كان له دوي وأثر بعيد المدى.

ومن الأعمال الكبرى في مجال الترجمة :

ترجمة الالياذة ودائرة المعارف الإسلامية وجمهورية افلاطون ومدونة جوستنيان ، وتاريخ الحضارة لديورانت (وإن كان بعض هذه الأعمال لا يدخل المرحلة التي تؤرخها والتي تنتهي باوائل الحرب العالمية الثانية سنة ١٩٣٩) .

ولا شك انه كان للصحافة أثرها الكبير في تطوير الترجمة وتحريرها من قيود العبارة المعقدة ، ولذلك فان أغلب المترجمين الذين اشتغلوا بالصحافة كانوا أسلس عبارة وأكثر تحرراً من الذين وقفوا أنفسهم على الترجمة وحدها ، فضلاً عن ان الصحف اليومية منذ وقت طويل جداً يبدأ عام ١٩٠٧ على الأقل ، أخذت تنشر مترجمات للقصص على رفارفها . ويبدو ان أول من اخترع هذا اللون أحمد زكي باشا في جريدة الجريدة عندما نشر قصة (جون فرن)، ويمكن القول ان عشرات من القصص التي ترجمت ، إنما نشرت أول الأمر مسلسلات بالصحف اليومية والمجلات . ولا ننسى هنا ان نذكر أن (صديق شيبوب) واصل خلال ربع قرن تقريباً ترجمة قصص ومؤلفات من اللغة الفرنسية الى اللغة العربية في الصفحة الأدبية من جريدة « البصير » نقل بها عشرات من الآراء والأفكار .

وكان في عمله هذا مؤمناً بوطنه وأمته مقدراً أنه يقدم لها عصارات نافعة من الفكر العالمي .

وكان لمجلة البيان التي أصدرها المرحوم عبد الرحمن البرقوقي أثر واضح ، فهي مدرسة من المدارس التي خرّجت عدداً كبيراً من أنبغ مترجمينا أمثال المازني والسباعي والعقاد ولطفي جمعة .

وعلينا في هذا المجال أن نذكر ما اتصل بالترجمة من نقد ، وذلك فيما يتصل بعجز المترجمين عن فهم أصول الأعلام في اللغة العربية فقد كانت هناك كلمات عربية دخلت اللغات الأجنبية ثم عادت إلينا أجنبية مثل كلمة (الحمراء) التي عادت إلينا (الهمبرا) وكلمات أخرى كثيرة ، وقد أشار الى هذا المعنى الدكتور عبد العزيز برهام (الرسالة ٤ — ٥ — ١٩٤٥) حين قال : « إن أكثر

القائمين بأمر الترجمات لم يكن بصيراً باللغة العربية بصره باللغة التي ينقل عنها فكانت تستعصي عليه ترجمة كثير من الأساليب التي لا يجد لضعفه في العربية مثلا لها ، فالتوت لغة الترجمة . وكثيراً ما عمد الناقل الى الأسلوب أو التعبير الأجنبي فنقله بنصه دون مراعاة لروح اللغة التي ينقل منها فغمضت على القارىء . وكثيراً ما أدخل في اللغة العربية كلمات أجنبية لم يستطع المترجمون أن يجدوا لها مدلولاً في لغتهم فطغت على لغة الكتابة » .

وبعد ؛ فإن الترجمة في الأدب العربي المعاصر حتى أوائل الحرب العالمية الثانية قد مرت بثلاث مراحل :

المرحلة الأولى : وهي المرحلة العلمية الخالصة .

المرحلة الثانية (المنحرفة) : حين غلب الاتجاه الى إرضاء القارىء بترجمة القصة المثيرة وفي هذه المرحلة كان الهبوط واضحاً في مضمون القصة المترجمة وفي أسلوب أدائها .

المرحلة الثالثة : حين عادت المدرسة الرصينة الى الحياة بظهور مجموعة جديدة من المترجمين الذين عملوا في ميدان القصة أو في ميدان الترجمة العلمية والتاريخية والأدبية .

ولا شك أنه كان هناك في هذه الفترة محصول ضخم من الانتاج الايجابي النافع الذي آمن أصحابه بإغناء اللغة العربية ، وكان هناك الى جانب ذلك تياراً ما زال حياً وقوياً وهو تيار الإثارة وإرضاء أهواء القارىء . وهو تيار لا يقوم بذاته وإنما تسيره عوامل وغايات ليست خالصة لوجه العلم أو الوطن ، ولا شك أنه كان للنفوذ الأجنبي ودعوة التعريب أثر كبير في تغليب هذا التيار المنحرف وتعزيزه وإغنائه وحمايته لاتخاذ الترجمة وسيلة من وسائل الهدم لمقومات الأمة العربية وثقافتها وإبعادها عن الإيجابية والجد ومحاولة تمييع ملامح الشخصية العربية الأصيلة .



تطور النقد الادبي المعاصر

تمثل معارك النقد في أدبنا العربي المعاصر قطاعاً حياً من قطاعات حياتنا الفكرية له خطورته وأهميته في مجالات النثر والشعر واللغة العربية ومفاهيم الثقافة . وقد دارت هذه المعارك منذ وقت مبكر . ولعل معركة ابراهيم اليازجي وفارس الشدياق التي تبادلا فيها النقد عام ١٨٧١ حيث نشرت الجنان كتابات ابراهيم . ونشرت الجوائب كتابات فارس هي أشهر المعارك الأدبية التي ترسم ابرز ملامح النقد الادبي في هذه الفترة الباكرة وهي :

- غلبة الطابع اللغوي على النقد .
- اصطناع الهجوم الشخصي في سبيل الغلبة .
- استعمال الهجاء بدلاً من مواجهة النقد بالنقد .

ويمكن القول بأن غلبة الطابع اللغوي على النقد ظل الى فترة طويلة طابع المعارك الادبية ، وقد بدأ ذلك واضحاً في معارك نقدية مشهورة منها :

- نقد « محمد المويلحي » لديوان شوقي ١٨٩٨ وقد انصب على اللغة .
- نقد « طه حسين » لكتاب النظرات للمنفلوطي عام ١٩١١ .

ومن ذلك فان النقد الادبي حتى في هذه الفترة لم يقتصر على الطابع اللغوي وحده بل ظهرت بين حين وحين نقدات تغلب عليها الموضوعية النقدية ، من هذه النماذج :

● ما كتبه ابن هاشم (أنيس الجليس ، ابريـل ١٩٠٣) في نقد رواية (كله نصيب) لنقولا الحداد ، فقد تناولت موضوعية الرواية .

● ما كتبه عدد من النقاد في نقد ترجمة حافظ ابراهيم لرواية البؤساء .

● مقالات مفرقة في المجلات عن نقد بعض الآثار الادبية ، روعي فيها الاهتمام بالمضمون دون اللفظ .

وفي هذه المرحلة كان ابرز ملامح الطابـع اللغوي للنقد ظاهراً في أعمال ثلاثـة من كبار كتاب هذه الفترة هم : فـارس الشدياق وابراهيم اليـازجي وحسين المرصفي فقد عني الشدياق بنقد المعاجم ، وعني اليازجي بنقد لغة الجرائـد ، والف في ذلك كتابه (لغة الجرائد) الذي احصى فيه الاخطاء اللغويـة المختلفة وكشف عن الوجه الصحيح لها .

أمـا حسين المرصفي في كتابه (الوسيلة الأديبية) فقد عنى بأن يوجـه الأديب الى العناية باللغة وقواعدها وضبط مفرداتها .

ومن أبرز كتب النقد في هذه الفترة « منهل الوراد في علم الانتقاد » لقسطاكي الحمصي ، الذي صدر عام ١٩٠٧ ، ويعد هـذا الكتاب في نظر مؤرخي الأدب أول كتاب عربي في النقد .

وعنده أن ابراهيم اليـازجي هو أول من أعطى النقـد حقه عند العرب ، وذلك في الذيل الذي ذيل به شرح ديوان المتنبي .

وقد رسم خطة النقد فقال : إنه لا يمكن الوصول الى سديد النقد إلا بارتقاء درجاته الثلاث وهي : الشرح ، والتبويب ، والحكم .

والشرح عنده هو إيضاح وتحديد العلاقـة بين الكتاب المنقود وبين تاريخ العلوم الأدبية بالعموم ، تحديد علاقة التأليف بما كان من نوعه بالمكان والزمان الذي ظهر فيه ، تحديد العلاقة الكائنة بين الكاتب وكتابه .

والتبويب عنده هو تعيين باب الكتاب المنقود أو مؤلفه ، وتحديـد مرتبته بين أمثاله بالحجج العادلة .

ويرى قسطاكي أن ابراهيم اليـازجي هو أول من رسم الخطط الأولى للنقد

بمقاله (في صناعة فن النقد) في المجلد الثاني من الضياء (١٨٩٨) .

وفي نقود الشيخ حمزه فتح الله وحسين المرصفي وسيد علي المرصفي التي عرفتها دار العلوم في أوائل هذ القرن ، كان النقد منصباً على اللغويات ومعاني الكلمات .

ولم يبدأ التحويل إلا في أوائل الثلاثينات حينا أخذ المستشرقون يدرسون أساليب النقد الغربي حيث تأثر بها الأدباء من بعد .

ومن ثم تحول أمثال طه حسين من نقده اللغوي لكتاب النظرات ١٩١٢ الى مفاهيم جديدة وانكر نقده القديم .

غير أن هذه المرحلة الجديدة لم تكن قائمة على أساس ثابت ، حقيقة أنها أخذت المقومات الحديثة للنقد ولكنها مضت بها أبعد من الشوط . واندفعت بها نحو الغرض الشخصي ، ثم انحرفت بها حين اتخذتها وسيلة للغض من مقومات الفكر العربي كله ومهاجمة اللغة والتاريخ ومختلف القيم الأساسية .

وقد ظل اتجاه فارس الشدياق في خلط المناظرة العلمية بالمقاذعة ، والانتقال من البرهان الى الطعن والشتم ، يسير في خط طويل لم يستطع النقد الحديث التحرر منه .

بل يمكن القول بأن دوافع المعارك الأدبية — في الأغلب — لم تكن خالصة لوجه الفكر، وإنما وقعت تحت سيطرة دافعين كبيرين هما: الخصومات السياسية والخلافات الشخصية .

وربما أدى هذا الى تناقض الكتاب بين معركة ومعركة ، أو تحول عن اتجاه الى اتجاه آخر ، وربما كان الرأي مقيداً بوجة نظر أو ظرف معين، فاذا اختلف هذا الظرف تغير الرأي .

ولعل النقد السياسي قد طغى على النقد الأدبي وأثر فيه ، وأبرز طابع السخرية والعنف في الهجوم . وربما كان الاختلاف السياسي مصدراً من مصادر الاختلاف الفكري ، فقد كانت مدارس سياسية تسير في الطريق العثماني الإسلامي أو الطريق الاقليمي أو الطريق القومي العربي ، وقد تأثر الفكر

والأدب والنقد بهذه الميادين الثلاثة ، هذا بالإضافة الى التأثر بدعوات التغريب ، حيث بدأ هناك تياران واضحان : هما تيار المحافظة وتيار التجديد .

وقد ذهب كل من التيارين الى مداه ، فدعا المحافظون الى حماية اللغة العربية وقاوموا كل محاولة للسخرية من التاريخ العربي وأمجاد الأمة العربية والوحدة العربية ودعوات التغريب ، وتصوير العقلية العربية بصورة منتقصة ، وجعل الثقافة العربية متأثرة بالثقافة اليونانية . وتغلب التقليد على الاقتباس أو تحريف السيرة باضافة الاساطير ، أو الدعوة الى الكتابة بالحروف اللاتينية .

هذا بينما ذهب المجددون الى آخر المدى في الاستهانة باللغة الفصيحة ، والسخرية بتاريخ الأمة العربية ، والتشكيك في مقومات الفكر العربي وتراثه وقيمه المتمثلة في الفقه والتشريع والشعر والأدب وغيرهما .

غير ان الأمور لم تلبث ان تطورت على نحو قارب بين المجددين والمحافظين ، وبقي عدد قليل من دعاة التغريب يقفون وحدهم ، وقد انكشفت أهدافهم ، ذلك ان أغلب الكتاب المجددين الذين كانوا في أول الأمر يغايظون الجماهير لكسب الشهرة ، قد أرغمتهم السياسة على مسايرة الجماهير وتملقها ، كما حدث في كثير من الكتابات الدينية ، والرضوخ لآراء المستشرقين حين تحول أحمد أمين للدعوة الى العامية ومهاجمة الأدب العربي القديم ، هؤلاء الكتاب قد تحولوا من بعد ، اذ تكشفت لهم حقائق الأمور ، حين شاهدوا الفوارق البعيدة بين شعارات الحضارة الغربية وبين واقعها وتصرفاتها الفعلية في العالم العربي والاسلامي ، هنالك استفاقت معان جديدة في نفوس هؤلاء المفكرين جعلتهم يقفون وقفة النظر والتأمل ثم غلبت فيها عاطفة الايمان بالوطن والتراث ، وحق امتهم عليهم . وقد بلغ بهم الاعتقاد حد الايمان بان هذه المذاهب التغريبية لن تصل بهم الى خلق أمة وفكر جديد . هناك قاوموا زملاءهم في آرائهم ووقفوا يعارضونها . فقد عارض (هيكل) دعوة طه حسين الى كتابة الأساطير على أنها جزء من سيرة الرسول . وعارض (توفيق دياب) الأدب المكشوف ، وعارض (منصور فهمي) التقليد المطلق وعارض (فيلكس فارس) نظريات

التغريب في الثقافة وعارض (زكي مبارك) النزعة اليونانية ، وعارض (المازني) الكتابات الاباحية وترجمة القصص الفرنسية المكشوفة .

وقد كشفت اكثر من رسالة عن مدى سيطرة المستشرق الغربي على أقـــدار الشباب العربي الذين يـدرسون في الجامعـــات المختلفة . هؤلاء الذين ذهبوا إلى أوربا دون أن يحصلوا على قدر كاف من الثقافة العربية ودون ايمان واضح بامتهم وثقافتهم وشخصيتهم العربية ، فلم يلبثوا ان جروا في تيـار الدعوة التغريبية ، ظهر هذا في رسالة منصور فهمي ١٩١٤ عن (حالة المرأة في التقـاليد الاسلامية وتطوراتها) ورسالة طه حسين ١٩١٧ عن ابن خـلدون حيث هاجم المغـــاربة واتهمهم بالقصور عن التجاوب مع الحضارة الغربية ، واعتبر كفاحهم في سبيـل الحرية ومقاومة الاستعمار الفرنسي عملاً منافياً للتحضر والترقي .

وعندما حاول مثل زكي مبارك ان يواجه المستشرقين بـــآرائه ويعزف عن التبعية الفكرية والعمالة الثقافية حطموه في بـلده وابعدوه عن الجـــامعة وعن وزارة المعارف وهددوه حتى يئس ولم يجد له طريقاً الا الخمر .

وقد تحول منصور فهمي عن التبعية الثقافية ولكنه لم يجرؤ على كتابة كلمة واحدة في الرجوع عن آرائه .

ولعل اهم مصادر اضطراب النقد هو انـــه ارتبط بالدعوة التي دعاها لطفي السيد ١٩٠٧ الى التمصير وهي دعوة سياسية ولكنها استتبعت الدعوة الى تمصير اللغة وتمصير الادب ، وبذلك حمل الادب في مصر منذ ذلك الوقت طابعاً اقليمياً ضيقاً كان له اثر في جميع معارك النقد بعد ذلك ، ذلك ان دعاة تمصير اللغة انما كانوا يهدفون الى تغليب اللغة العـــامة وتحويلها الى لغة مصرية خالصة منفصلة عن اللغة العربية الأم ، وهي دعوة دارت حولها معارك متعددة : أبرزها معركة لطفي السيد مع مصطفى صادق الرافعي وعبدالرحمن البرقوقي ، وقـــد تواترت المعارك حول هذه القضية طوال تلك الفترة ، بعد ما حمل لواء العـــامية سلامة موسى ، وحمل لواء الكتابة بالحروف اللاتينية عبد العزيز فهمي ، وشارك محمـد فريد ابو حديد واحمد امين وغيرهما في التخفف من اللغة الفصحى .

وقد كانت ابرز المعارك ادبية قـد دارت حول الاسلوب والمضمون والنزعة اليونانية والصراع بـين المذهبين الفرنسي والانجليزي في النقـد وكتابة السيرة والإساطير . وحـول الترجمة وادب الساندويش والادب المكشوف ومقومات الادب العربي والنقد الذاتي والموضوعي .

تطور مفهوم النقد

ويمكن القول ان مفهوم النقد كان الى ما قبيل الحرب العالمية الاولى في العالم العربي نقداً لغوياً يحتفل بالصيغ والالفاظ والنواحي البلاغية ، ثم تحول من بعد الى العناية بالتجربة الشعرية والصياغة الفنية والناحية الموضوعية ، غير أن دعاة الاتجاه الجديد ذهبوا في مجـال التحرر من القيم القديمة في النقد الى حد الشك في عديد من القيم الثابتةوالتي قامت عليها الحياة الفكرية العربية واستهانوا بمقومات فكرية أصيلة ، وأبرز من تصدى لهذه الجوانب جماعة المتـأثرين بالمستشرقين والمبشرين ، ودعاة التغريب في العالم العربي ، وقد دعوا الى :

– حياة القدماء ، وانضاء ثوب التقديس كل ما هو قـديم ودراستها كأنها حياة الناس فيها الخطأ والصواب .

وانكار روايات التوراة والانجيل والقرآن بالنسبة للنبيين ابراهم واسماعيل ، وانكار وجودهما التاريخي واعتبار ان قصتها نوع من الحيلة الدينية .

– القاء الشك على الجوانب القومية في التـاريخ العربي والاستناد في ذلك على حياة شعراء ماجنين وذلك على النحو الذي حدث عندما حاول طه حسين اتهام العصر الاموي في نهايته . والعصر العباسي بدايته بانة عصر شك وعبث ومجون معتمداً في ذلـك على كتاب الاغاني او بعض الشعراء امثال ابي نواس وغيره . بينما تجاهل الـكاتب عشرات من اعـلام الفكر والفقه والشعر وغـيره في نفس المرحلة .

– الاندفاع في محاربة الاسلوب التقليدي في الكتابة الى الحد الذي يصل الى محاربة الفصحى نفسها .

– الانحراف في كتابة السيرة ، وتغليب الاساطير عليها .
– الدعوة الى الادب المكشوف باعتباره اتجاهاً طبيعياً الى الكشف عن النفس الانسانية .
– الدعوة الى التقليد المطلق للحضارة الغربية « خيرها وشرها ما يحمد فيها وما يعاب » .
– تهديم الشخصية العربية الاسلامية بنقل نظريات « رينان » في الاجناس وتخلف العقلية السامية ومؤازرة نظرية النزعة اليونانية ومحاولة اضفاء فضل مشكوك فيه لليونان على العرب .
– ترجمة القصص الفرنسية الاباحية .
مهاجمة دعوة الوحدة العربية وتغليب دعوة الفرعونية والقوميات الضيقة .
مهاجمة العرب وتاريخهم وبطولاتهم وثقافتهم والتشكيك فيها .
ومن مجموع هذه الخطط يبتدى وراء (النقد العربي المعاصر) محاولة سامة مسمومة . لم تكن تهدف في الحقيقة الى تحرير الفكر العربي وتنقيته وتخصيبه واغنائه بالنظريات الغربية بقدر ما كانت محاولة للقضاء عليه ودفعه الى طريق فقدان ملامح الشخصية الاصلية .

ومن هنا قامت المعارك الادبية من أجل الدفاع عن : اللغة العربية وفضل العرب على الحضارة ومعارضة الادب المكشوف ونقل الحضارة نقلاً كاملاً وتغليب الجانب الاسطوري على السيرة المحمدية ، وتصحيح الحقائق فيما يتعلق بالعقلية العربية والنزعة اليونانية .

ومن الظواهر الواضحة ان الذين عارضوا دعوات التغريب هذه المرة دخلوا المعارك الادبية بعنف وقوة هم كتاب عصريون تعلموا في اوربا . ولم يكونوا مجرد كتاب محافظين ازهري الثقافة .

فقد حمل ساطع الحصري وزكي مبارك وعبد الرحمن عزام ومحي الدين الخطيب لواء الدفاع عن العرب . وعارض توفيق دياب الادب المكشوف . وعارض منصور فهمي التقليد المطلق ، وعارض فيلكس فارس نظريات تغريب

الثقافة . وعارض زكي مبارك النزعة اليونانية. وعارض هيكل دعوة طه حسين الى احياء الاساطير. وعارض المازني الكتابات الاباحية وترجمة القصص الفرنسية المكشوفة .

ويمكن القول أن أضخم المعارك قد دارت حول بعض الكتب : مثل معركة الخلافة وأصول الحكم لعلي عبد الرازق . والشعر الجاهلي لطه حسين . ومستقبل الثقافة لطه حسين والنثر الفني لزكي مبارك ورسالة منصور فهمي للدكتوراه عن « حـــالة المرأة الإسلامية » وكتاب « حديث الاربعاء » لطه حسين ، وهناك معارك قامت من جانب واحد منها معركة [الشعر الجاهـلي] ، فقد صمت طه حسين ازاءها صمتاً منكراً ، ومعركة [لقمة العيش] التي اثارها الدكتور زكي مبارك ، ومعركة [جناية أحمد أمين على الادب العربي] التي أدارها الدكتور مبارك .

معركة مفاهيم الأدب

معارك مفاهيم الأدب بدأت حول الأسلوب عام ١٩٢٣ بـين الرافعي وطه حسين ثم تناولت غاية الأدب ، واتصلت بالأسلوب والمضمون . وتوسعت هذه المعارك فشملت الفن للفن . والفن للمجتمع والـتراث العربي القـــديم ومعارك مفاهيم اللغة .

وقد قامت هذه المعارك على أساس مهاجمة الاسلوب القديم المغرق في السجع والمقدمات والالفاظ القاموسية . وحول غلبة العناية باللفظ على العناية بالمضمون وقد وقف شكيب ارسلان والرافعي في صف الدفاع . ووقف سلامـه موسى وطه حسين في صف الهجوم .

وكانت حجة المدافعين حمايـــة اللغة العربية من أعجمية العامية التي كانت هدف الدعوة التي أثيرت واستشرت .

وجرت معركة حول أسلوب الكتابة بين شكيب أرسلان وخليل سكاكيني حيث هاجم الأخير كتابات أمير البيان ، كما كانوا يطلقون عليه . وقـد جرت

هذه المعركة على نحو معركة الرافعي مع طه حسين وسلامه موسى .

وفي عديد من معارك جرى البحث حول الاسلوب والمضمون ، واتصل هذا بدعوة جبران حين كتب مقالة (لي لغتي ولكم لغتكم) .

معارك الشعر :

ودارت المعارك الأدبيـــة حول مفهوم الشعر حيث بدأ النقد الأدبي للشعر يأخذ طابعاً جديداً على يدي ثلاثة الديوان « شكري والعقاد والمـــازني » وهم الذين حملوا لواء الدعوة الى وحدة القصيدة منذ عام ١٩٠٨ ، وكان مطران قــد سبقها عــام ١٩٠٠ في الدعوة الى تحرير الشعر التقليدي . اشترك فيها العقـــاد والمازني من ناحية ومدرسة المهجر وعلى رأسها جبران وميخائيل نعيمة وأمين الريحاني . وكان مضمون مفاهيم الشعر عند المدرسة الحديثة هو أن يكون الشعر متصلاً بالنفس وأن أي قصيدة إذا غــير ترتيب أبياتهـــا اضطرب معناها وأن يكون له قوته اذا ترجم الى أي لغة أجنبية وأن تكون القصيدة وحدة كاملة .

وقد كان للشعر مجال ضخم في معارك الأدب وحظي أحمـــد شوقي بالجانب الأكبر منه ، فقد هاجمته المدرسة الحديثة هجوماً عنيفاً . وقد بدأ العقــاد حملته على شوقي عام ١٩١٢ في رثائه لبطرس غالي ، ووالاه في كتاب الديوان ١٩٢٢ كما حمل المازني على حافظ عام ١٩١٢ ، وكان الرافعي قد رتب الشعراء عام ١٩٠٥ في مقال له بمجلة الثريا طبقــات ، ووضع نفسه في الطبقـــة الأولى مع الكاظمي والبارودي وحافظ ووضع صبري وشوقي ومطران في الطبقة الثانية .

ثم بدأت معركة السرقة الشعرية بين شكري والمـــازني ١٩١٨ حيث اتهم شكري المازني بالسرقة في مقدمة الجزء الخامس من ديوانـــه والاغارة على شللر وهيني وغيرهما ورد المازني الضربـــة لشكري في الديوان بمقال مقذع باسم (صنم الألاعيب) .

ودارت معارك أخرى حول « أمارة الشعر » بعد وفــاة شوقي وحـــافظ وكانت أقسى المعارك الشعرية بين الرافعي والعقاد ويعد كتاب (على السفود)

أشد هذه الحملة إقذاعاً .

وقد بلغت معارك النقد في الشعر أبعد مدى من التعنت والتحامل وانبعثت في الأغلب من الخصومة السياسية وقد عرف الرافعي بتعنته في نقده للعقاد وعرف العقاد بتعنته في نقد شوقي ، وعرف المازني بتعنته في نقده لشكري .

ومن أمثلة هذا النقد قول العقاد (ايه يا خفافيش الأدب ، أغثيتم نفوسنا أغثى الله نفوسكم الضئيلة ، لا هوادة بعد اليوم ، السوط في اليد ، وجلودكم لمثل هذا السوط خلقت ، وسنفرغ لكم أيها الثقلان ، فأكثروا من مساوئكم فإنكم بهذه المساوىء – تعملون للأدب ، والحقيقة أضعاف ما عملت لها صفاتكم ، ان كانت لكم حسنة يحسها الأدب والحقيقة) .

ويمكن القول بأن القواعد التي وضعتها المدرسة الحديثة في الشعر لم تكن نبراساً لها فيما نظمت من شعر ، بل أن العقاد نفسه تحول عن هدفه حين نظم في المسرح والرثاء ، وان الدكتور مندور قام بتغيير ترتيب قصيدة له فجاءت بنفس النتيجة التي قام بها العقاد لشعر شوقي وجعلها قاعدة لنقده للشعر التقليدي .

تحول النقاد عن القواعد التي وضعوها :

وأعجب ما في الأمر أن هؤلاء النقاد قد تحولوا عن مناهج النقد والتي وضعوها ، فقد غير طه حسين رأيه في دراسة الأدب ، بعد ان دعا في كتابه (ذكرى أبي العلاء) الى دراسة الأدب على أساس علمي محض ، عاد بعد ثلاثة عشر عاماً في كتاب الشعر الجاهلي ، فقال ان الأدب لا يستطيع ان يعتمد على مناهج البحث العلمي الخالص وحدها ، ولا بد من اعتماده على الذوق الخاص.

وتحول المازني عن نقده لحافظ وشكري .

وتحول طه حسين عن نقده للمنفلوطي .

وتحول طه حسين عن رأيه في شوقي ، كما تحول المازني في نقده لشوقي .

وقال المازني عن نقده السابق لحافظ « أما النقد فقد أسقطناه من جملة ما كتبنا غير آسفين على إسقاطه ، فقد كان مما أغرت به حماقة الشباب ».

ومن هنا يمكن القول بأن كتّابنا لم يلتزموا قواعد النقد الأدبي التي رسموها وانهم لم يكونوا جادين في فرضها ، وأن نقدهم كان في الأغلب مغرضاً ذاتياً ، مرتبطاً بالأهواء الخاصة والتقلبات السياسية . وقد بلغ النقد الأدبي حدة من العنف عند أحمد فارس الشدياق في فجر الحركة النقدية في الأدب العربي ، وقد أورث هذه الطريقة أحمد زكي باشا شيخ العروبة ، وسار في هذا الاتجاه الرافعي وطه حسين والعقاد ، فكانوا أشد نقادنا عنفاً وأبعدهم عن النزاهة والتجرد .

وكان الخلاف بين الرافعي والعقاد — وقد دارت بينهما أعنف المعارك — انما يرجع الى أسباب خاصة منها أن للعقاد رأياً في إعجاز القرآن غير رأي الرافعي، ذكره في حديث له في مجلة المقتطف ، وان العقاد أزعجه تكريم سعد زغلول لكتاب الرافعي هذا ، وإتهامه بانه لم يكتب له شيئاً . وكان هناك خلاف آخر حول النشيد القومي ذكره العقاد في كتاب الديوان ، ويمكن ان يضاف الى هذا أن مقابلة تمت بين الكاتبين مع الكاتبة مي، أغضت فيها الكاتبة قليلاً عن الرافعي في اهتمام بالعقاد دفعت الرافعي الى الخصومة معها ، وقطع صلته بها ، والحملة على خصمه العقاد .

وكذلك كان الخلاف بين الرافعي وطه حسين — وقد دارت بينهما أعنف المعارك — وكان الرافعي هو أول من حمل لواء معركة (الشعر الجاهلي) بعنف ، ويرجع ذلك الى أسباب سابقة ربما كان أهمها أن الرافعي كان حريضاً على أن يكون استاذ الأدب العربي في الجامعة ، وأن طه حسين أحرز هذا المنصب من دونه .

ومما يذكر ان كتاب الشعر الجاهلي لطه حسين ، قد واجه أكثر النقود عنفاً فقد ألفت أكثر من ثمانية كتب في الرد عليه : للرافعي وفريد وجدي والخضر حسين ولطفي جمعه والغمراوي وشكيب ارسلان والخضيري ومحمد عرفه .

ويمكن القول بأن النقد تأثر كثيراً بالخصومات والصداقات وأن خلافات الكتاب لم تكن تبعاً لمذاهب فكرية بقدر ما كانت قائمة على الخصومات الشخصية والخلافات الحزبية .

ومعنى هذا ، ان النقد الأدبي الحديث لم تكن له مناهج تعهد بها النقاد ، أو وقفوا عندها .

ونستطيع ان نقرر بعـــد دراسة أكثر من ستين معركة كبرى في الفترة من أوائل القرن حتى عام ١٩٤٠ ، ان أغلب احكام هذه المعارك تدل على التناقض، فالرأي مقيد بوجهة نظر وظرف معين ، فإذا اختلف هذا الظرف تغير الرأي ، وآية ذلك ان طه حسين بايع العقاد عام ١٩٣٤ بأمارة الشعر ، وكان قبل ذلك قد بايع بها العراق ، ثم عدل عنها وعاد طه حسين عام ١٩٥٦ فأعلن ما يلي :

« أحب أن أؤكد أني لم أبايع بأمارة الشعر ، وما كان لي أن أبايعـــه لأني لم أكن شاعراً » .

وربما كان في النقد عامل آخر ، هو ان هناك رأياً مسبقاً بالنسبة للكاتب ، ثم يجري النقد لمحاولة تبرير الرأي وتأكيده بالتماسه هنا وهناك من نصوص الاثر المنقود .

ولقـــد حملت الصحافة لواء النقـــد ، وأفسحت له المجال ، واتاحت الفرصة للقراء لمتابعة معاركه وموالاتها .

تطور الادب النسوي العربي

ظهر الادب العربي النسوي كجزء من الادب العربي المعاصر في اول أمره خفياً حيياً متوارياً، ثم لم يلبث ان اتسع نطاقه في صوره الثلاث : قصائد شعرية تقليدية ، وكلمات أدبية تنشر في الصحف ، وصحف شهرية تصدرها كاتبات ، وكانت مصر ولبنان مركزا هذا الاتجاه ، وكان لكاتبات الشام السبق الى نشر المجلات والتي طبع اغلبها في مصر ولكاتبات مصر السبق في التحرير . ويسجل بعض المؤرخين ان أول امرأة كتبت هي مدام منصور مشكور في مجلة الجنان ١٨٧٤ وقالت : « لما كانت المرأة ذات قابلية لجميع ما يجمعه الرجل ولأدراك ما يدركونه من سلم الادب والمعارف كان لا بد من أن تكون الواسطة الرافعة لشأنها والمثقفة لعقلها نفس وسائط الرجال » .

لكن هذه المرحلة الاولى كانت مطبوعة بطابع التقليد فشعر وردة اليازجي وامينة نجيب لم يكن الا نظماً أقرب الى رصف الألفاظ ، ربما كان ذلك نتيجة البيئة الادبية التي شبا فيها . فلم تكن المشاعر النفسية او التأملات والاحساسات او التأثرات بالأحداث واضحة في هذا الشعر ، حتى جاءت (عائشه عصمت تيمور) واستعلنت بشخصيتها في الثمانيات من القرن الماضي اثر احداث عاصفة فجرت الشعر من نفسها على نحو جديد بعد أن تحرر من قيود التقليد ، فهزت النفوس بقصائد كتبت لها اسماً بارزاً في العشر العربي وكانت علامة واضحة على

الشعر النسوي العربي الحديث .

وعندنا ان المرحلة الثانية لتطور الشعر النسوي بدأتها « جميلة العلايلي » في الثلاثينات من هذا القرن ، حيث أتيح للمرأة ان تعبر بالشعر لأول مره عن مشاعرها الذاتية في حرية ووضوح بعد ان كانت تخفي هذه المشاعر خلف اقنعة مختلفة .

وفي مجال الصحافة ظهرت مجلة « الفتاة » لهند نوفل ١٨٩٢ ، وفي نفس العام ضهر كتاب « الدر المنثور في طبقات ربات الخدور » لزينب فواز ، وبذلك برز الادب النسوي في مجالاته الثلاث المختلفة في وقت واحد تقريباً .

وتوالت المجلات النسوية فظهرت مجلة أنيس الجليس عام ١٨٩٨ وما أن أهل القرن حتى برزت صحف متعددة وكاتبات جدد في مقدمتهن ملك حفنى ناصيف التي برز اسمها في « الجريدة عام ١٩٠٧ » وفي محاضرات الجامعة ، بينما كانت عائشة تيمور تشدو بقصائد الحزن والاسى، ولبيبة هاشم تصدر مجلة فتاةالشرق في القاهرة عام ١٩٠٦ وماري عجمي تصدر مجلة العروس في دمشق ١٩١٠ وعفيفة كرم تصدر في نيويورك قصتها فاطمة البدوية ١٩٠٦ .

فـإذا اعلنت الحرب العالمية الاولى كان صالون الكاتبة مي في مصر يستقبل عشرات من اعلام الفكر ، حيث بدأت « مي » تكتب في جريدة والدها المحروسة ١٩١٥ — خواطرها تحت عنوان « يوميات فتاة » باللغة العربية بعد أن كانت تكتب بالفرنسية بتوقيع « ايزيس كوبيا » فقد نصحها لطفي السيد أن تقرأ القرأن فكون لها ملكة عربية اعانتها على ترجمة « ابتسامأت ودموع» والالتحاق بالجامعة وكتابة أول كتبها في اللغة العربية « باحثة البادية–١٩٢٠».

وكان انتهاء الحرب العالمية وثورة ١٩١٩ في مصر مقدمة لتطور كبير في الأدب النسوي أخذ مجاله الصحيح في اتساع نطاق المجلات النسوية في العالم العربي : لبيبة هاشم (النهضة النسائية) وبلسم عبد الملك (المرأة المصرية) وجوليا طعمة دمشقية (المرأة الجديدة) ومنيره ثابت (الأمل) وتفيدة علام (امهات المستقبل) ونبوية موسى (مجلة الفتاة) ثم شهرت عنبره سلام

والزهرة ، وفي الثلاثينيات اتسع نطاق النهضة فبرزت اسماء متعددة في الصحف امثال جميلة العلايلي وفلك طرزي ووداد سكاكيني وسهير القلماوي وبنت الشاطىء واسما فهمي .

وحفلت الصحف وخاصة جريدة الاهرام بعشرات الاسماء يشاركون في الكتابات الوطنية والاجتماعية والسياسية ويناقش كل ما يثار من موضوعات عامة ، ويعالجن قضية المرأة ويطالبن بحقها ، وكانت منيرة ثابت (١٩٢١) اجرأ هذه الاسماء في الكتابة السياسية و « مي زيادة » (١٩٢٢) اكثرهن كتابة في الموضوعات الاجتماعية ثم برزت جميلة العلايلي في مجالي الشعر والقصة وعرفت بنت الشاطىء بكتاباتها عن القرية ١٩٣٥ .

ولم تحقق المجلات النسوية فيما اعتقد نجاحاً فنياً بعد ان افردت مجلات السياسة الاسبوعية والبلاغ الاسبوعي ومختلف الصحف اليومية امثال كوكب الشرق والاهرام ، البلاغ والسياسة ، صفحات وزوايا متعددة لمسائل المرأة وقضاياها ..

ذلك أن أغلب الصحف النسائية لم يكن لها طابع نسوي واضح ولم تحمل لواء الدفاع عن قضية المرأة ، وان شغلت بمسائل البيت والأطفال وكان الرجال في أغلب هم الذين يحررون هذه المجلات . فإن كثيرات ممن أنشأن المجلات النسوية لم يكن كاتبات بالمعنى المعروف وليس لهن إنتاج أدبي صريح ، واضح الأسلوب والهدف .

الصحف النسوية :

قد ظهر عدد كبير من المجلات النسوية في الفترة من ١٨٩٢ الى ١٩٤٠ في القاهرة ودمشق وبيروت والاسكندرية ونيويورك وسان باولو والمهاجر وبغداد وحلب عنيت بالشئون الاجتماعية والعائلية ، زادت عن أربعين مجلة .

وقد تناول كثير من النقاد هذه الصحف وأشاروا الى أوجه النقص بها ومن ذلك تعليق توفيق حبيب (هامش الاهرام ٣٥/٢/٢٢) فهو يرى أن هذه

المجلات كلها لا تزال في حاجة الى تغيير وتبديل حتى تكون نسائية محضة فيها كل ما يهم المرأة في البيت والمدرسة والأدب. كما أشار الى أن مادة هذه الصحف لا تفترق عن مادة الصحف الأخرى التي يصدرها الرجال . وقال : « إن من المؤلم أن تكون مجلاتنا النسوية عام ١٩٣٥ مثلها منذ أربعين سنة شكلاً وموضوعاً كلها خطب ومقالات نظرية بحتة » .

ومما يذكر أن أغلب هذه المجلات كانت معتدلة الرأي بالنسبة لقضية المرأة وكانت تدافع عن مكان المرأة في البيت لحمايتها من طغيان المدنية الحاضرة .

ولا يمنع هذا من أن نذكر أن (عفيفة صعب) صاحبة مجلة « الخدر » كانت تستنهض الهمم لإنشاء المدارس للنساء ، وتدعو الى الاشتراكية حيث تقول : « لا ننسى أن الفقر كما يكون أحياناً معمل العظام وأس النجاح إن صح له ما قوم اتجاهه هذا يكون معمل المحرجين ووباء ينشر العدوى في كل ذي قابلية ان عدم وسائل التقويم » .

ومما يذكر هنا أن مجلة أنيس الجليس (اسكندرة افرينو) كان يحررها أمين حداد وشقيقه ، ولم يعرف لصاحبتها مقالات ممهورة بتوقيعها أو أسلوب أو منهج كتابي ويغلب أنها لم تكن تعرف العربية تماماً وتعليمها فرنسي .

وقد برز اسم لبيبة هاشم صاحبة مجلة فتاة الشرق في عديد من الموضوعات غير انها لم تتحرر من الاسلوب التقليدي ولم يبرز في كتاباتها طابع المرأة وروحها الذي يميزها عن اسلوب الرجل وكتاباته .

وكذلك الكاتبة (زينب فواز) التي لمع اسمها بفضل تعضيد حسن حسني الطويراني صاحب جريدة النيل لها وصدور مجلد ضخم لها عن تراجم النساء لم تكن واضحة الطابع النسوي .

وقد تأكد الطابع النسوي في الادب بعد عام ١٩٢٠ في كتابات « مي » ثم تكشف في صور اقوى في كتابات جميلة العلايلي ووداد سكاكيني ، وقد اتيح للكاتبة مي زيادة (وقد نشأت في بيئة الصحافة) حيث كان والدها الياس زيادة يصدر صحيفة (المحروسة) واتصلت في مطالع حياتها بصالون ادبي كان يرده

عدد من اعـلام الفكر أن تجـد من الصحافة — والصحافة السورية بالذات — تشجيعاً أعطاها « مكانة » وشهرة لم تتحقق لكثيرات ، فقد احتفت بها الصحف الشامية الاصل —الفرنسية المشرب والثقافة — كالاهرام والهلال فأبرزتها، هذا على انها كانت فعلاً ذروة الانتاج ، وان لم تكن كتاباتها ذات طابع نسوي خالص .

وقد كان للصحف النسائية شأن ، حـتى ان سليم سركيس أصدر في أول نوفمبر ١٨٩٦ مجـلة باسم (مرآة الحسناء) في مصر متنكراً في اصدارها باسم (مريم مزهر) ثم عاد فكشف هذه الحقيقة في مجلة سركيس (مارس ١٩٠٧).

باحثة البادية

وقد برز هذا الطابع النسوي قبـل ١٩١٠ في كتابات باحثة البادية . والتي تعد أبحاثها من اولى الكتابات النسوية الصريحة الواضحة فقد ظهرت هذه الكتابات في جريدة (الجريدة) عام ١٩٠٧ وما بعدها حتى اتيح لهـا ان تظهر في كتاب مستقل باسم « النسائيات » عام ١٩١١ فكان لها ضجة واضحة وبها تـأكد أن أدباً نسوياً واضح الملامح قد ظهر في الادب العربي المعاصر ، بينا كانت الكاتبات النسوية من قبل غير ذات طابع واضح .

ذلك ان اعمال (زينب فواز — ولبيبة هاشم) وهما ابرز الكاتبات قبـل ظهور باحثة البادية لم تكن الا مجموعة محاولات لاثبـات شخصية المرأة في عالم القصة والكتابة وتراجم النساء والمساجلة من اجل حقوق المرأة . ،

فزينب فواز كتبت القصة ونظمت الشعر وكتبت المقال والتراجم وألفت الكتب . أما لبيبة هاشم فقد أصدرت مجلة ، وكان لمجلتها صوت عال واضح في الدعوة الى ترقية المرأة ، وكانت مؤمنة بان الصحافة النسوية تحمل رسالة صريحة لتسير ضد تيار الجهل الجارف مغالبة أمواج الفاقة والتعصب والانحطاط ، ولها مؤلفات « التربية وقلب الرجل » كما كتبت بعض القصص الطويلة والأقاصيص، كما ألقت عدداً من المحاضرات . ولها مساجلة مبكرة عام ١٩٠٢ في «المقتطف» مـع اسعـد داغر حول حقوق المرأة في التعليم ، ولهـا منظومة عنوانهـا :

« زهرة الربيع » .

وكان لكتابات (مي زياده) طابعها النسوي الواضح ، في معالجة قضية المرأة ومشاكل الأسرة والبيت على نحو متحفظ صادق الجرأة في مهاجمة اخطاء الرجال والايمان بمكان المرأة في البيت ، وقد غلب عليها الاتجاه الصحفي منذ ١٩٢٥ حيث اخذت تنشر فصولاً مترادفة في الأهرام – شبه اسبوعية – تتناول فيها عديداً من المسائل العامة حتى توقفت عام ١٩٣٥ بعد اضطراب اعصابها ، وكان لمي اسلوبها العربي العاطفي الفرنسي الطابع . وقد استغل قلمها استغلالاً سياسياً في كثير من القضايا التي كان الأهرام يعالجها .

وقد تأثرت « مي » تأثراً واضحاً بأسلوب جبران والادب المهجري والرومانسية الفرنسية ، وكانت أكثر جرأة واقتحاماً في تصوير مشاعر المرأة .

وقد عزت أبرز المؤثرات في حياتها الادبية الى النظر في جمال الطبيعة وقراءة القرآن وتأثرها بفصاحته وبلاغته وبالحركة الوطنية في ثورة ١٩١٩ .

« الكاتبة الزهرة » :

ومن الكاتبات اللائي برزن منذ وقت مبكر ولم يأخذن مكانة واضحة الكاتبة « الزهرة » (اوليفيا عويضة) فقد نشرت مقالات وفصولاً في الصحف والمجلات منذ العشرينات وربما قبلها . وكتبت في مجلة الرسالة والثقافة ، وظل اسمها يتردد حتى عام ١٩٥٠ (ولا يعرف بالضبط تاريخ ولادتها) وهي كاتبة من الأقصر ، يبدو انها كانت تعيش في نطاق حياة رخية وقد شغلت نفسها بالترجمة إذ كانت ثقافتها الغربية واضحة الأثر في انتاجها .

الطابع النسوي

ويتمثل الطابع النسوي في الأدب المعاصر في كتابات كاتبتين هما : جميلة العلايلي ووداد سكاكيني ، ففي انتاجهما يتجلى الاسلوب النسوي والفهم العميق لضمير المرأة ، وجميلة العلايلي أصدق الكاتبات احساساً بالمشاعر الانثوية بعد « مي » بل لعلها أصدق من « مي » فهي لم توجه قلمها لحساب أي اتجاه وعبرت عن مشاعرها عن طريق القصة ، واستطاعت ان تضع مشاعرها وأحاسيسها على

لسان بطلات قصصها . مؤمنة بان المرأة ملهمة ومستهدفة من قصصها رعاية القيم والمثل العليا .

وهي كاتبة من الطراز الاول ، تكتب على البديهة وفي اسلوبها اناقة وقوة ، وطابعها النسوي واضح يكشف شخصية المرأة حتى ولو استتر أسمها ، وهي تطلق خواطرها في عمق على نحو عاطفيها روحي مشرق ، وتؤمن بحق المرأة في الحياة ومكانتها في البيت ودورها الكبير في بناء الرجل والوطن العربي . وهي من المؤمنات باللغة العربية وكرامة المرأة والحرص عليها من تيار الانحراف الذي يدفعها بعيداً عن طبيعتها أو رسالتها .

وتمتاز على « مي » انها حافظت على فكرها من الاتجاه الموجه الى هدف من اهداف الصحف في فترة صراع المذاهب والنزعات التغريبية ومحاولة تغليب الثقافة الغربية .

وأنا لنعجب ان تظل جميلة العلايلي — الآن اكثر من عشر سنوات — وهي بعيدة عن الأضواء ، وكان حرياً بها ان تكتب في امهات الصحف العربية وتتصدر مكانها كاستاذة ورائدة . وان كانت كتاباتها في مجلتها (الأهداف)خلال هذة الفترة تشبع رغبتها وان لم تقدمها على نطاق واسع .

وتقف في نفس الاتجاه الواضح الصريح القوي العميق « وداد سكاكيني » فهي المعنية كل العناية بتصوير مشاعر المرأة وعواطفها في قصصها .

فهي كاتبة قصة وناثرة ، لها طابعها الواضح ولونها الانثوي الصريح ، وهي تختلف عن جميلة العلايلي في انها تعني بشئون المرأة العربية على اوسع نطاق ، وانها مجادلة ضخمة ومساجلة قوية لها نظرات في النقد واحاديث في الاذاعة وابحاث ومقالات منوعة في صحف العالم العربي . وكلها تنصب على تكريم المرأة وتقرير مكانها الخالد وابراز دورها التاريخي وبطولاتها في الادب العربي القديم ، وهي تمزج بين الشام ومصر مزجاً واضحاً .

ومن دراساتها العربية : أمهات المؤمنين وأروى بن الخطوب ومجالس الادب عند نساء العرب ورابعة العدوية .

وكتاباتها مثالية النهج ، قائمة على القيم ذات الهدف الواضح في التربية والفضيلة والخلق ، شأنها في ذلك شأن جميلة العلايلي ، وهي تقدم هذا في نحو فني بعيد عن الوعظ والاشادة وتهاجم الفن المنحرف، والكتاب والكاتبات الذين صنعتهم الظروف ، واللائي لسن اصلاء في ميدان الكتابة ، من مَن يكتب الرجال لهن ليأخذن مكاناً صالونياً من التبريز والظهور بصناعة الادب وتكشف عنهن حتى لكأنها تذكرتهم بالاسم .

وعندها ان المرأة اقدر قدرة على تصوير اعماق المرأة وشمائلها ، تقول « أن أدب المرأة هو ما يصور الحياة النسائية المبهمة والعادات المحجوبة عن الرجال وان أي رجل مهما بلغ وعيه واستفاض وحيه لا يستطيع ان يحيط باسرار النساء وهي عندهن في ابار عميقة وتحت حجب صفيقة » .

وهي تعرف الأدب النسوي بأنه « الألواح الفنية » التي تعتبر فيها المرأة الكاتبة عن دخائل نفسها وخفايا حسها في البيئات النسائية التي لا يتسنى للكاتبين أن يعيشوا فيها أو يشعروا بها ويعاينوها ، هي في المواهب النسوية المصقولة والأفكار المتحررة من أصفاد أحكمت وثاقها التقاليد .

وترى أن أدب المرأة الموسوم بخصائص الأنوثة ظهر في باحثة البادية ومي.. وهو يختلف عن أدب وردة اليازجية وزينب فواز العاملية وعائشة التيمورية التي تقيد أدبهن بقيود الزمان وحدود المكان وتكاد تنحصر آثارهن في الرثاء والأماديح والمواعظ الأخلاقية .

وهي تقاوم دعوى الأقليمية في الأدب العربي فترى أنها فكرة منحرفة كما تحارب الدعوة الى العامية . وترى أن دعاتها يبررون دعوتهم بضعفهم في التعبير وإيثارهم السهولة والسرعة وهي معتدلة الرأي سوية التفكير واقعية، وبالرغم من إعجابها برابعة ، ترى أن التصرف اليوم هروب من الحياة التي ما خلق الإنسان إلا ليقف منها وجهاً لوجه واعياً قوياً عزيز النفس مؤمناً بالله وبذاته مشاركاً في بناء المجتمع على قدر طاقته .

● وقد عنيت « بنت الشاطىء » بأدب المرأة ممثلاً في دراساتها عن بطولة المرأة

العربية ، في شخصيات أمهات المؤمنين كما صورت أزمات المرأة المصرية العربية الحديثة في عديد من فصول بعنوان « من حياتهن » وفي صور ولوحات رسمتها، كشفت فيها عن مشاعرها ازاء الرحلات والبلاد وعديد من المواقف والقضايا . وعنيت أكثر عناية بالقرية والفلاح . وكان ذلك هو عملها الأدبي الأول، غير أنها أوغلت في دراسات الأدب والنقد على نحو واسع وهو فن تغلب عليها فيه النزعة الأدبية الخالصة ، التي لا تبدو فيها سمة المرأة واضحة وضوحاً خالصاً ، ولعل ارتباطها بالبيئات الجامعية وما يتصل بها معارك قد خفف قليلاً من وقائع نبضها النسوي الخالص .

وهي سوية الرأي في قضية المرأة ومكانها في الحياة تقول : « على أن كبرى الكبائر أن ينسى بعضنا الفروق الطبيعية بين الجنسين أو يتجاهلها أو يسعى الى إلغائها .. مع أن الطبيعة والحياة تأبيان علينا مثل هذا المسخ الذي يريد الانثى مخلوقاً شاذاً هو امرأة بطبعه ورجل في تطبعه .

ويبدو طابعها النسوي واضحاً حينما يتصل ذلك ببيئة الانثى تقول : أن حياة الانثى مثقلة بهموم كبار . وهي تبدأ في طفولتها الباكرة اذ تسيء الحياة استقبالها وتلقاها كارهة الا في القليل النادر . ففي القصر والكوخ . وفي البادية والحضر وفي الشرق والغرب جميعاً . تخرج الانثى الى الدنيا غير مرغوب فيها ولو نشأت في بيئة نجحت بناتها وخاب بنوها . فالقوم لا ينتظرون بها الايام لتعرف مكانها في الدنيا . وانما يتلقونها منذ اللحظة الاولى واجمين كارهين »..

● وكتبت سهير القلماوي القصة والشعر المنثور ، وكان ابرز انتاجها النقد الادبي والدراسة الادبية وقد عرفت بنقد الكتب وعرضها وطابعها العلمي هو الاغلب ، فانها قلما تكتب خواطرها النسوية كامرأة او أم ، ولعل هذا هو الذي جعل بعض النقاد يرون أن أدبها لا يظهر طابع الانثى ، وهي في اتجاهها الادبي تتميز بطابع الاعتدال والبعد عن الصراع فهي تعزف عن الاقتحام والعراك بعكس الدكتورة بنت الشاطىء التي تحاول دائماً أن تدخل معارك أدبية وتكشف جوانب من النقص الادبي الذي يجعلها موضع المساجلات .

ولسهير القلماوي شعر رقيق :

في سكون الليل يحلو لي البكاء　　فأروي القبر من وحي الوفاء
اترى روحك تسري في المساء　　في سلام وسكون وصفـــاء
أم ترى حيرى تهيم في الفضاء

يا حياة عشتها كانت ممـــات　　انت في القبر ومن قبل رفات
انت سرت من سبات لسبات　　حمل الموت ومن قبل العنـاء
فمضيت من عنـــاء لعنـاء

وعندها ان المرأة لم تضعف جسمياً نتيجة عدم تمرسها بالاعمال القوية ولكنها بحكم جنسها وبحكم تكوين خلايا جسمها لا بد ان تكون أقـــل قوة جسمية من الرجل وان آلاف – السنين من التمرين العضلي لن تجعل الجنس اللطيف يصبـح قويـــاً وان المرأة ضعيفة في قوة جسدها ولكنها قوية بل اقوى من الرجل في قوة تحملها للتقلبات الجوية وللامراض وللارهاق النفسي والعصبي .

وهي ترى ان الله خلق المرأة مختلفة عن الرجل وفي هـــذا الاختلاف سر تفوق الجنسين بل سر دوامها ، وترى انه لو ان الله اراد ان يخلق رجال اقوياء ليسموا رجالاً ،ورجالاً ضعفاء ليسموا مـــا شاء ، لما اوجد في جسم المرأة وكيانها واعصابها وغددها كل هذه الفروق التي يتجلى عنهـــا البحث كل يوم ، فيظهر لنا العجب الذي لم نكن نتوقعه . لقد خلق الله المرأة لغاية ، وخلق الله الرجل لغاية ، وكل منهما يعمل نحو هذه الغاية ، فاذا انحرف واحد منهما ليعمل عمل الآخر ، انحرفت غايات الحياة الاجتماعية وشالت موازينها. ولكن الطبيعة تظل جامدة قوية لا تعترف بهذا الانحراف ، فالرجل يعمل والمرأة، يجب ان تعمل في البيت وفي خارج البيت ، ولكن على أن تعمل المرأة وهي امرأة لا تدعي لنفسها صفات الرجل ولا تتقمص شخصيته فتضيع شخصيتها » .

* * *

ولا شك ان المرأة العربية في العصر الحديث قد حملت القلم وجالت بـه في

ميادين الشعر والنثر والقصة والصحافة والترجمة ، وان مصر والشام والعراق قد شاركت في ذلك في اغلب هذه الميادين أو بعضها .

أما بالنسبة للجناح الأيسر من الامة العربية فإنه لم يصل الينا من أنباء ادب المرأة ما يمكن ان يكشف امامنا هـــذا الجانب . ومن الطبيعي ان لا يوجـد في هذه الفترة كاتبة او شاعرة في المغرب الكبير ، غـير ان ظروف الدراسات الأدبية بالنسبة لشمال افريقيا لن تكون ميسرة في مرحلة ما بـــين الحربين التي تؤرخها .

ولم توجد مراجع واضحة لدراسة الأدب النسوي العربي المعاصر سوى كتابين هما : [الشعر النسائي العصري وشهيرات نجومـــه] الصادر ١٩٢٩ وكتاب [بلاغة النساء في القرن العشرين] .

وليس هناك بعد ذلك غير المؤلفات نفسهـا والفصول المنشورة في الصحف والمجلات .

ولكن هل يمكن ان يقال عند تقديم هذا الادب النسوي بأنه كله من إنتاج المرأة وان وسم باسمها .

الواقع ان المرأة العربية وخاصة الشامية كانت جريئـــة في إصدار المجلات النسوية جرأة نادرة وان امر هذه الصحف في هذه الفترة الباكرة ملفت للنظر حقاً. ولكن ماورد من مقالات منسوبة الى صاحبات هذه الصحف فيه كثير من المبالغة . فالواقع ان هذه الصحف كان يحررها الرجال ، وأن بعض الكاتبات لم تظهر لهن كتبـاً مستقلة تثبت قدرتهن على الكتابة ، وان الكاتبـات منهن في الاغلب لم تكن لهن صحف وإنما مؤلفات .

وفي مقدمة هؤلاء مشهورات غاية الشهرة كروزاليوسف واسكندره افرينو وهدى شعراوي .

وان هناك بعض الرجال كانوا يكتبون باسم المرأة مثل سليم سركيس في مجلته بامضاء « مريم مزهر » ونظمي لوقا في الاهرام بامضاء « حكمت كامل » . وقد استمرت هذه الظاهرة ووضحت في المرحلة التالية فإن كثيراً من الكاتبات

– المشهورات اللاتي لمعت اسمائهن فيما اعرف من قرب لا يكتبن وانما يكتب باسمهن .

ومن الكتب المزورة المنسوبة الى المرأة ، ذلك الكتاب الضخم الذي نشر عام ١٩٢٨ باسم [السفور والحجاب لنظيره زين الدين] فقد تبين من بعد ان هذا الكتاب من تأليف مجموعة من المبشرين والمستشرقين . وأنه قصد به ان يصدر باسم فتاة مسلمة لينال اهمية واسعة وصدى كبيراً وقد دخل فعلاً هذا على كتّاب مصر امثال عباس العقاد وعلي عبد الرازق واحتفلت به دوائر كتّاب التغريب وجريدة الاهرام في مصر فمدحوا كاتبته ورفعوها الى ذروة المرأة الكاتبة وأن هاجم العقاد آراء الكاتبة . وقد كشف هذه الحقيقة «مصطفى الغلاييني » الكاتب العربي اللبناني الذي عاصر هذه المعركة وشاهدها بنفسه .

والسؤال الآن : ما هي خصائص الادب النسوي في هذه الفترة .

يمكن القول على اطلاقه بأن « الطابع النسوي » ضعيف في أدب هذه الفترة ويغلب عليه التأثر بأدب الرجال مع ضعف اللمسات النسوية العميقة ويرجع ذلك الى غلبة الاتصال ببيئات الرجال .

ومن ذلك ان بعض كاتبات قد اقتحمن ميدان السفر والرحلة . ولكنهن لم يكتبن من الآثار ما يصور هذه الرحلات على نحو تظهر فيه شخصية المرأة واضحة جلية . وان كاتباتنا لم يكتبن ذكريات الطفولة والشباب ولم يصورن عواطف الامومة والتجارب الزوجية .

وفي هذه الميادين تبدو خصائص الأدب النسوي :

غير أن الاصالة والطابع النسوي الحق يبدو واضحاً في كتابات ملك حفني ناصف وجميلة العلايلي ووداد سكاكيني على نحو صريح . وعندي أن « مي زيادة» – لولا هذا الطابع من الدعاية التي حفت به آثارها – ما بلغت هذا المبلغ من الشهرة التي بلغتها نتيجة لصلاتها الشخصية بعدد من كبار رجال الصحف ولحرص الصحافة السورية – ذات السلطان الواسع في ذلك الوقت – على ابرازها

على هذا النحو والانتفاع بها في قضايا الصراع بين الثقافتين والنفوذين الفرنسي والانجليزي .

ولقد اعانت الصحافة على ظهور عدد كبير من الكاتبات ، ولما كان الادب النسوي قد بدأ من الصحافة ولم ينشأ متحرراً عنها لذلك فقد لحقته عيوبها في الاسلوب السطحي ومظهر السرعة والبعد عن العمق والاسراف في النقل من الادب الأوربي . ولعل مرجع ضعف الطابع النسوي هو سيطرة الرجل على العمل الفكري عامة .

ولعلنا لا ننكر على الادب النسوي بروز طابع الحزن والحرمان والنظرة المتشائمة والدعوة الى تحرير المرأة وتعليمها ، والى بيان مكانة المرأة في المجتمع والى الكشف عن مشاعرها وعاطفتها على نحو فيه ايمان بالله وارتفاع وتسام عن المادية وذلك في هذه المرحلة التي تؤرخها بالذات .

تطور الصحافة العربية
واثرها في الادب العربي المعاصر

كانت « الصحافة العربية » ولا شك عاملاً هاماً في الحياة الفكرية والسياسة والاجتماعية في العالم العربي . وكان لها اثرها الواضح في قضايا الأمة العربية الكبرى في هذه المرحلة وهي قضايا الحرية والوحدة ومقاومة الاستعمار والنفوذ الاجنبي والاستبداد الداخلي . وفي وضع قواعد الاساس للفكر العربي المعاصر .

واليها يعزى الاثر الكبير في تطور الادب العربي من ناحيتي الاسلوب والمضمون فقد حررته من السجع والزخرف والاسهاب وامدته بالموضوعية والقضايا وفتحت امامه الآفاق فأذاعته ونشرته على نحو لم يكن يتحقق عن عن طريق الكتاب المطبوع . وكان لها اثرها في ابراز عدد كبير من الادباء لمعت اسمائهم عن طريق الصحف وكذلك كان للصحف اثرها في معالجة وتطوير قضايا الفكر والسياسة والاجتماع والاقتصاد .

وقد ارتبطت الصحافة بالادب والفكر ارتباطاً بعيد المدى عميق الاثر في التطور الثقافي الذي شهده العالم العربي خلال هذه المرحلة .

وليس من شك كانت الصحافة في اول امرها خادمة للحكام والولاة والنفوذ الاجنبي ولكنها استطاعت مع الزمن ان تفلت وان تقوم بايدي الأحرار وان

تحمل الظلم والاضطهاد وان تسقط لتقوم مرة اخرى . وفي معركة حامية ممتدة. وليس من شك كانت هناك صحافة حرة وصحافة عملية وقد قاست الأولى وتمددت الثانية واضطرت تحت ضغط الوعي أن تجري مع تيار الحرية . وكانت الصحافة في العالم العربي كله بعد الحرب العالمية الأولى صحافة حزبية مرتبطة بالاحزاب التي تحكم . وكانت هناك صحف قليلة صامدة تحمل لواء الوطنية الحقة. ولذلك لم تعش هذه وتلك طويلاً .

ولا شك كانت الصحافة العربية فناً جديداً من فنون الفكر والاعلام الجديدة التي عرضها العالم العربي في العصر الحديث .

وقد مرت منذ نشوئها الى الحرب العالمية الثانية في ثلاث مراحل :

١ – صحف صدرت في عهد العثمانيين .

٢ – صحف صدرت في عهد الحماية (البريطانية والفرنسية) .

٣ – صحف صدرت في عهد الاستقلال .

وكانت تمثل ثلاث جبهات :

● صحف موالية للحاكم ● صحف موالية للاستعمار ● صحف وطنية .

وقد عاشت الصحف الموالية للحكام والاستعمار – وهي ما اطلق عليها (الصحف المحايدة) او المعتدلة او المستقلة . واستطاعت ان تسيطر وتستمر وتنمو بينما قاست الصحف الوطنية الاضطهاد والمصادرة والالغاء . وواجه محرروها السجن والنفي والاضطهاد .

وقد فرضت في كل بلاد العالم العربي القوانين المصادرة للحريات . وكان الحكم العثماني يقاوم كلمات : الحرية والشورى ويمنع الحديث القومية وسيادة الشعب .

وفي عهد الحماية قاوم الاستعمار دعوة الاستقلال والحرية وحاول بث آرائه ومذاهبه في التغريب والتجزئة والانفصال وإذاعة الدعوات المتضاربة لخلق جو من البلبلة والقلق .

وفي ضل عهود الاستقلال عملت الصحف لحساب الاحزاب – وكانت الحكومات تؤيد الصحافة الموالية وتقاوم الصحف المعارضة .

وكان للاستعمار صحافته الموالية له في مختلف انحاء العـــالم العربي . وكتابه الذين دأبوا على نشر نظريات الولاء للاستعمار ومحاولة خلق صداقة معه . ونشر كلمات الاعتدال والحياد والتجزئة وتأييد نزعات الفرعونية في مصر الاشورية في العراق والفينيقية في لبنان والبربرية في المغرب .

كما أيدت الصحف المحايدة المعتدلة الموالية للاستعمار نظرياته في التعليم وجعله وسيلة لتخريج الموظفين وتحريمه على الطبقات الفقيرة . والدعوة الى اللغة العامية واللهجات المحلية وتمجيد الآثار والحضريات المرتبطة بالحضارات البائدة والتاريخ الاقليمي ودعمه ومحاربة اللغة العربية من اطراف خفيــة ومحاولة بلبلة الخواطر بنظريات متعددة كالمحلية والاسلاميــة والعربية والشرقية . وتمجيد آثار الغرب وكتابه وزعمائه وثقافته ، والتهوين من امجاد العرب والاسلام واللغــة العربية والتاريخ والتشكيك في هذا التراث عن طريق اذاعة النظريات العلمية والمتعصبة وإثارة اسباب الخلاف المذهبي بين الطوائف المختلفة للدين الواحد (السنة والشيعة في العراق) وبين الأديان المختلفة (المسلمون والنصارى في مصر) ثم بين المذاهب المختلفة (البربر والعرب في المغرب) .

وقد استخدم الاستعمار بعض الانتهـــازيين في العمل الصحفي ووجههم الى خدمة نظرياته واهدافه وأمــدهم بالمساعدات السخية واصطنع كتّاباً معدومي الضمير وأبرزهم وسلط عليهم الاضواء فمضوا يتلونون مع كل عهـــد وظرف . ويحتفظون بهدفهم الاساسي خفياً وراء مظاهر الوطنية والدعوة الى الحريـة . كما أغرى الاستعمار الكتّاب الاحرار بالمـــال وأرهبهم وهددهم بالقتل ليحطم تصميمهم او يشتري كراماتهم او يبعدهم عن الصحف بالحبس والتشريد والمصادرة.

* * *

غير أن الصحافة العربية استطاعت رغم هذه القيود ان تشق طريقهـا الى هدف الحرية والدستور والوحدة ووضع اسس جديدة : سياسية اجتماعية للحياة الفكرية في العالم العربي .

واستطاعت الصحف في فترات الحرية ان تقاوم الاستعمار ومذاهبه ودعواته

وان تؤيد الحرية وأن تكشف عن كثير من آثار الاحتلال وان تعالج مشاكل الاقطار التي تصدر فيها وكلها مشاكل متضاربة تتعلق بالسياسة والمجتمع واللغة العربية وبالتعليم والنزعات الاقليمية والتفرقة الجنسية والبغاء .

كما استطاعت الصحافة ان تتطور من البدائية الى الطباعة الفنية . وتحولت من الاحجام الصغيرة الى الاحجام الكبيرة . وتطورت من صحافة الرأي الى صحافة الصورة والخبر وتحولت المقالات من الصفحات المطولة الى الأعمدة وانصافها . ومن البلاغيات والزخارف اللفظية والاسهاب الى الاسلوب التلغرافي والبعد عن المقدمات .

وكانت الصحف المصرية في مقدمة الصحف العربية واكثرها توزيعاً في العالم العربي وقد حملت لواء خدمة كل الدعوات التي عرفت في الشرق من حرية ووطنية ودستورية وقومية عربية وجامعة اسلامية وتجزئة ودعوات فرعونية وصهيونية .

وكانت الصحافة المصرية تحت سيطرة الاستعمار البريطاني منذ عام ١٨٨٢ حتى عام ١٩٢١ ثم وقعت في ظل الحكم الدستوري تحت سيطرة الوزارات المتوالية التي كانت تصادر الصحف المعارضه وتحاكم محرريها .

وقد تمتعت الصحافة اللبنانية بحرية واسعة بالنسبة لصحف سوريا التي كانت خاضعة للمكتوبجي (الرقيب العثماني) ثم خضعت الصحافة في سوريا بعد الحرب الى سلطة الاستعمار الفرنسي . وكان الفرنسيون يعطلون كل صحيفة لها طابع وطني او عربي او مناهضة للأنتداب .

وفي العراق ظلت الصحافة خاضعة لأحكام قانون المطبوعات العثماني حتى عام ١٩٣١ ولقيت الصحافة في العراق ما لقيت الصحافة في مصر من تعطيل واضطهاد ومحاكمة . وقاوم نوري السعيد طوال فترات حكمه الصحافة الوطنية وعطلها وحاكم محرريها .

وقد صدرت أوائل الصحف في العالم العربي على الترتيب التالي :

الوقائع المصرية	(مصر)	صدرت عام ١٨٢٨
المبشر	(الجزائر)	صدرت عام ١٨٤٧

صديقة الأخبار	(لبنان)	صدرت عام ١٨٥٨
الرائد التونسي	(تونس)	صدرت عام ١٨٦٠
سوريـــة	(سورية)	صدرت عام ١٨٦٥
طرابلس الغرب	(ليبيا)	صدرت عام ١٨٦٦
الزوراء	(العراق)	صدرت عام ١٨٦٩
صنعاء	(اليمن)	صدرت عام ١٨٧٩
المغرب	(مراكش)	صدرت عام ١٨٨٩
الغازية السودانية	(السودان)	صدرت عام ١٨٩٩
حجـــاز	(الحجاز)	صدرت عام ١٩٠٨

ومعظم هذه الصحف الاولى كانت صحفاً رسميه اميرية ، ثم ظهرت بعـــد ذلك صحف يملكهـــا افراد ، وانقسمت الصحف بين صحف الدولة والصحف المحايدة وصحف الرأي ، وقد مثلت الصحف في أول الأمر اتجاهات وتيارات مختلفة . ثم لم يلبث بعـــد ان اعلن الحكم الذاتي في كل دولة أن ارتبطت بالاحزاب السياسية .

وقد واجهت الصحافة العربية مسائل هامة كبرى مواجهة متشابهة :

- الاستبداد العثماني
- الاحتلال والنفوذ الأجنبي .
- الدستور والحياة النيابية والأحزاب .
- المفاوضات في سبيل الاستقلال .
- قضايا البناء الاجتماعي الاقتصادي والفكري للدولة .

وفي المغرب العربي (ليبيا وتونس ومراكش والجزائر) قاست الصحافـــة طويلاً من سيطرة الاستعمار على كل مـــا يتصل بالفكر ، ولم تستطع ان تشق طريقها إلا بعسر شديد .

وفي أمريكا قامت صحافة عربية كانت حرة استطاعت ان تعبر عن آمـال

الشرق والأمـــة . واكتسبت ميزات الصحافة الأمريكية – كما يقول جرجي زيدان – من حيث طريق الاعلان وأساليب التركيب والتعبير وترتيب الأبواب والعناوين كذكرهم خلاصة المقالة في صدرها بصيغة المضارع .

وقد صدرت أول صحيفة في المهجر (كوكب امريكا) في نيويورك عـــام ١٨٩١ – يحررها نجيب عربلي وصدرت صحف عربيـــة في الولايات المتحدة والمكسيك والبرازيل وكولومبيا والارجنتين .

وقد بلغت خمسين صحيفة بينها صحف يومية في ٨ صفحات كبيرة .

وقد ربطت الصحافة المهجرية بين الجاليات العربية بها وبين الوطن العربي ، وحملت لواء أدب المهجر وطابعه الحرية وحب الوطن وإيقاظ الروح القومية .

كما صدرت صحف عربيـــة متعددة خارج العـــالم العربي : فأصدر رزق الله حسون (مرآة الأحوال) في انجلترا سنة ١٨٧٦ ندد فيهـــا بمبادىء السلطـة العثمانية وعمل معه جبرائيل دلال وامين الشميل وعبدالله مراش وخليل غانم ، وكانت دعوتهم هي إعادة الخلافة الى العرب .

كما صدرت صحف عربية اخرى في فرنسا وايطاليا .

الصحافة والسياسة
واثرها في الادب العربي المعاصر

ظهر الادب قطعاً قبـــل الصحافة . ولكن الصحافة اليومية كانت له وعاءاً جديداً زاد من انتشاره وتوصيله الى طوائف مختلفة من القراء . فقد كان الكتاب مقصوراً على طائفة قليلة من القراء . ربمـا تميزت بالثراء أو بارتفاع الثقـــافة الى مستوى عال . بينما جاءت الصحافة لتكون وسيلة اخبارية على مستوى الجماهير. وكان لا بد أن تحمل بين موادها مـــادة الفكر والادب وقد عنيت بها عنـــاية بلغت حداً كبيراً في بعض الاحيان .

اما دوافع الصحافة للعناية بالادب فقد كانت كسباً لجانب من القراء لا يعنى كثيراً بالمعارك السياسية او الحزبية . او اغراء القارىء بالشراء بتقديم فنون مختلفة من الكتابة هذا بالاضافة الى ان كتّاب المقــال السياسي كانوا في الأغلب ادباء قد فرغوا انفسهم في يوم من أيام الاسبوع لمراجعات الأدب والفكر والنقد.

كما عنيت الصحافة — وخاصة اليومية منها — بالشعر ومنحته مكانــاً هاماً في صفحاتها الاولى وكان هــذا الشعر مرتبطاً بالاحداث الهامة الكبرى . معنيـــاً باثارة المشاعر نحو هدف وطني او اجتماعي معين . بالاضافة الى قصائد المديح في الملوك والرؤساء في مناسبات الاعياد والمواسم .

وليس غريباً ان تعنى الصحافة الاسبوعية بالادب فذلك مجال واضح لهـــا اهتمت به منذ مطالع ظهورها . وفي الجنان والمقتطف والهلال . كان طابع الادب واضحاً من خلال دراسات التاريخ او العلم او السياسة العامة .

بـل ان الكتابات السياسية التي كانت تظهر كل يوم باقـــلام كتّـاب امثال مصطفى كامـل وابراهيم المويلحي وعلي يوسف وعبـــد العزيز شاويش ولطفي السيد في المرحـلة الاولى وباقلام هيكل والمـــازني والعقاد وطه حسين وتوفيق دياب وعبد القادر حمزه وحافظ عوض انمـا هي لون من الأدب السياسي فقد كانت مكتوبة باسلوب بليـغ ورصين . وكان الاداء العربي فيها واضحاً صريحاً.

ولكن مؤرخو الأدب العربي المعاصر على اجماع بأن الصحافة سيطرت على الأدب – واصطنعت الادباء كتّـابـاً لها فعاشوا يمزجون بين الادب والصحافـة والسياسة . واندمجت هذه الفنون كلها حتى اصبحت شيئاً لا يمكن تجزئته .

وقال النقاد ان الادباء مضوا في ركب السياسة والاحزاب . وان الصحافـة عملت اجيرة عندهما . وهذا صحيح الى حد ما . حتى ان المجلات الادبية التي اصدرتها الصحف السياسية كالبلاغ الاسبوعي والسياسة الاسبوعية كانتا تحملان طابعاً سياسياً . واستغلت كل منهما في ظروف اغلاق الصحف اليومية .

ولا يمنع هـــذا من ظهور مجلات اسبوعية تحررت من سيطرة السيـــاسة الى حد كبير كالرسالة والثقافة .

(٢)ولكن الصحافة مع هذا كانت ذات فضل على الادب . فقد احتضنته وقربته الى الرأي العام . ورفعت من اقدار الادباء .

وخلصت الأسلوب العربي من التقعر والتعقيد وادنتــه الى البساطة والسهولة فاصبح الادب مقروءاً من طبقات متعددة بعد ان كان مقصوراً في اسلوبه البليـغ على طبقة واحدة .

وبذلك اتاحت للكاتب عدداً كبيراً من مريديه . فضلاً عن أنها اتاحت له سرعة الاتصال بالناس في الاقطار البعيدة . وكان ذلك يتم في الماضي في بطء شديد بل ربما لم يتح لمؤلفات الكاتب ان تخرج من قطره الى الاقطار الاخرى .

كما اعان على معالجة كثير من القضايا الادبية والاجتماعية والفكرية على نحو شعبي يؤثر في المجموعات ويحركها ويحولها من رأي الى رأي. ويكشف لها زيف المؤلفين أو خطأ المخطئين . بينما ذلك لم يكن ممكناً عن طريق الكتاب . فضلاً عن أن الصحافة امدت الأدب بتيار الاتصال بالحياة . وخبراتها واحوالها ومشاكل المجتمع وقضاياه على نحو لم يكن يتيسر للأديب القابع في برجه العاجي.

(٣) ولكن الصحافة مع هذا كانت مؤثرة على الأدب . فقد نقلته الى ميادين السرعة والبساطة والايجاز بعد ان كان كثير الاناة . واعطت الاسلوب وضوحاً وخلصته من المقدمات . كما اعطت المعنى طابع الجرأة والمرونة . ولكنها في الوقت نفسه قد حالت بطابع السرعة دون الدرس العميق والاناة في البحث . واستخدام الحقائق وتعمقها . فالكاتب الذي كان يراجع موضوعه اياماً ويبحث له عن المراجع والاسانيد قد اصبح مضطراً امام ضغط المطبعة الهادرة التي تدور في وقت محدد الى ان يكتب من الذاكرة احياناً أولا يستكمل عناصر مراجعاته من ناحية أخرى فيؤدي ذلك الى القصور او الخطأ .

ولذلك فان أدبنا المعاصر كله او اغلبه على وجه التحديد ، إنما هو مطبوع بهذا الطابع . فقد نشر فصولاً في الصحف وجرى مساجلات على انهارها ولذلك لم يحظ بذلك القدر الكبير من الدراسة والمراجعة والاناة .

٤) ومن ناحية اخرى فان طابع السياسة في الكتابة والنقد والمساجلة قد انتقل بالطبيعة الى الأدب فحمل لونها العنيف وهجائها المرير وطابعها الذاتي فلم يكن معقولاً ان الأديب الذي يعمل في الحقل السياسي والذي ألف أسلوباً معيناً في النقد السياسي ان يتخلص منه في مقاله الأدبي.

وكان هناك ايضاً هذا الانصراف الواضح على الدراسات الأدبية والتجرد لها تحت ضغط العمل الصحفي السياسي الذي يأخذ الوقت كله . ويضطر الى متابعة الاحداث ومصاولة الأقران .

ولكني اعتقد ان الأدباء الذين عملوا في الصحافة والكتابة السياسية بقادرين لو اتيح لهم رزقاً موفوراً ان ينصرفوا عن العمل الصحفي . ذلك لأن الصحافة

اعطتهم شيئين هامين غاية الأهمية (١) الوصول الى اكبر عدد من القراء مما يحقق لهم التعرف بعدد كبير من مشتري مؤلفاتهم . (٢) الشهرة الداوية التي لا يمكن ان تتحقق عن طريق تأليف كتاب كل عام او حتى كل عدة شهور وذلك بكتابة الأسماء في الصفحات الاولى مقرونة بعبارات التقدير . وما يستطار حول هذه المقالات من نقد او ردود تزيد في ترديد اسم الكاتب وتشعر بمكانته لدى قرائه .

٥) ولكن الصحافة نفسها لم تكن رصينة دائماً ولم تجعل من رسالتها رفع القارىء اليها بل كانت تهدف الى هدهدته وتملقه . وقد ظهرت صحف كثيرة قدمت المبتذل والسخيف واستعانت بالأدب على غايتها فترجم لها من القصص النازل والمجوني وكتبت لها صفحات من الأدب المكشوف والقصص المثير ، وربما كانت هذه الصحف والمجلات جيدة الطبع بارعة في تغطية عملها هذا بطابع فيه شيء كثير من الاحترام للقارىء بينما اختفت هذه الفنون في تضاعيف الصحيفة.

٦) وقد اضطر الاتجاه الى الربح واتخاذ العمل الصحفي تجارة تهدف الى ارضاء القارىء للحصول على قرشه الى التهاون في اللغة العربية نفسها وفي المادة المكتوبة ومن هنا جاءت القضية الكبرى حول ما إذا كان الادب هو الصحافة . ذلك ان الصحف تتناول شئون الحياة والبيئة والعصر والمجتمع على نحو سريع غير متعمق وخفيف في اسلوب ادائه. وهي تفرض ذلك احياناً على الأدباء وهي تتجه احياناً الى تحسين شيء او تقبيحه تحت ضغط هواهاالسياسي او الاجتماعي، بينما يقف الفكر والأدب موقف الحرية في هذه المسائل ويقيم آرائه على وثائق واسانيد .

وهنا يبدو الفارق الواضح بين الصحافة وبين الفكر والادب ، فالصحافة تعطي المادة السريعة او (الخامة) التي يستطيع الأديب بعد ان يهضمها ويشترعها ان تتحول على قلمه الى فن له مقوماته ... ولذلك فان الكتابات الصحفية السريعة مهما وصفت بانها من الادب فانها (كتابات صحفية) لا يقبلها الأدب ، لانها لا تحمل عنصر الحياة او الاستمرار ، فهي طعام سريع ، او زهور مقطوفة، سرعان ما تذبل ، اما الأدب فآيته ان يعيش ولا يقضى عليه مرور الايام .

أصبحت تضم كل الألوان : الادب والاجتماع والاقتصاد او الطب ، وهي قطاع فكري يصور فكرة أو رأي ، ويمكن ان توصف بأنها فصل من فصول كتاب

ومن هنا يمكن القول بان الصحفي يمكن ان يكون اديباً ولكن ليس كل اديب بصحفي .

وربما كان للصحافة دخل كبير في ان تجعل الادب حرفة وتخفف من مفهومها كعقيدة او رسالة . فقد كان الاديب يكتب في الماضي وهو يستهدف غرضاً واضحاً صريحاً . في بناء الأمة وكيان المجتمع . فاذا استخدمته الصحافة بالأجر فقد فرضت عليه الموضوع والاتجاه والاسلوب . وخففت كثيراً من قوة رسالته . فهو لن يكتب الا الموضوع الذي يقترح عليه . او الموضوع الذي يتفق مع سياسة الصحيفة او جوها . ثم هو سيراعي مستوى القراء انفسهم . ولا مانع من أن يرضي رغباتهم في بعض الاحيان .

٧ – يمكن القول بان الكتابات السياسية هي ايضاً ادب فقد كانت بعيدة الاثر في توجيه الامة وساعدت على غنى اللغة . والاناشيد الثورية والخطب الحماسية للزعماء للسياسيين وهي كتابات سياسية تعد من اكثر جوانب الادب قوة وحياة .

ولقد كان اضطراب الحياة السياسية دائما حياة للادب وامداد له بمزيد من عناصر الحيوية والقوة . ذلك ان الادب يزداد نماء بالاحداث والصراع وتصلب الامور وليس من ضرر السياسة على الادب غير انها تسخر اقلام المنشئين وتستكره قرائحهم . وتنشر ذلك الطابع من العنف والهجاء في المساجلات .

* * *

ولقد نشأت المقالة أول الأمر في محيط الصحافة . وهي بديل المقامة القديمة في كتب التقليديين . وكان للصحافة الفضل الأول في إنشائها وتطورها . فقد كانت الصحافة في أول الأمر تجمع بين أمرين : الخبر والتعليق على الخبر . هذا التعليق هو المقالة ، وهي افتتاحية يمكن ان تكون نصف عامود او ربعه ، ويمكن ان تمتد الى عامودين أو ثلاثة ، وقد بلغت في بعض المرات صفحة كاملة .

والعبرة في ذلك بموضوعها واهميته . وكان الأصل في المقالة الموضوع السياسي، ثم والشرط ان تتناول موضوعاً مستقلاً وغالباً ما ترتبط بخبر او مناسبة .

والمقالة إحدى الوحدات الثلاث : القصيدة والقصة والمقالة . وقد بدأ ادب المقالة ضعيفاً مضطرباً حيث كان الاسلوب يخب في السجع والمحسنات البديعية والزخرف ، وكان تناول الموضوع يحتاج الى مقدمات ونتائج ، وصدور واعجاز .

ويمكن القول بأن فن المقالة بدأ بكتابات جمال الدين الافغاني وتلاميذه محمد عبده واديب اسحق وسليم النقاش وغيرهم. وقد سبقت ذلك كتابات رفاعة والشدياق وعبدالله ابو السعود وغيرهم في (الوقائع المصرية) ولكنها كانت غارقة في السجع ، لم تستوف اصول فن المقالة إلا في الربع الأخير من القرن التاسع عشر . عندما أخذ الاسلوب العربي طابعة الجديد في توصيل الفكرة . والتحرر من المقدمات والمداخل والاسجاع المتكررة ثم تطورت مدرسة المقال الى الى مرحلة جديدة بكتابات علي يوسف ، ومصطفى كامل ، وعبدالعزيز شاويش والمنفلوطي وسليم سركيس ورشيد رضا وخليل مطران ولطفي السيد ومحمد مسعود وفريد وجدي ولطفي جمعه . ولعل ذلك جاء في ظل نشأة الأحزاب السياسية والصحف المؤيدة لها المدافعة عن وجهة نظرها .

وكانت الكتابات في هذه تتمثل في لونين : لون وجداني يعني بالعبارة البليغة والمعنى العاطفي ولون عقلي يعني بالعبارة الموجزة البسيطة والمضمون الذهني .

ثم ظهرت طبقة جديدة في أوائل القرن العشرين تطورت بعد الحرب العالمية الأولى الى طابع واضح لادب المقالة يتميز بالعرض السريع الواضع والتعبير التلغرافي والتحرر من العبارات العتيقة القاموسية ومن الطابع العاطفي الفني ، ويتمثل هذا في طه حسين وهيكل والعقاد والمازني وسلامه موسى وتوفيق دياب والتابعي واحمد حافظ عوض وعبد القادر حمزه وعباس حافظ وامين الرافعي ومحمود عزمي وداود بركات وانطون الجميل .

وفي خلال هذه الفترة ظهر الاسلوب النسوي بكتابات ملك حفني ناصف ولبيبه هاشم ونبوية موسى والكاتبة مي ثم في المرحلة التالية جميلة العلايلي وامينة

السعيد وبنت الشاطىء ووداد سكاكيني .

وكان ابز فنون المقالة في هذه الفترة المقال السياسي او الافتتاحية التي كانت تمثل وجهة نظر الصحيفة او الحزب التابع لها . وقد امتد المقال الى الصحافة الاسبوعية والشهرية وتنوع في مجلات الجنان ١٨٧٠ والمقتطف ١٨٧٦ المشرق ١٨٩٨ الهلال ١٨٩٢ والضياء والزهراء ثم في مجلات السياسة الاسبوعية والبلاغ الاسبوعي والرسالة والثقافة والمكشوف .

وقد عرف الدكتور صروف بالاسلوب العلمي وعرف زيدان بالاسلوب التاريخي .

ومع ذلك فقد ظل الاسلوب الانشائي حياً وان تطور وتطعم بالفن الغربي ممثلاً في اسلوب طه حسين والزيات والرافعي والبشري . وهو الخط الذي سار عليه المنفلوطي من قبل .

وكانت المقالة السياسية ادب له طابعه الواضح من حيث اسلوبه العربي ومضمونه السياسي وقد جمع اغلب الكتّاب بين المقالة السياسية والمقالة الادبية ويمكن القول بأن اغلب الكتب الادبية التي اصدرها كتابنا في فترة ما بين الحربين انما كانت فصولاً نشرت في الصحف اليومية أول الامر . ومن هذا : الايام، ودعاء الكروان، وحديث الاربعاء لطه حسين، واوقات الفراغ ، وثورة الادب،وتراجم شرقية وغربية لهيكل ومطالعات ومراجعات وساعات بين الكتب للعقاد . وقبض الريح وصندوق الدنيا وحصاد الهشيم للمازني وفيض الخاطر لأحمد أمين وذكريات باريس والبدائع والاسمار والاحاديث لزكي مبارك وخطرات نفس لمنصور فهمي والنظرات للمنفلوطي وجميع كتب سلامه موسى بلا استثناء .

ويرى النقاد انه بالرغم من ظهور القصة وانتشارها ومنافستها للمقال فإن ادب المقالة ما زال هو عماد الالوان الادبية والفكرية والصحفية في الادب العربي المعاصر وقد اذاعته الصحافة وشجعته وعدلت اتجاهه فجعلته مختصراً سهلاً بسيط الاسلوب وما زال هو الاداة الوحيدة لاستيعاب جميع الدراسات

التاريخية والسياسية والعلمية والفنية والاقتصادية .

وعرف أسلوب المقالة بتعدد المظاهر . فقد عرفت النزعة الفكهة الساخرة في كتابات المازني وفكري أباظة وعبد العزيز البشري وبعض كتابات حافظ عوض .

وعرف العقاد بالأسلوب الجاد . وعرف أحمد أمين بإسرافه في الأعراض عن جمال اللفظ وعرف طه حسين الأسلوب الاستعراضي الواضح التكرار . وعرف الزيات وعبد العزيز البشري بالسجع والزخرف والازدواج . وعرف سلامة موسى بالأسلوب التلغرافي . وكان للأسلوب المهجري اتجاهه وطابعه وان ظل قاصراً على المجلات .

وقد دارت معارك متعددة حول الأسلوب وهل يكون بسيطاً أو معقداً وهل يكون الاهتمام باللفظ أو بالمعنى أولاً .

الأدب السياسي :

ولقد كانت المقالة السياسية أبرز فنون المقال وأبعدها أثراً في مجال الصحافة وكان لها دوي كبير في مجالات الطبقات المتوسطة ومـا دونها . نتيجة للتحزب السياسي والانتماء الى حزب معين ومهاجمة الحزب الآخر .

وكان طبيعياً أن يظهر أثر السياسة واضحـاً في الأدب وفي الصحافة على السواء فقد نشأ الأدب العربي المعاصر في احضان النهضة الوطنية وتطور معهـا وتأثر بالتحول الذي أصابها حين انتقلت من الهجوم على الاستعمار والاستبداد في أول الأمر ، الى الصراع الداخلي بين الأحزاب .

ومن هنـا كان الأدب السياسي جزء من العمل الأدبي لا ينفصل ، قوامـه مجاهدة المستعمر وتحرير الوطن وبنائه داخلياً .

وكانت صلة الكتّاب بالأحزاب والسياسة سلطة ضخمة في مجال النفوذ الأدبي وكانت الحكومات من ناحية أخرى تعمل على كسب الكتّاب لتأييد سياستها. وكان ذلك كسباً للأدب نفسه وللأدباء .

وقد يكون أثر السياسة واضحاً في اتجــاه الأدباء نحو كثير من القضايا وأحكامهم عليها وربمـا ظهر في مجاملة الشعب وإرضائه وعدم مهاجمته ونقده حرصاً على ولائه السياسي لجانب أو لآخر غير أنه من العمل السياسي ومن ناحية أخرى كان بعيد الأثر بالنسبة لعدد كبير من الكتّـاب في كشف جوانب خفيـة ومؤامرات ضخمة أرادها الاستعمار بالعـالم العربي ومن شأن العمل السياسي أن يزيد الكاتب قدرة على تصوره الأشياء وتعمقها والحكم عليها .

ويرى بعض الكتّـاب ان الجدل السياسي كان له الفضل في خلق مرانة ضخمة للسجال والمصاولة وان الصحف التي لم تكن تحظى بالتأييد الشعبي اضطرت الى الاهتمام بالدراسات الادبية لتستطيع الوصول الى كثير من قراء خصومها السياسيين.

وقد انقسم الكتّـاب في مجـال المقال السياسي الى معتدلين وهاجمـين . غير أن كتاب السياسة لم يفصلوا كثيراً بـين الحزبية والوطنية . وأن شهرتهم الضخمة قـد حصلوا عليها عن طريق الهجاء السياسي اكثر مما حصلوا عليها عن طريق الأدب . وان الكتّاب لم يفصلوا بين الخصومة السياسية والخصومة الادبية فاعتبروا الهجوم الادبي عليهم هجوماً سياسياً بل وتعلّوا اسلوب الهجاء السياسي في معارك الادب . وبذلك فان الادب العربي المعاصر في مجال الكتابة السياسية لا يمكن ان يكون سجلاً صحيحاً لتاريخ الادب والسياسة . لانه اما محاب غاية المحاباة ، او مختصم غاية الخصومة . ورائده في الحـالين العمل السياسي والهدف الفردي ، ولطالما اثنى كتّـاب في صحيفة حزب ما على اديب جديد فـكان من نصيبه ان يهاجمه كتّـاب صحف الحزب الآخر. وان بعض الصحف اعطت بعض الكتّـاب تبريزاً اكثر مما يستحق لو انه واجة الادبـاء من غير صلة بالسياسة او الصحافة .

كما اتخذ الكتّـاب في حالات كثيرة من اقــلامهم وسيلة للكسب والشهرة . وكتبوا ألواناً من المقالات او الابحاث لارضاء طوائف معينة ذات نفوذ او ذات مال .

وكان لبعض الكتّـاب في مصر مواقف ذاتية بالنسبة لمواقف عامة كموقفهم

من انهيار فرنسا وتمجيدهم لها ونظم القصائد في مدحها بينما كان ذلك من الناحية الوطنية العامة عملاً غير مقبول . فقد كانت فرنسا في ذلك الوقت تضرب سوريا بالقنابل .

وقد عاشت مصر سنوات طوالاً وقد تحولت اقلام كتّابها الى الأدب السياسي وعرفت به وكان هو كل ما يقدم من فنون الأدب .

اثر الادب المهجري

في الادب العربي المعاصر

يمثل الأدب المهجري قطاعاً حياً من الأدب العربي المعاصر . وبالرغم من أن الأدب المهجري قد انطوت صفحته باكرة فقد ظل أثره قوياً في أساليب ومفاهيم الأدب في مختلف أنحاء العالم العربي ، وتأثر به الكثيرون في مصر والسودان وتونس بصفة عامة والأدب اللبناني العربي بصفة خاصة .

فقد عمق الأدب المهجري طابع العاطفة ووسع آفاق الجوانب الوجدانية والشعرية وأكد الطابع الرومانسي في النثر ووسع التيار الإنشائي وغذاه بعد أن ظهر الأسلوب العلمي القائم على المعاني العقلية .

والمعروف أن الأدب العربي مر بفترة طويلة من أدب العاطفة والوجدان والحماسة ، وقد غذى هذا اللون زعماء الوطنية الذين كانوا يعملون على بعث الثقة في الأوطان بعد أن سيطرت موجة النفوذ الأجنبي ، وكان طابع الأدب في هذه الفترة عاطفياً حماسياً ، وما كادت هذه الموجة تنحسر تحت ضغط تيار الكتابة العقلية والأسلوب التلغرافي القائم على الإقناع والبساطة ، حتى برز الأسلوب المهجري ليعطي الأدب العربي لوناً جديداً في مجال النثر والشعر على السواء .

والواقع أن الأدب المهجري إنما يمثل صرخة الغريب المهاجر الذي تفصل بينه وبين وطنه قارات ومحيطات ، وهو في مغتربه لا يستطيع أن يموت ، ولا

أن ينفصل عن وطنه ، وهو في نفس الوقت متأثر بمحيطه الجديد ، وبتيارات الفكر والأدب في بيئته الجديدة ، حيث يقرأ لكتّاب الغرب ويتأثر بهم ، ويتفاعل مع مفاهيمهم ، وهو بين ما يحمل في نفسه من إيمان الشرق وروحه وعواطفه وبين ذلك الطوفان الهائل من الحضارة والمادية والنظريات القائمة على المنفعة والسيطرة والتسلط .

وقد اتسم الأدب المهجري بسمات واضحة :

(١) طابع القلق الصادر من الغربة أولاً ومن ازدواج المعاني الأساسية في نفوسهم مع المعاني الجديدة .

(٢) طابع التمرد ، الصادر عن الاحساس بالتحرر من القديم،ومن التقليد .

(٣) طابع الحرية : الحرية في قواعد اللغة وفي المعاني وذلك تحت تأثير الادب الجديد ، ونتيجة للقصور الطبيعي في بيانهم العربي .

(٤) طابع التقليد للأداب الافرنجية : والتأثر بشعراء المنثور في الادب الامريكي أمثال ودلت ويتمان .

ومن هنا يبرز ذلك اللون الجديد من غرائب الاستعارات والتشابيه والاضواء والظلال .

وفي ثلاثة ميادين تأثر الأدب العربي المعاصر بالادب المهجري :

- الأسلوب الحالم المجنح المهوم الرمزي .
- المفاهيم والمعاني المتحررة .
- مناهج النقد للغة والشعر .

١ – هذا الأسلوب الذي كتب به أمين الريحاني أول الأمر ، واتخذه جبران من بعد واشتهر به وتفوق في الاداء به ، وكان الريحاني من اوائل المهاجرين عام ١٨٨٨ وتلاه جبران ١٩٠٣ حيث اقام خمس سنوات في بوسطن ثم سافر الى فرنسا وعاد فاقام اقامة دائمة ، ثم ظهرت فكرة « الرابطة القلمية » .

وبدأ كتابها يحررون في مجلات الفنون والمسائح والهدى ومرآة الغرب وان لم يشترك الريحاني في الرابطة لخلافه مع جبران .

ويتميز الاسلوب المهجري في كتابات الريحاني بالتصوير والقدرة على تعمق الدقائق الصغيرة والقاء الألوان والظلال .

« ساعة الفجر الواقف بين القمر والشمس صفر اليدين ، يشيع نوراً ويبشر بنور، هي ساعة الفجر التي تتقدم الحادث الذي حدث كل يوم منذ كانت الارض وظل جديداً .

في مثل هذه الساعة اليتيمة الشريـــدة التي لا تعد من الليل ولا من النهار ، يتصل فجر حياة الانسان بفجر العالم فيحلم اذا كان نائمـاً الاحـــلام القريبة من الحقيقة ، ويصور الحقيقة ان كان مستفيقاً في اشكال تقرب من الاحلام .

وفي مثل هذه الساعة يفنى ويتجدد جزء كبير من الجنس الإنساني ويكتب القبر والمهـد اسميهما في سجل الله ويفترقان بعد اجتماعهما ، في ساعـــة التحول والتجدد ، ساعة تقبل الموت الحياة ...

وعندما تسلم جبران هذا الاسلوب الحـالم المهوم الرمزي صنعه خلقاً آخر ، وكان يكتب القصة ثم انصرف عنها الى الشعر المنثور ، فمنذ عـــام ١٩٠٣ أخذ ينشر في جريدة المهاجر مقالات من الشعر المنثور تحت عنوان « دمعـــة وابتسامة » حاول فيها – على – حد تعبير ميخائيل نعيمة – محـاكاة كمزامير داود ونشيد سليمان وسفر ايوب ومراثي أرميـا وتجليات أشعيـا وعظات الناصري ..

والواقع ان جبران تأثر بالكتاب المقدس والجملة الأجنبية ، وقد برز هـذا الأسلوب وانتشر في العالم العربي كله لما حمله من عبارات مهمومة ضبابية غامضة فيها خيال ورمزية ، ولعل النفوذ الاجنبي كان حفياً بهذا الاسلوب مشجعاً له ، ذلك لأنه كان متنفساً يبعد عن الواقع ويحلق في المجهول ويصرف عن جديـــة الفكر وعلمانية البحث وواقعية التفكير .

وقد هاجم الياس فرحـات من أحد أعلام المهجر الجنوبي – اسلوب جبران في قوله :

لغة مشوشة ومعنى حائر　　　خاف المجاز ومنطق متعثر

وقد تميزت عبارات الاسلوب المهجري بذلك الطابع القائم على خليط من الكناية والاستعارة والموسيقى والخيال والرمزية وتشبيه المحسوس باللامحسوس واستعارة المعنوي للمادي ، ومنها هذه العبارات :

[الذات المجنحة ، خمرة السنين ، حقل القلب ، دموع الشفقة ، مراشف الأرواح ، تكلمت الطبيعة بالسنة السواقي ، ابتسمت بشفاة الأزهار ، مرور أنامل النسيم على ثغر الوردة ، تبدد الرياح بقايا الغيوم ، فوق خط الشفق] .

٢- أما بالنسبة للمفاهيم والمعاني ،فقد اتسم الأدب المهجري بالجرأة والتحرر من قيود القديم ، والحنين الى الوطن والتأمل وحب الطبيعة والحرية الدينية بالهجوم على رجال الدين .

كما حاولت مفاهيم الأدب المهجري إغراق العالم العربي في الأوهام والصور والاشباح وإبعاده عن قضاياه ومشاكله — فقد كانت مفاهيم المهجرين الشماليين اقليمية ، وقد اختلف جبران مع الريحاني من أجل اتجاه الريحاني الى المعنى العربي .

كما شملت صوفية الادب المهجري معنى التحرر من القيم الانسانية والدينية على السواء .

كما حمل لواء التمرد متأثراً بنيتشه ، حد مهاجمة الاديان والسياسات والفلسفيات والقيم .

وقد هاجم امين الريحاني هذا الاتجاه في الأدب المهجري وقال انه قد هاجم ميوعة الادب الذي يكنه جبران ، وطلب اليه ان يتخلى عن هذا الطابع — من الميوعة — في أدبه ، فنفر عن ذلك .

وقد هوجم هذا اللون من الادب — الجبراني — فقال عنه الاب الزغبي ان أدبه يتميز بعدم الاكتراث للاخلاق في بحثه عن لذة الجسد وبالخروج عن قواعد الدين ، وقال انه ينبذ جميع الأديان ، وانه مدين بمذهب عبودية العقل والإرادة للشهوة الحيوانية ، وانه هادم للسلطة المدنية والسلطة الدينية والأسرة .

وقال بعض النقاد : ان النظرة الانسانية في جبران إنما هي محاولة لإقصاء

النزعة القومية واللفظية عليها ، فقد جاءت في وقت كان العالم العربي في حاجة الى الالتقاء على معاني الوحدة ، وقد حرص جبران على الدعوة الى إحياء مجد فينيقية والكلدانيين .

وكان هذا الطابع للأدب المهجري يمثل في ادب جبران ، ومن هنا وجد الاقبال والانتشار الشديدين .

وقد اهتم الغرب بهذا الأدب ونشره واحاط جبران بتقدير عجيب .

ولا شك كان ادب جبران قائماً على التهويمات والشكوك والتمرد على كل القيم وابراز الجنس وتغليب فكرة مادية الجسد ، وتحويل الصوفية النابعة من الزهادة والسمو الى معاني الروح ، الى هذا الطابع المادي في عبادة الشهوة ...

ولسنا ندعي هذا على جبران ولكنه مما جاء في رسالة له الى صديقه نخله « يقولون اني عدو الشرائع القديمة والروابط العائلية والتقاليد القديمة ، أنني بعد استفسار نفسي وجدتها تكره الشرائع التي سنها البشر للبشر وتبغض التقاليد التي تركها للاحفاد ... »

● وفي ثلاث ميادين اللغة العربية والاسلوب العربي وعامود الشعر هاجم الأدب المهجري مقومات الفكر العربي هجوماً عنيفاً . واعلن استهانته الدائمة باللغة البليغة وكتب جبران يتحدى « لي لغتي ولكم لغتكم » وكذلك جرى في هذا الاتجاه ميخائيل نعيمة ساخراً من النحو والصرف وهو يرى ان : « أنَّ وأخواتها وكان واخواتها وأحرف الجزم وأحرف النصب والممنوع من الصرف والاسماء الخمسة ونون التأنيث ولام (كي) وعين المضارع والاعلال والادغام والهمزة وحتى وغيرها من طلاسم حرفية ونحوية تنخزني بألف منخز وتقطعني بألف حربة » .

واعلن استهانته بالأسلوب في سبيل اداء المعنى وجوز الاسلوب العامي حتى بلغ بالعامية درجة العبقرية ، وقال ان الفكر عندهم أهم من اللغة واكثر ما يرتجى من اللغة ان تكون لباساً جميلاً ،

« غير انها ان لم تكن سوى اسمال بالية على فكر جليل فقد تحط من قــدر ذاك المفكر نوعاً ولكن لا تذهب بقوته » .

وقولــه :

يا ليت الفصحى تأخذ بعض القواعد من العامية ، وانه لمن الخطر الفــادح والجهل المطبق ان ننكر على العامية عبقرية تستمدها من حيوية الشعوب الناطقة بها وأهم مظــاهر عبقريتها عنده انها استغنت عن الاعراب في اواخر الكلمات وهاجم المهجريون الوراثيــات جميعها واعتبروها معوقات من أشياء ورثناها عن الماضي وفات وقت الأنتفاع بها ، على حد تعبير نعيمة ، ممــا أخرنا دهوراً عن بلوغ اهدافنــا .

وكما دعا المهجريون الى تحرير اللغــة من كل قيود الكتابة وتجويز الأسلوب العامي والإقليمي ، دعوا الى نظم الشعر مع تجاوز عامود الشعر والقافية .

ولا شك أن هذه المفاهيم جميعاً قد تدخل في روع النــاظر إليها لأول وهلة الاحساس باتجاه « الشعوبية » وقد كان انتشارها وإلحــاح النفوذ الأجنبي على إشاعتها وإذاعتها من عوامل إضعاف مقدمات الأمــة العربية الداعية الى اللغة العربية كقوة دافعة من قوى الوحدة والقومية .

٣ – في مجال النقد استحدث المهجريون آراء جريئة ، فهو عندهم – على حد تعبير نعيمة – خلق وإبداع ، وليس مجرد استحسان أو استهجان .

وان أول معالم القوة في الاداء عندهم هو « نسمة الحياة » : التي هي انعكاس داخلي من عامل الوجود .

والشعر كما يرونــه – يدخل الى النفس فيبعث أمــا القلق أو الدهشة أو الوحشة والغبطة أو الحزن أو الشك أو اليقين أو النشوة .

وهم يرون في الأدب معرض أفكار وعواطف ، ومعرض نفوس حساســة تسطر ما يقابلها من عوامل الوجود ، لا معرض قواعد حرفيــة ونحوية والقصد من الأدب بالافصاح عن عوامل الحياة كما تنتابنا من أفكار وعواطف .

وعندهم أنه لا الأوزان ولا القوافي من ضرورة الشعر ، وقال بعضهم إن

الوزن ضروري ، أما القافية فليست من ضروريات الشعر ، وحملوا حملة قاسية على العروض .

* * *

ولا شك أن أثر المدرسة المهجرية الشمالية كان أشد قوة من أثر المدرسة الجنوبية (العصبة الأندلسية) التي كان اتجاهها الى الشعر في الأغلب وتتسم مدرسة المهجر الشمالي بالتحرر من القديم وتغلب المعاني الانسانية العامة على المعاني القومية مع الجرأة في مفاهيم الدين واللغة والتحرر من قيودها .

أما المدرسة الجنوبية فهي أقرب الى الايمان بالعروبة والقيم العربية ، وغلبة المحافظة على الديباجة العربية والجزالة اللفظية .

ويشتركان في الحنين الى الشرق وتصوير تجربة الهجرة ، والدعوة الى الحرية السياسية .

ويمكن القول بأن الأدب المهجري قد أدخل الى الادب العربي تياراً واضحاً من الادب الامريكي ، الذي اتصل الى حد كبير بالادب الانجليزي ، ومن هنا كان التعاطف بين السائرين معاً في التيار السكسوني ، كما تأثر الريحاني بالادب الانجليزي ، وكذلك فعل جبران حين كتب باللغة الانجليزية وطلق الكتابة بالعربية نهائياً .

وهكذا أعطى الادب المهجري الادب العربي المعاصر هذه المظاهر ذات الدلالة في طبع الاسلوب العربي بالغيبيات والتهويمات مما صرفه حيناً عن الطابع العلمي العقلي الذي يقوم على الدليل والبرهان والتجربة ، وهو النهج الذي كان العالم العربي في حاجة اليه — إذ ذاك — لمواجهة ضغط النفوذ الاجنبي ، كما دفعه الى ازدراء مقوماته اللغوية والقومية والروحية بدعوته الى تغليب العامية والتوهان في المجال الانساني وازدراء القيم الروحية التي حاول الادب المهجري ان يعتبرها معوقات عن النهضة .

ويمكن القول أن الأدب المهجري في هذا الجانب قد عمق الدعوة الشعوبية

وغذاها بدون وعي منـــه الى المدى الخطير الذي يمكن ان تصل عندما ركز النفوذ الاجنبي على إبراز الادب المهجري واذاعته ، ومنحه انطلاقة قويـــة في العالم العربي .

* * *

ولكن هذا لا يمنع أن الادب المهجري أمـد الأدب العربي المعاصر أيضاً بمفاهيم عديدة في النقــد وفي مفاهيم النظم ، وفي تطعيم الادب العربي بفنون جديدة .

والى هذا يبرز مفهوم المهجريين في النظرة الى الفكر العربي وفي محاولة مزج روحانية الشرق بمادية الغرب . فقد بهرتهم الحضارة ولكنهم رأوا فيهـــا قوة مدمرة ، فدعوا الغرب الى روحانية الشرق .

يقول الريحاني « ان الشمس المشرقة علينا من المغرب اليوم هي والحق يقال شمسنا ، هي شمس ادابنا ، هي شمس مجدنا الغابر ، وانكم اذا نظرتم الى خارطة العالم ، ترون ان من البلاد ثلاثاً آخذة منه مركز القلب ، هذه البلاد قلب العالم. وفي هذا القلب أشرقت على اوربا في الاجيال الوسطى شمس العـــلم والفلسفة والأدب فأنارت ظلمات الاوروبين ، وخرجت بهم من مهامة الجهل والتوحش ، نحن أمام مدنية غازية منتصرة فعلينا إذاً أن لا نخضع اطلاقاً لهذا الفاتح القوي، وان نتمسك بما في مدينتنا من الخبز الروحي ، اني لا أجـــد في قوى الفكر والنفس وثمارها أصلح ولا انجع من الاداب ، وعلينا ان نجمع بين الاثنين (يقصد الأدب العربي والادب الغربي) فينشأ عن ذلك مدينة جديدة قوامهـــا الصناع والفنيون وشعارها الاخاء العام » .

وقال ان محاسن المدينتين : شجرة لا عربية ولا شرقية (الريحانيات جـ٢).

ولا شك ان هـذا المفهوم جميل في مظهره ، ولكنه حـــين يصبح حقيقة فيسقضي قضاءاً شاملاً على روح الامة العربية وكيانهـــا ومعالم شخصيتها التي تضيع في ظل سيطرة الفكر الغربي ذي القوى المادية الساحقة .

وكان الريحاني قد هجر اسلوبه الأول في الشعر المنثور وآثر اسلوب الترسل فبرع فيه .

وقد اختلف جبران والريحاني وهما أبرز دعائم الادب العربي في المهجر حول القيم، فقد كان الريحاني ينعي على جبران ونعيمة هدر طاقتها الادبية في فلسفات روحانية بينا الاوضاع العربية في حاجة ملحة الى الاصلاح – كما ذكر جورج صيدح في كتابه (ادبنا وادباؤنا في المهجر الامريكي) وعندما اتجه الريحاني الى الكتابة القومية، كان يركز هجومه على الاستعمار الفرنسي دون الانجليزي وقد اختلف معه ايليا أبو ماضي واتهمه بالتجسس للانجليز (ص ١٧٩ نعيمة – سبعون ج ٢)

والمعروف ان الريحاني حين قام برحلته الى العالم العربي كان يحمل توصيات الى القناصل الانجليز لمساعدته فقد كان يحمل لواء الدعوة الى حلف عربي يجمع ملوك الحجاز ونجد واليمن والادريسي في امبراطورية عربية واحدة، وكان هذا المشروع إذ ذاك من آمال بريطانيا لمواجهة النفوذ الفرنسي الذي كان يزداد في سوريا ولبنان .

ولا يمنع هذا من أن تكون كتابات الريحاني عن الرحلة الى الجزيرة العربية غاية في روعة الإداء والبيان وفناً جديداً يجمع بين ذلك الاداء الجميل مع رسم الصورة وإعطاء المشاعر النفسية في ذات الوقت ... وانه اول من زار هذه المناطق من الكتاب العرب، مؤمناً بأن الوحدة العربية لا يمكن ان تقوم إلا بعد ان يعرف بعضهم بعضاً .

وجملة القول في قيمة الاثر الذي تركه الادب المهجري في الادب العربي المعاصر انه حاول التحرر من اللغة العربية وهدم عامود الشعر، والاستهانة والسخرية بالقيم العربية والشرقية، واعطاء الأدب العربي طابع الكشف والعرى والاباحة، مع التهاويم والظلال، والتحلل من كل تبعية امام القيم او حركة تحرير الاوطان او دعوات البناء .

وليست الدعوى الإنسانية سوى تغطية للدعوة القومية ، فضلاً عن الهروب من الواقعية والإيجابية والالتجاء على الاقليمية الضيقة ، وتحويل المعاني الروحية الى الاباحة والجنس .

وفي نفس الوقت أعطى روح الجديد والإشارة في محـــاولة لتطعيم الأدب العربي بالحرية والجرأة في الاداء والمضمون معاً .

أدب الرحلة
في الأدب العربي المعاصر

هـــذا قطاع من الأدب العربي خصب واسع وعميق كتب فيه عشرات من الأعلام والمفكرين والباحثين . فقد تطلع المفكرون العرب منذ مطـالع النهضة الى أوروبا وأمريكا واستحثوا الركب لزيارة لندن وباريس ورومـــا ونيويورك وغيرها في رحلات للعلم أو للثقافة أو للمشاهدة .

وليس فن « أدب الرحلة » جديد في أدبنا العربي المعاصر وإنما هو لون قديم عرفه الأدب العربي وإن كان قد أخذ في أدبنا المعاصر طابعاً جديداً هو صورة التعبير النفسي ورسم الأثر العاطفي والوجداني للكاتب في هذه الرحلات .

وقد بكرت هـــذه الرحلات مع بواكير أدبنا العربي المعاصر في مرحلة اليقظة . ومنذ عـــام ١٨٣٠ بدأت رحلة « رفاعة الطهطاوي » الى باريس وفي خلال هذه الفترة توالت الرحلات وانقسمت الى ثلاث أقسام .

(١) القسم الاول : رحلات كثيرة أصحابها وصدرت في كتب ومعلقات مستقلة .

رفاعة رافع الطهطاوي	: تخليص الابريز في تلخيص باريز	١٨٣٠
أحمد زكي باشا	: السفر الى المؤتمر	١٨٨٢

فارس الشدياق	: الواسطة في أخبار مالطة	١٨٨٤
» »	: كشف المخبأ في فنون أوروبا	»
حسن توفيق	: الرحلة الى المانيا	١٨٨٧
محمد شريف	: رحلة محمد شريف الى أوروبا	١٨٨٨
عبدالله فكري	: إرشاد الالبا	١٨٨٩

وما أن استهل القرن العشرين حتى توالت هـــذه الرحلات أيضاً في مختلف أنحاء العالم العربي .

أحمد زكي باشا	: الدنيا في باريس	١٩٠٠
محمد فريد	: من مصر الى مصر	١٩٠٢
محمد لبيب البتانوني	: الرحلة الحجازية	١٩١٠
» » »	: رحلة الأندلس	١٩٢٨
محمد ثابت	: رحلات متعددة بدأت عام ١٩٢٦ وزار بها آسيا وأفريقيا وأمريكا وأستراليا .	
امين الريحاني	: ملوك العرب	١٩٢٤
زكي مبارك	: ذكريات باريس	١٩٣٢
» »	: وحي بغداد	١٩٣٨
شكيب ارسلان	: الحلل السندسية في المرحلة الاندلسية	
» »	الارتسامات اللطاف في خاطر الحاج الى أقدس مطاف	١٣٠٠ هـ
محمد حسن هيكل	: ولدي	١٩٢٦
» » »	منزل الوحي	
حسن فوزي	: سندباد الى الغرب	
» »	: سندباد عصري	
احمد فريد رفاعي	: رحلة الى اليمن	
ابراهيم عبدالقادر المازني	: رحلة الحجاز	١٩٣٠

احمد عطية الله : لندن
عبد الوهاب عزام : رحلات
محمد كرد علي : غرائب الغرب 1922
مؤيد العظم : رحلة في بلاد العرب

(٢) القسم الثاني : رحلات نشرت في الصحف ولم تجمع في مؤلفات :

داود بركات : رحلاته الى سوريا ولبنان
بنت الشاطىء : رحلاتها الى اسبانيا واوروبا
محمد فريد : رحلته الى الجزائر ١٩٠١
احمدفهمي العمروسي: رحلته الى مراكش ١٩٢٢
(مجلة الرابطة الشرقية — ١٩٣٠)
امين سعيد : رحلات الى العراق (البلاغ — نوفمبر ١٩٣٣)
منصور فهمي : فصول عن الرحلة من (خطرات نفس)
لطفي السيد : فصول عن الرحلة من (المنتخبات)
فتحي رضوان : فصول عن الرحلة من (حقائق واحلام)
عزيز المصري : رحلات الى ايران وسوريا والعراق
(السياسة الاسبوعية) ١٩٢١
سامي جريديني : وحي خيال شاموني
أمير بقطر : شلالات نياجارا
محمود عزمي : رحلات الى سوريا ولبنان (السياسة الاسبوعية)
محمد رشاد : رسائل مصري من أوروبا
« « : المرسيليات (الأهرام) فبراير ١٩٣٢
محمد لبيب البتانوني : من العالم القديم الى العالم الجديد ١٩٢٧
طه حسين : في الصيف الى باريس ٨ ديسمبر ١٩٢٨ (السياسة الاسبوعية)
محمد علي (الأمير) : رحلاته الى أمريكا واليابان

محمد لبيب البتانوني : من مصر الى القطب الشمالي (اللواء — ٥ أغسطس ١٩٠٧) .

(٣) القسم الثالث : رحلات قام بها أصحابها ولم تكتب .

عبد العزيز شاويش (أوروبا) عبد العزيز الثعالبي (الهند والعالم الاسلامي) جمال الدين الافغاني (باريس ولندن) محمد عبده (روما والمغرب) أحمد شوقي (الأندلس) .

* * *

وقد تطور فن كتابة الرحلة مع تطور الأدب العربي . وخروجه من مرحلة التقليد والزخرف الى مرحلة التعبير الدقيق وتغليب المضمون على التعبير . أما رسم الصورة فقد كان في أول أمره ساذجاً بسيطاً ، هو عبارة عن تسجيل متصل للأحداث مع توالي الأيام ثم تطور فأصبح من بعد تصويراً للمشاعر من خلال الوقائع .

(١) فرفاعة الطهطاوي قد رسم في كتابه صورة كاملة لرحلته عرض فيها لحياته في باريس ولحياة باريس نفسها . وكان شيخه حسن العطار وقد وجهه الى أن يسجل كل ما يقع له في رحلته من الأمور الغريبة وان يقيده ليكون نافعاً لكشف القناع عن معالم تلك البقاع ، يقول : « فلما رسم اسمي في جملة المسافرين وعزمت على التوجه أشار علي بعض الأقارب والمحبين لا سيما شيخنا العطار فإنه مولع بسماع عجائب الاخبار والاطلاع على غرائب الآثار أن أنبه على ما يقع في هذه السفرة وعلى ما أراه وما أصادفه من الأمور الفردية الغريبة والأشياء العجيبة ، وأن أقيده ليكون نافعاً في كشف القناع عن محيا هذه البقاع التي يقال فيها أنها عرائس الأقطار وليبقى دليلاً يهتدي به الى السفر إليها ظلاب الأسفار خصوصاً وانه من أول الزمن الى الآن لم يظهر باللغة العربية على حسب ظني شيء من تاريخ مدينة باريس . كرسي مملكة الفرنسيس ولا في تعريف أحوالها وأحوال أهلها ... »

والواقع أن رفاعة استطاع أن يرسم الصورة وأن يصور مشاعره ازائها فقد

كان طموحـاً متطلعاً الى المجد ، وكان يتمنى أن يرى بلده على النحو الذي رآه في باريس .

وبالرغم من أن هذه الرحلة هي أولى الرحلات في الأدب العربي المعاصر فانها تعد بحق قريبة من الاسلوب الفني الذي يجمع بين الصورة والعاطفة ولا يؤخـذ عليها انـه كتبها على هيئة اليوميات في بعض فصولها مـع ضعف الأسلوب واضطرابه .

ولكنها على كل حال قد رسمت صورة حية نابضة لما رآه رفاعـة في رحلته خلال خمس سنوات .

* * *

(٢) أما احمد زكي في رحلتـه (السفر الى المؤتمر) ، فانه كان يكتب رسائله هذه بين حل وترحال تطوح بـه الأسفار ، ولا يستقر له قرار ، وليس لديه من الوقت ما يكفي للمراجعة وإعادة النظر « كنت آخذ على نفسي قبـل السفر ان أمضي نهاري في التنقل من مكان الى مكان ، اصعد الى أعالي كل مدينة نزلت بها ، وأدخل في جميع آثارها ، وأطوف كل شوارعهـا ، وأزور كافة متاحفها . وانا أنظر الى الأشياء بعيني مصري بحت ، ينفعل بانفعال المصريـين ويكتب للمصريين ، فلم أعبأ بقول مصنف غربي ، ولم ألتفت الى نبـأ مؤلف عربي ، إلا حينما تدعو الضرورة الى تحقيقات جغرافيـة او علمية . لم يكن لي معتمـد في استكناه الحقائق واستجلاء الماهيـات ، سوى شعوري المصري الخالص من أثر الشوائب والاستفسار ، ممن يوثق بعلمـه وخبرته من أهـل هاتيك الديار .. »

وأحمد زكي هو الذي يتشاءم للسفر يوم الجمعـة — ويوم ١٣ من الشهر ، ثم يعود فيسخر من هذه المخاوف ويقول لنفسه : « دعها سماوية تجري على قدر.. » وإذا هو يسافر ويعاود السفر ، ومن وراء رحلاته هـدف ، فهو يتصل بمؤتمرات المستشرقين ، ويقابل اعـلام الفكر ، ويزور الأندلس ، ويمر بمكتبات اوروبا ومتاحفها ، باحثاً عن الكتب منقباً ، ولكنه لم يكتب غير رحلتيه الأوليتين ،

ثم توقف عن كتابة الرحلة .

ولا تعطي رحلتيه الا جانباً ضئيلاً من مشاعره وأثر الرحلة في نفسه ، فقد صور كل شيء رآه على هيئة يوميات أو لوحات ، ولكنه لم يعطها مشاعره النفسية ، وان أعطاها الأرقام والوقائع التاريخية .

(٣) أما فارس الشدياق فهو ايضاً في رحلته الى مالطه أو اوروبا يرسم صوراً سريعة عابرة مقارناً بين ما يراه في أوروبا وما هو موجود في الشرق .

يقول : « كنت في عنفوان شبابي وجدة جلبابي وأزهار سني وازدهار ذهني لهجاً بالسفر والاغتراب والترحل عن الوطن والأصحاب ، الى بلد ينضر فيه غرس وتطيب فيه نفس . وأقتبس فيه من مصابيح العلم قبساً ، وألقى — اذ الدهر لي موحش — خليلاً يصادفني مؤنساً ، حتى أدتني أعمال حابطة الى جزيرة مالطه .. وظل خاطري حائماً وقلبي هائماً بسفر طريف الى ان مكنتني التقادير المكنة بعد لبثي على تلك الصخرة الدرنة نحو اربعة عشر سنة من السفر الى بلاد الانكليز المتمدنة ، فاغتنمت تلك الفرصة عجلاً . وظننت انني أدركت املاً . وعولت على ان اشفع تأليف الواسطة برحلة يعظم وقفها ويعم نفعها ، فصرت أقيد ما عن لي من الخواطر في وصفهم وسنح .. »

(٤) أما الشيخ محمد بيرم الخامس في « صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار » فقد كتب رحلة طويلة طاف بها عدد كبير من بلدان أوروبا وافريقيا . زار تونس وايطاليا وفرنسا والجزائر ، وانكلترا ومالطة ومصر والحجاز وجزيرة العرب وغيرها يقول: « جبت بحاراً وقفاراً ومدناً وأمصارا ، وساعفت الوسائل على الوصول الى مشاهدته من العمور ، ورأيت بعيني البصر والبصيرة أموراً عجيبة خطيرة، أحببت نظمها في عجالة حفظاً لها من الاهمال. »

وقد صور محمد بيرم كيف بدأ رحلاته من أجل البحث عن العلاج بعد أن « ابتلى بمرض أعيى علاجه الأطباء » فأشير عليه بالسفر لأجل هذا الغرض وقد ضمن رحلته هذه بيانات تاريخية وإحصائية غاية في الافاضة والتوسع كما صور أغلب الأقطار وعني بناسها ومصانعها ومدارسها ومتاحفها فأفاض في وصفها ،

على نحو علمي ولكنه كان كغيره من الرحالة لا يصور مشاعره ازاء الأحداث إلا في النادر القليل . وتبلغ صفوة الاعتبار ٦٣٨ صفحة في أربعة أجزاء .

(٥) أما عبدالله فكري في كتابه [إرشاد الألبا الى محاسن أوروبا] وهو مذكرات رحلته الى مؤتمر المستشرقين في استوكهلم التي خلفها لابنه أمين فكري الذي كان معه في الرحلة، يصور قصة السفر من مصر الى أوروبا وزيارة برنديزي وتريستا وفينيسيا وميلانو ولوسن وباريس حيث أمضى بها ثمان عشر يوماً وزار معرض باريس وبرج إيفل ثم قصد الى لوندره وزار هولندة وليدن وأمستردام وكولونيا وكوبنهاجن ومالمو في السويد والنرويج ثم زار استوكهلم . وتبلغ ألفي صفحة . وهي ساذجة الأسلوب يقوم العرض فيها على أسلوب المذكرات :

« سار بنا الوابور في ميعاده وأخذنا نبتعد تدريجياً عن الأرض المصرية وكنا نرى في أنفسنا التأثر من مفارقة الديار وان كانت لنا شدة رغبة فيما نقصده من البلاد .

وحين كنا في الميناء إذا الهواء خفيف والموج غير عنيف ، وسير الوابور هين ، والبحر لين ، فلما خرجنا من الميناء ومخرت السفينة في الماء ، كبر التفاح الموج واشتد نفخ الهواء ، ولكن لم يكن مفرطاً ، وتوالى اضطراب الباخرة ، وإن كان متوسطاً لكن لوقوع ذلك فجأة بدهت الركاب بادىء بدء من غير تراخ برهة ريثما يتعودون على البحر .

ثم في صبح يوم الثلاثاء صار البحر ساكناً والريح ليناً ، فظهر من الركاب من استكن في خبايا الزوايا وغص بالناس سطح الوابور كأنهم في يوم النشور .

ومررنا بين جزاير (كريد) فلما تجاوزنا حدود تلك الجزائر ، وغابت عن النواظر ، حتى رأينا (برنديزي) فوصلناها ، ثم (تريستا) فدخلناها ، ولبثنا بها برهة تفرجت فيها على قصر (ملسيميليان) وما به من المناظر الحسان ، والمظاهر البديعة الشان ، ثم سرنا بباخرة اخرى في فينيسيا ، من بلاد ايطاليا ثم سرنا بوابور البر الى ميلانو من ايطاليا فبتنا بها ليلة .

وقد رأينا أثناء طريقنا من المناظر البديعة وجمال الصنعة والطبيعة ، ولا سيا

في جبل (سان جوتار) وما في بلاد السويسرة من الأنجاد والأغوار ، والبحار الكبار والقرى والديار ، ما يدهش الناظر ويستغرق الخاطر .. »

وهكذا يمضي عبدالله فكري الذي كان في عصره (امام الانشاء وسيد البلغاء) في تصوير رحلته من أجل « وقوف ابناء وطني على ما يستوقف النظر من محاسنها ، وعلى ما صرفه أهلها من الهمة في الاعتناء بشؤونها ، حتى وصلت من الثروة والرفاهية الى ما وصلت اليه ، فإن معرفة أحوال الأمم وما هم عليه من الحضارة والتقدم والعمران والتمدن ، ادعى الى اقتفاء أثرهم طلباً للاصلاح ورغبة في النجاح .. »

وصور عبدالله فكري ، انعقاد مؤتمر المستشرقين وما ألقي فيه من أبحاث لزملائه العرب : محمود شكري الألوسي الذي أحرز جائزة البروفسور نولديك، وبحثه عن ابطال رأي القائلين بتعويض اللغة العربية الصحيحة باللغة العامية في الكتب والكتابة ، وابحاث زملائه محمود عمر وحمزه فتح الله الذي كان بحثه عن حقوق النساء في الإسلام .

(٦) أما رحلة حسين توفيق الى المانيا ، فتصور رحلة عالم انتخبته نظارة المعارف معلماً للغة العربية في المدرسة الشرقية في برلين عاصمة الدولة البروسيانية يقول : « فسرت الى تلك البلاد سير مشوق لاكتشافها ، ومعرفة علومها وآدابها وصنائعها واخلاقها وطباعها ، وقد أقمت فيها وعلمت بعض العلم من ذلك ، ودعاني حب الوطن الى شرح ذلك قياماً بواجبات عشيرتي وقومي » .

ويصور اضطراب البحر شأن كل الذين سبقوه الى الرحلة :

« قام البحر قومة أعقد من همتنا وأزاغ من عقولنا ، ولعب بالباخرة مع الريح ، فهو يقيمها ويقعدها وكأني بها ككرة تصرخ بين ايدي اللاعبين » .

وقد صور حسن توفيق في رحلته المطبوعة بحروف الحجر والموجودة بدار الكتب المصرية كل ما شاهده : السكان ، الناس ، التاريخ ، الجغرافيا ، وترجم لأعلام البلاد وبحث التربية المدرسية والتعليم ، وقدم آراء في تبسيط اللغة وجغرافية برلين الهندسية والبوسطة والانتخانة والكتبخانة، وتحدث عن فضل

على العرب الحضارة .

(٧) أما محمد شريف سليم في رحلته الى اوروبا (١٣٠٥ هـ) ، فقد عد نفسه من السعداء لأنه قام بوظيفة معلم للغـــة العربية للبعثة المصرية الحربية الى فرنسا عام١٨٨٨ : « وقد كان ذلك غاية بغيتي وأعظم اماني لأنها هي الفكرة الواحدة التي انبثت في أجسامنـــا وانبعثت في ارواحنا ، وانا نفر من طلبـــة مدرسة دار العلوم، منهم اخي حسن أفندي توفيق، تلك الفكرة هي التشوق الى معرفة أحوال الغربيين ، والوقوف على الأسباب التي وصلوا بها الى هذه الدرجة العظيمة من تمدنهم الذي لهجت به الألسنة ، وصدقته آثارهم العلمية والعملية .. »

وقد أعجب شريف سليم بباريس « فاذا هي بلدة أخذت زخرفها وأزينت وبلغت من الحسن غايته ، ومن الجمال نهايته ، غير أن بهجتها أثارت مني روح التمني ان يكون لقاهرتنا المحروسة ، مثل أو بعض ما لهذه العاصمة من الزينـــة والرونقة .. »

ثم تحدث عن نتائج الحرية والعدل والإخاء في (المملكة الفرنساوية) .. « وما بي من طرب وانشراح ، يهتز قلمي عند تحرير العبارة ، مما شاهدته من آثار هذه الكمالات الانسانية .. »

وقـــد أبرز في رحلته ثلاث فنون : (١) التاريخ وسماه الفوائد الزهرية في الاحوال الدهرية . (٢) الفوائد العلمية . (٣) الفكاهات الأدبية ، وقد أدمج في رحلته مختلف دراساته وكتاباته وما قدمه من أبحاث .

* * *

هذه صورة كتابات الرحلة في الأدب العربي خلال القرن التاسع عشر ..

وقد تطور هذا الفن منذ أوائل القرن العشرين ، من ناحية الأسلوب تطوراً حثيثاً ، ثم تحول الى فن يحمل الصورة والعاطفة ازاءهـــا ممتزجين في كتابات المازني (رحلة الحجـــاز) وهيكل (ولدي) وأمين الريحاني (ملوك العرب) وكرد علي (غرائب الغرب) .

١ ــ أما محمد فريد في رحلته من (مصر الى مصر) عام ١٩٠٢ الى إيطاليا

وتونس والجزائر وطرابلس الغرب ومالطة (وهي رحلته الثانيـــة) وكانت الأولى الى الجزائر عام ١٩٠١ وقد نشرها في الصحف ولم يجمعها في كتاب .

وفي رحلة محمد فريـــد أسلوب المؤرخ فهو يصف المدن والمساجد والشوارع والضواحي والحمامـات والآثار والأطلال . وينظر الى أحوال البلاد وعـــدد السكان والتعليم والمحاكم والجيش والمواصلات .

ثم يورد الجوانب التاريخية للقصور والقلاع وغيرهـــا ، ويتناول تصرفات الحكم الفرنسي لهذه البلاد بالنقد والأغراض .

وهي رحلة زعيم أكثر منها رحلة مؤرخ . حيث يبدو فيها صورة الاتصال بالمثقفين من أهـل الفكر وبحث قضايا حريـــة القلم والصحافة والتعليم ومقابلة الكاتب الفرنسي العام ومناقشته في هذه الأمور وهكذا .

٢ – ويرسم شكيب ارسلان في رحلتيـه الى الأندلس والحجـــاز مشاعره أكثر مما يرسم ملامح البلاد . ويذهب الى التاريخ الغابر أكثر ممـا يتصل بالواقع الحاضر .

يقول في رحلة الحجاز : « رأيت أن أنشر ما ارتسم في مخيلتي من هـــذه المشاهد ، وما انطبع في لوح دماغي من مناظر ، مقروناً بمـا يَعنُّ لي من الآراء مشتملاً على ما عندي من الملاحظات .. كتب عن الطائف وجبالهـــا ومرابعها ومنازلها وجبالها وكرومها وفواكهها .. ولم أقتصر في الوصف على جنانهـــا الناضرة . وأحوالها الحاضرة . بل كررت النظر الى الوراء في أمور تاريخيـة ماضية ، ومددته الى الأيام في أمور اجتماعيـة مستقبلة بحيث جمعت في هـــذه الرسائل بين مباحث جغرافية وتاريخية . ومواقف سياسية واجتماعيـة ومسائل عمرانية واقتصادية ودقائق لغوية وأدبية ، متناولاً من القديم والحديث ومتنقلاً بين التالد والطريف ... »

٣ – أما المازني في رحلته الى الحجـــاز (اكتوبر ١٩٣٠) فيقول انه فرح بالفرصة التي أتاحت له هذه الرحلة « وقلت لنفسي ان المصريين يخرجون أفواجاً الى الأقطار الأخرى ، وصار ذلك سنة مرعيـــة عندهم ، حتى ليخيل للمرء في

مقدمة المصيف ، ان هذه الأمة المصرية قد أزمعت ان تهاجر الى واد غير واديها . وكنت في صيف كل عام أخشى ان لا يبقى في البلاد غيري وان لا يعمرها سواي ، وسرني على الخصوص ان السفر الى الحجاز لا الى الغرب ، ذلك ان الغرب يزور مصر ، ولو شئت لقلت انه يغزوها ، فلسنا نحتاج ان نزوره ، أما الحجاز فأمره مختلف جداً . ولنحن خلفاء أن نجعل علمنا بالشرق العربي أعمق ، وارتباطنا به أمتن ، وما حسبني ابالغ حين أقول ان مستقبل الشرق واحد ، وان تفاوتت خطى ابنائه ، ومن الجهل ان نشيح بوجهنا عنه » .

ويمضي المازني في تصوير رحلته الى الحجاز على طريقة الكتابة الصحفية ، فقد كانت الرحلة بدعوة يمثل فيها الصحيفة التي يعمل فيها . ولذلك فهي فصول سريعة كتبت يوماً بعد يوم لتلبي نداء الجريدة اليومية .

٤ – أما الدكتور هيكل في كتابه (ولدي)، فقد ضم رحلاته خلال خمس سنوات أو خمس زورات صيفية لأوروبا بين عامي (١٩٢٦ – ١٩٣١) . وقد تردد في هذه الزورات على باريس ولندن وسويسرا وميلانو البندقية والاستانة وبخارست ورومانيا والمجر وفيينا وجنوا وبرلين ، وكان قد فقد وحيده « ممدوح » واكفهر وجه البيت ، فأراد ان يلتمس عزاء للفجيعة ، فسافر مع زوجته مرة ومرة حتى رزق بطفلة أعادت الأمن الى الروح الحزين .

سافر إلى اوروبا عام ١٩٢٦ بعد ان أمضى أربعة عشر عاماً منذ عودته منها ، يقول : نذرنا ان نجعل مصيفنا بعيداً عن مصر ، وكانت زوجي أشد على تحقيق هذا النذر حرصاً ، وأشد بضرورة الوفاء به إيماناً.. ثم يقول : فلما كانت سنة ١٩٢٩ ، عاودنا الرجاء في ان نعود بآفاقنا الى طفل تعوض علينا ابتسامته جمال اوروبا وجمال العالم بأسره .

والدكتور هيكل في رحلاته مستفيض الأثر ، يكتب رحلة وقصة وتاريخاً وسياسة ، فهو يتناول كل شيء ، ويصور رأيه في اسلوب دقيق ، وعلى نحو عصري قوامه العرض والتحليل .

٥ – أما رحلات أمين الريحاني فهي ذات طابع فني ممتاز ، انه ليس صحفياً

كهيكل والمازني وليس مرتبطاً بصحيفة يراسلها ، أو يكتب فيها ولذلك فقد استطاع أن يجمع معلوماته ، ويعود في هدوء ليكتبها على مهل ومن ثم جاءت آية في الرواء . وبالرغم من أنها تحمل طابعاً سياسياً هو الالتقاء بملوك العرب وبحث قضايا الوحدة والحرية وما إليها ...

وهي في تصويرها للوطن العربي تحمل الدقة والسخرية والفن ، وقد هداه الى الرحلة كاتب أمريكي هو [واشنطون ارفنج] في كتابه عن الحمراء وكانت في نيته رحلة الى البادية ، الى البلاد العربية (على هجين) وأتيح له أن يحقق الرحلتين .. فزار الأندلس ووقف في الحمراء في الغرفة التي كتب فيها واشنطون أرفنج كتابه النفيس « فسمعت أصواتاً تناديني باسم القومية ومن أجل الوطن ، وتدعوني الى مهبط الوحي والنبوة . »

ولا يعرف حتى الآن بالضبط ما هي الدواعي التي حملت أمين الريحاني الى رحلته الى قلب العالم العربي ولقاء الملوك ، ولكنه كان يحمل اسم « الوحدة العربية » ويحمل خطاباً من وزارة الخارجية الأمريكية الى القنصل الأمريكي في عدن .. ليسهل له المهمة !.

وقد كتب أمين الريحاني رحلته في (أيار ١٩٢٤) باسم « ملوك العرب » ثم تابعها بكتابه عن نجد ورحلته الى بغداد ورحلته الى المغرب الأقصى .

وقد أجهدته الرحلة الى الجزيرة العربية ولقي كثيراً من مشاقها وأهوالها في السفر على ظهور الجمال . وركوب البواخر الصغيرة وكونه ليس مسلماً يدخل بلاداً إسلامية كالحجاز واليمن ترى في مثله جاسوساً أو دخيلاً .

يقول : ازمعت السفر الى حضرموت عندما كنت في عدن فأضحيت وأنا في بيت شركة البواخر الهندية بربان (البويخرة) التي سافرت فيها الى جيزان . وكانت هذه المرة تقصد (مكلا) ميناء حضرموت فقلت للربان اني معك ثانية فضحك وقال : لا أظنك تهوى الحياة ، وأي خطر على الحياة في بحر العرب وفي فصل الصيف . فأجاب الملاح الانجليزي : هو فصل الموت ، ريح صرصر تهب من الجنوب الغربي ، وتجري في بحري الهند والعرب شرقاً لشمال ، وهي

شبيهة بريح السموم في الصحراء . »

ثم يدعو الى الايمان بالعروبة : تعالوا سيحوا معي فأدعوكم الى ما أبعدكم عنه التفرنج والتأمرك ، الى حقائق لمسنا ظلها في آداب العرب القديمة .. ان الروح الذي يسعى في إبعادنا عن العرب لا يفلح في مسعاه . فقـد بددت الأيام تلك الأوهام التي صورت لنا الكمال كله في الأمة الفرنسية ، وعسى ان هذا الكتاب يبدد الأوهام التي صورت لنا البعبع في العرب ..

ويقول : كان كارليل أول من عاد بي من وراء البحار الى بلاد العرب ، اني عرفت بواسطة الكاتب الانكليزي الكبير ، سيد العرب الأكبر النبي محمد (كتاب الابطال) فأحسست لأول مرة بشيء من الحب للعرب وصرت اميل للاستزادة من أخبارهم .. »

ويقول امين الريحاني ان بلاد العرب زارها كثير من علمـاء الغرب أمثال بركهارب وبورتون ودوني وفيلبي .. ولكن قل ان فعل ذلك أحد من الرحالة العرب ..

٦ – أما كرد علي في كتـاب (غرائب الغرب) المطبوع سنة ١٩٢٢ فهو يصور انطباعات رحلاته الثلاث الى اوربا ١٩٠٨ / ١٩١٣ / ١٩٢١ ، فقد وصف هذه الخواطر بأنها آهات وتأوهات كتبها في وصف معالم الغرب وما لقيه فيه : « كان من أعظم اماني النفس منذ بضع سنين ان ارحل الى اوروبا رحلة علميـة أقضي بها ردحاً من الدهر للتوفر على دراسة حضارة الغرب في منبعثها واستطلاع طلبة المعاهد التي فيها نشأ المخترعون والمكتشفون والفلاسفة المنزهون » . ثم جاءت الفرصة بإغلاق المقتبس سنة ١٩٠٨ ، فرحل الى مرسيليا وليون وباريس فالاستانة ، وفي رحلته الثانيـة الى رومـة وايطاليا وسويسرا واليونان ، وفي الثالثة الى فرنسا وهولندة وانجلترا والأندلس وبرلين وايطاليا .

وقد كتب هذه الرحلة في ٦٣٨ صفحة .

وهي فصول أقرب الى الكتابات الصحفية السريعـة . تحمل ملاحظـات عابرة ؛ ووصف ومقارنات بين الشرق والغرب ، ومشاعر تتطلع الى ان يعود

العرب الى القوة مرة اخرى بالاقتباس من حضارة الغرب ، مع تأثر واضح بفرنسا وتمجيد للغة الفرنسية ، وهو يخلط حديث الرحلة بالتاريخ . فاذا ذهب الى فرنسا تحدث عن روابطها بالعرب . وكذلك هولندا .. وفي كل قطر يستعرض تاريخ الأمة التي يزورها ، ويقدم بعض احصائيات وصور لحاضرها ، وهو دائماً يعرض للجانب المشرق في الغرب ولا ينتقده .

وهو واحد من الذين زاروا الأندلس : يقول : سار بنا القطار من باريس الى جنوبي فرنسا ، ماراً بأرض عامرة بزراعتها دالة على سلامة ذوق أهلها « ولما اجتزنا جبال البيرنات . ودخلنا ليلاً محطة أردن الاسبانية قاصدين الى مدريد عاصمة اسبانيا الحديثة ، كثرت لواعج الأشواق الى الصقع الأندلسي واشتدت تباريح الذكرى ، تمثلت للعين تلك الأمة العربية الغربية وما اثلته من الأمجاد في هذه البلاد . »

ثم عرض لتاريخ الغرب في اسبانيا منذ أول الفتح الى خروج المسلمين الى تاريخ الأندلس بعد المسلمين .

وهو في خلال رحلته دائم المقارنة بين العالم العربي والغرب متأثراً بمظاهر المدنية والحضارة .. « كل من طاف بلادنا وقابل بين حالها وحال الأقطار الراقية يدرك لأول وهلة اننا عيال على الغرب !.. »

ولا يرى كرد علي غضاضة على الشرق أن يرحل باحثاً في شئونه وأن يتسقط الفوائد من الغريب والقريب .

وتهيج خواطره، عندما يذكر أن أميراً واحداً من أمراء ايطاليا هو البرنس (ليوني كاتياني) مؤلف تاريخ الاسلام الكبير ، قد جمع بسعيه وتنشيط حكومته مكتبة له منقطعة النظير في الغرب نفسه، فيها كل ما يحتاج إليها باحث في تاريخ الإسلام والعرب وبلادهم حيث استنسخ من المكاتب الخاصة والعامة في أوروبا وأمريكا وآسيا وافريقيا كل مخطوط عربي فيه شيء من هذا القبيل وأبلغ اهتمام كرد علي تاريخ المشرقيات والمكتبات والمخطوطات .

* * *

ومن خلال الرحلات العديدة المطبوعة في مؤلفات . والمنشورة في بطون الصحف يبدو طابع التطلع الى الجديد من الرحلة ، هذه الرحلة التي تكون رحلة علم ودراسة على النحو الذي يظهر في رحلة رفاعة وتوفيق العدل ومحمد شريف سليم وزكي مبارك وأحمد عطية الله . أو رحلة استقصاء واكتشاف كما يبدو في كتابات: محمد لبيب البتانوني،ومحمد ثابت،ومحمد رشاد،ومحمد بيرم،والشدياق.فقد هوى هؤلاء الرحلة والجولان وزيارة أقطار المعمورة ، أو رحلات متصلة بالمؤتمرات العلمية كرحلات أحمد زكي باشا،وكرد علي،وعبدالله فكري،وحسين فوزي ، وبنت الشاطىء أو رحلات صحفية كرحلات المازني وهيكل وداود بركات . أو رحلات كشفية في الصحراء كرحلة أحمد حسنين أو رحلات تحمل طابعاً خاصاً كرحلات أمين الريحاني ونزيه مؤيد العظم الى جزيرة العرب . وهناك رحلات الأشواق العربية كجزء من التاريخ الإسلامي كرحلات أحمد زكي، وكرد علي . وشكيب ارسلان وبنت الشاطىء الى الأندلس.

وهناك رحلات في العالم العربي نفسه ، هي أشبه بالسفارات بين أبناء الوطن الواحد : كرحلة محمد عبده ومحمد فريد والعمروسي ومحمود عزمي للمغرب العربي أو رحلة زكي مبارك وأمين السعيد لبغداد أو فريد رفاعي الى اليمن وعبد الوهاب عزام الى الشام والعراق وتركيا ومحمود عزمي لسوريا والعراق .

ثم هناك رحلات النفي : كرحلة شوقي الى الأندلس وشكيب ارسلان الى سويسرا وعبد العزيز الثعالبي الى المشرق : مصر والعراق والهند ، وهي رحلات لم يكتبها أصحابها في الأغلب .

وهناك رحلات الى أمريكا كرحلات محمود تيمور وسامي الجريديني وأمين بقطر ورحلات الحج كتبها : المازني وهيكل وشكيب أرسلان . ولا شك قد احتمل كثير من هؤلاء الرحالة الكتاب تعباً ومشقة ، ومحمد ثابت هذا المدرس الذي كان يقتنص فرصة اجازته السنوية ليطوف بالعالم ، وقد طاف به فعلاً ، أوروبا وآسيا وافريقيا والامريكتين واستراليا . وألف عديداً من المؤلفات

لزياراته هذه وإنما كان يتحمل كثيراً من المشاق ويسافر أحياناً على ظهر المراكب ويقتنص الفرصة ليجد مركباً تجارياً يحمل البضائع ليكون أقل كلفة . وهنــاك من أتيحت له الرحلة عــن غنى ويسر أمثـــال عبد الوهاب عزام الذي سافر سنوات متوالية منذ عام ١٩١٩ استانبول، الشام ، العراق ، إيران ، الأناضول، الحجاز ، العراق للمرة الثانيـــة والثالثة ، أوروبا ، الهند ، الباكستان ، بيت المقدس .

ثم أتيحت له فرص الإقامــة للعمل مدرساً وسفيراً بالعراق والباكستان والحجاز ... ورحلات طه حسين المتجددة كل عام الى فرنسا وإيطاليـــا وله رحلة الربيـع ورحلة الصيف .

ومن مجموع هذه الفصول والآثار ، نرى صورة العـــالم داخل وطننا العربي وخارجه من نظرات هؤلاء الكتاب والمفكرين الذين كانوا على اختلاف مشاعرهم وثقافـاتهم ومناهجهم ينظرون الى الغرب ، نظرة الدهشة للتقدم ، ويحسون احساس الشوق لأوطانهم . حتى تصبح قوية متمدنة . وقد تركت هذه الفصول لوحات متعددة وصوراً اخرى،للحياة في مختلف انحاء العالم . وفي الأهم الأكثر أوروبا وامريكا . فهم يتطلعون الى ان تصل بلادهم الى مثل ما وصلت اليه هذه البلاد من مجد وحضارة . وهم متأثرون اشد التأثر للتقدم العلمي والحضاري .

ولا شك ضمت هذه الرحلات ذخيرة طيبة من :

- المشاهدات واللوحات الفنية للاقطار والبلاد .
- احصائيات عن مالية هذه الأقطار وجيوشها ومدارسها .
- دراسات موجزة عن جغرافية هذه الأقطار وسكانها .
- لمحات من تاريخ هذه الأقطار وتطوراتها وحركاتها السياسية .
- صور للمكتبات ودور الآثار .
- معلومات عن أعلام هذه الأقطار وزعمائها .
- فصول عن نظم الحكم والسياسة والدولة .
- اهتمام واضح بفنون الصحافة والتعليم والثقافة .

وقد ضمت هذه الرحلات : صورة الاشواق النفسية والاهتزازات الروحية ازاء الآثار الضخمة أو الاعمال الكبرى ، وكذلك التأثرات المختلفة الى جوار البحث العلمي والتاريخي .

وتميزت الرحلات التي كتبها المحدثون بأمرين :

١ – التحليل وتصوير المشاعر والربط بين الصورة والعاطفة .

٢ – طابع العرض الشامل المتصل بعد ان كان سرد الرحلة أشبه باليوميات.

مذكرات الاعلام
في الأدب العربي المعاصر

« مذكرات الاعلام » وذكرياتهم ، فن طريف عرفه الادب العربي المعاصر وهو غير التراجم الذاتية ، ويمكن ان يضم اليه ادب اليوميات التي يكتبها بعض الأدباء عن أحداثهم اليومية ، وهي تضم قصة النجاح والإخفاق وترسم صورة البيئة ، على نحو تفصيلي يختلف عن التراجم الذاتية ، وإذا كانت التراجم الذاتية تصور حياة صاحبها ككل في مراحل تطوره المختلفة ، فان المذكرات في الأغلب تصور مرحلة معينة ، أو قطاعات محددة ، أو صوراً ليس لها طابع الترابط الكامل ، أو اتصال حلقات الحياة ، والفرق بين التراجم الذاتية وبين المذكرات يظهر في المقارنة بين الأيام لطه حسين مثلاً ومذكراتي السياسية لهيكل ، فالأول يمثل صورة متصلة مستفيضة تدور حول حياة الكاتب ، أما الثاني فيمثل دراسة للكاتب من خلال الأحداث والوقائع والتاريخ العام .

ولقد طال البحث عن مذكرات الاعلام ، المطبوع منها على هيئة كتب ، والمنشور في بطون الصحف . فلم نجد من المؤلفات إلا القليل . وأغلبها طبع حديثاً ، بعد ان كان منشوراً في بطون الصحف ، ومنها ما لم يكتبه اصحابه وإن أملاه بعضهم على بعض محرري المجلات ومن هذا :

- مذكرات الشيخ محمد عبده .
- مذكرات احمد عرابي .
- مذكراتي احمد شفيق باشا (٣ أجزاء) .
- مذكراتي : محمد كرد علي (٣ أجزاء) .
- مذكراتي : عبد الرحمن الرافعي .
- مذكرات عبدالله النديم .
- مذكراتي السياسية لهيكل (جزءان) .
- مذكرات لطفي السيد .
- مذكرات عبد العزيز فهمي .
- مذكرات شكري ممثلة في كتابه : « الاعتراف » .

وهناك مذكرات منشوره في بطون الصحف اهمها :

مذكرات : محمد فريد ، حافظ عوض ، شبلي شميل ، عبدالرحمن فهمي ، عبد الرحمن عزام ، احمـــد حشمت ، جرجي زيدان ، سعد زغلول ، محمود ابو العيون ، ابراهيم الهلباوي ، العقــاد ، طه حسين ، ومذكرات (الخضري ، عبدالوهاب ، النجار ، امين الرافعي) عن الثورة المصرية ١٩١٩ .

وقد كثرت هذه المذكرات في المصور ، والدنيا الجديدة ، وروز اليوسف ، وآخر ساعة ، والبلاغ ، ومجلة فتاة الشرق ، والهلال وكل شيء .

* * *

بعض هـــذه المذكرات يدخل من حيث النشر في غير المرحلة التي تؤرخها والتي تنتهي الى أوائل الحرب العالمية الثانية ، ولكنها من حيث مضمون التاريخ تتناول هذه الفترة . وأغلب هذه المذكرات سياسي الطابع ، وقل فيهـا من له طابع الادب والفكر . وهي لأعلام في السياسة والفكر ، ولمصريين في الاغلب، فان الظروف لم تمكني بعد من الحصول على مذكرات الاعلام في الوطن العربي.

وأهم سمات هذه المذكرات :

● الكشف عن وقائع حياة صاحبها على نحو دفاعي فيما يتعلق بأعماله السياسية التي ربما فسرت على نحو أو آخر ، فعرابي يريد ان يصور حقيقة موقفه من القوى التي واجهته إبان الثورة ، ومحمد فريد يكشف الستار عن الجوانب الغامضة حول تصرفاته وهجرته ، وهيكل يحاول ان يرسم صورة لموقفه وموقف حزبه من الأحداث والامور ، وعبدالله النديم يرسم صورة هجرته واختفائه وكرد علي يتحدث عن موقفه من عشرات الناس والاحداث في مصر والشام وتركيا .

واحمد شفيق يصور تاريخ مصر من خلال حياته في ٥٠ عاماً حيث كان منصبه في القصر ، يتيح له الاتصال بالأحداث . ولطفي السيد يصور مواقفه في الصحافة وفي السياسة ، كما يصورها كذلك عبد العزيز فهمي والشيخ محمد عبده يتحدث عن حياته وعن الثورة العرابية .

وفي الصحافة تبدو مذكرات حافظ عوض والعقاد ، وفي المحاماة الهلباوي ، وفي الأزمات الاجتماعية محمود أبو العيون .

ومن هنا تبدو منوعة مختلفة الأثر والطابع والاتجاه ، ولكنها جميعاً لا تظهر شيئاً مثيراً أو خطيراً أو تكشف حقائق غير متوقعة ، فهي مكتوبة أصلاً وفي الأغلب للنشر ، ولذلك فإن صاحبها لا يعطي للجماهير إلا الوجه المشرق من حياته وأعماله وآرائه ، وقد يحتفظ لنفسه بالمسائل الشائكة ، أو ذات الطابع المضطرب ، أو الجوانب المتصلة بالأفراد الأحياء ، ومهما يكن من أثر هذه المذكرات التي نشرت وعرفت فانها قليلة ضئيلة بالنسبة للمذكرات التي كتبها أصحابها ولا تزال مدفونة في بطون الأضابير ، والخزائن ، والتي أوصى أصحابها بأن لا تذاع إلا بعد وفاتهم بسنوات طوال .

* * *

● لعل أكبرها هذه المذكرات حجماً وأكثرها جدية في مجال العمل الفكري هي مذكرات شفيق باشا وتليها مذكرات كرد علي والدكتور هيكل

فعرابي .

أما مذكرات شفيق باشا (مذكراتي في نصف قرن) فتمتاز بسعة المجال إذ أنها تصل الى ثلاثة أجزاء . وتضم صورة الحياة السياسية من خلال نظراته إليها في الفترة ما بين ١٨٨٣ - ١٩٢٣ ، وهي مذكرات مؤرخ درس العلوم السياسية في أوربا وشغف منذ مطالع حياته بالتاريخ وكتابة المذكرات . وهي تضم صور حياته الخاصة في مراحلها وأعمالها وتقلباتها وأسفارها ، الى صورة الحياة السياسية التي عاشتها مصر في تلك الفترة ، بحكم مشاركته فيها واتصالها بعمله في قصر الخديويين ، وقد صور من عاشرهم من الملوك والأمراء والوزراء وكبار الشخصيات التي لعبت الادوار السياسية في العالم العربي الحديث في تركيا والشام ومصر في هذه الفترة وتكون هذه المذكرات مادة خصبة لدراسة التاريخ السياسي المصري في هذه الفترة حيث تكشف عن كثير من المناورات والمشاورات التي كانت تدور وراء الستار وتعطي مفاتيح أسرار الأخبار التي تنشرها الصحف كما تعطي الجوانب غير المنظورة ووقائع الحياة الخاصة وما وراء الصور الظاهرة في مجالس الوزراء واجتماعات الحكام وعلى موائد المفاوضات فضلاً عن النوادر الشخصية والصور الداخلية والأسباب الهفية والعوامل النفسية وراء القرارات المختلفة .

فقد لازم شفيق باشا الخديوي عباس وساح معه ، وتأثر برأيه في كثير من المسائل واهمها موقفه من عرابي ، وهي وجهة نظر خصوم عرابي ومعارضي الثورة .

وقد تميز هذا الفن الجديد بالجمع بين الصورة والخبر وما وراء الاخبار على الاهتمام بالحياة الاجتماعية ، وذلك تحقيقاً للقاعدة التقليدية التي كانت تعنى باخبار الملوك والفاتحين وحدهم ، كما تضمنت موقف القصر ووجهة نظره ، وحقيقة تصرفاته إزاء عديد من الحوادث . وقد نشرت فصول منها في الاهرام قبل صدورها عام ١٩٢٧ ، فأثارت ضجة وأخذ الكثيرون يراجعون كاتبها في آرائه وتسجيلاته ، وخاصة فيما يتعلق بموقفه من عرابي . وقد أصاب هذه

المذكرات ما أصاب غيرها من اقتضاب في بعض جوانبها، مما لم يكن يباح نشره في إبان فترة صدورها ، وإن شملت كثيراً من التفاصيل عن حياة اسماعيل الخاصة ، غير ان مراجعها « سيد قطب » قد أشار بعد الثورة في مقاله له بالرسالة، أن حياة اسماعيل كانت صاخبة مثيرة ، وان ما نشر منها في مذكرات شفيق باشا قليل جداً مما هو على وجه الحقيقة .

ومع هذا الاجتزاء ، فقد كتب عن بيع النياشين ، والدسائس ضد الشيخ محمد عبده .

وقد أجمع الباحثون على ان ميزة هذه المذكرات أن :

- كاتبها عالم درس العلوم التاريخية وعرف أسرارها وأصولها منذ صباه .
- أنه كتبها بأسلوب المؤرخ .
- عنايتها بالشعب ووصف احواله وأطواره في أفراحه وأحزانه .
- مركز صاحبها وما استطاع ان يصل اليه بحكم هذا المركز من معلومات وأسرار .

أما دوافع هذه المذكرات فيصورها شفيق باشا حين يقول : دفعني الى تدوين هذه المذكرات عوامل كثيرة : كان بعضها كامناً في نفسي ، والبعض الآخر هيأته الظروف التي أحاطت بي ، لا سيما كنت أشعر منذ الحداثة بشغف قوي الى تدوين مذكرات يومية عن دراستي وأحوالي وما أستطيع إدراكه ومشاهدته، وكان طبيعياً لإنسان فطر على هذا الميل ان يهوى التاريخ وان يشغف به .

لذا كانت دراسته ومطالعته أحب الأشياء الى نفسي ، ولم يكن يثنيني عن تدوين هذه المذكرات عمل ولا لهو . وما كانت مشاغلي الخاصة لتحول بيني وبينها ، بعد أن غدت جزءاً لا يتجزأ من برنامج حياتها ، ولا أفتر عن تقييدها أثناء أسفاري خارج مصر سواء للمهام أو للرياضة ، وذلك أن تدوينها كان في ذاته سلوى لي لأنه يتصل بعامل خفي في نفسى هو الشغف بتسطيرها ثم استحياء مسرة استعراضها وعنده أنها سجل للحوادث يتبع سيرها الطبيعى فيقيدها كما وقعت ، وشوهدت ، دون رأي أو تعليق خاص ، ودون شهوة أو غاية

شخصية ، فإذا ذهب ذلك العهد وتعاقبت عليه السنون ألقى التاريخ الحق في هذه المذكرات مادة نفيسة تؤمن شواهدها ودلائلها ، وأمكن استخراج الحوادث من بطونها غضة نقية .

وقد طالع شفيق باشا في شبابه « تاريخ الجبرتي » فراقه وكون في نفسه الميل الطبيعي للدراسات التاريخية ، ثم وجد أن أحداً لم يقتف أثره ، فأخذ يسأل نفسه : ترى هل يستطيع أن يسد هذا الفراغ بتدوين مذكرات له يسجل فيها كل ما يعلمه أو يشاهده ثم بدأ ينفذ الفكرة فأخذ أولاً في تدوين وقائع حياته ، وشجعه على كتابة مذكرات منظمة أنه كان يجد في كتابتها لذة وتسلية .

وكان من رأى شفيق باشا أن لا تنشر المذكرات الخاصة إلا بعد الوفاة ، غير أنه رأى أن تنشر في حياته حتى إذا ثمة مجال لفحصها أو نقدها كما أنه رأى من الشجاعة الأدبية أنه ينشر مذكراته فيتحمل وهو على قيد الحياة كل تبعه فيما يسجل من الحوادث والأشخاص .

غير أن شفيق باشا يتحفظ في تقديم هذه المذكرات ومكانها من دراسة التاريخ فيتساءل عما إذا كانت هذه المذكرات مادة كافية لصنع تاريخ مصر الحديث . فإن هذه المادة تتكون من نواح كثيرة أخرى ومن وثائق رسمية شتى ومذكرات لرجال قاموا بأدوار خطيرة .

وجملة القول أن مذكرات شفيق باشا مذكرات خبرية لم تأخذ طابع التحليل ولا الترابط بين الأجزاء البعيدة ويمكن أن توصف باليوميات السياسية .

٢ – أما مذكرات الدكتور هيكل (مذكرات في السياسة المصرية) والجزء الأول منها الذي يسجل الفترة من (١٩١٢ – ١٩٣٧) على وجه الخصوص فإنها عمل أكثر فنية وتماسكاً من مذكرات شفيق باشا وإن لم يكن هيكل قد كتب مذكرات يومية ، فقد استملاها من الذاكرة وراجع في إبان كتابتها صحيفة « السياسة » حيث أمضى فترة تزيد عن خمسة عشر عاماً وهو يصدرها ويرأس تحريرها (١٩٢٢ – ١٩٣٧) وهي تتناول حياة مصر السياسية أكثر مما تتناول غير هذا الجانب من حياتها العامة . وقد حاول هيكل أن يقف موقف

المؤرخ ، غير متعصب لرأي بذاته محللا المواقف المختلفة ، مبيناً وجهة النظر الخاصة لكل فريق ، معتقداً بأن الرأي قد ينطوي على جانب من الصحة وجانب من الخطأ .

وعنده أن من أسباب اقتداره على أن يقف موقف المؤرخ ، وأن يصور الحوادث كأدق ما يستطيع ، أنه كتب هذه المذكرات بعد انقضاء سنوات طويلة من وقوع الحوادث التي دونت فيها ، فقد بدأ كتابتها عام ١٩٤٨ حين كان أول فصل فيها يتحدث عما وقع سنة ١٩١٢ أي بعد انقضاء ست وثلاثين سنة أو تزيد على وقوعه ، وقد فرغ منها عام ١٩٥٠ وكان آخر ما تناوله ما وقع سنة ١٩٣٧ . ولا شك أنه إذ تفصل السنون بين الكاتب وبين الحوادث بهذا المقدار تتيح له فرصة وضوح الرؤية ، مما يحقق له النظر إليها على نحو تختلف عما أحاط بها إبان حدوثها، فهي في إبان حدوثها كانت تثير من العواطف والتأثر بالمنفعة العاجلة ما يجعل حكم العقل عليها ضئيلا ، وهذا هو الفارق الهام بين مذكرات هيكل وبين مذكرات شفيق باشا التي كان يكتبها في ضوء الحوادث وتحت تأثيرها .

ويرى ان هيكل ربما كان لابتعاد الاحداث عن مرحلة الكتابة أثره في القاء ظلال مختلفة ، ولكن الزمن الذي يكون قد مر بين الأحداث وبين تسجيلها ، وما كسبه الكاتب خلاله من تجارب وخبرة ، سيكون بعيد الاثر في تقويمها ، وإعطاء العقل القدرة على تحليل الحوادث ووزنها ، مما يجعل الكاتب مسجلا وفي نفس الوقت قاضياً عادلاً .

ويعترف هيكل بان وجود طائفة من الاشخاص الذين لعبوا دوراً في هذه الحوادث على قيد الحياة ، ومدى الروابط مع هؤلاء الاشخاص له أثر بعيد لا سبيل الى زواله في كتابة المذكرات ، وإن كان قد أكد أنه لم يحاب هؤلاء الاشخاص ، إلا على نحو واحد ، هو إغفال بعض الحوادث التي رأى من الواجب إغفالها ، أما ما دونه ولم يغفله فهو صحيح في عمومه ، كما اعترف بأنه ليس راضياً عن إغفال ما أغفل ، ومن هذا تحايل جهد ما أتاه فن الكاتب ، فذكر

الآثار التي ترتبت على هذه الحوادث المغفلة ، وهنا يثار جانب ما يعلن وما يخفى من الوقائع في المذكرات .

وهي نفس المشكلة التي واجهها شفيق باشا ، واعتقد انه لا سبيل الى تجاهل هذه الحقيقة في مذكرات ينشرها الأحياء أو يكتبونها وهم على علم بانها ستذاع .

وقد حاول هيكل في مذكراته ان يتخذ طريقة أقرب الى العلم والتاريخ والتجرد :

(١) لم يتناول إلا ما شاهده أو شارك فيه بنصيب من جوانب السياسة المصرية .

(٢) لم يتناول عدا الجانب السياسي في حياة مصر إلا لماماً ، لأنه الجانب الذي استأثر بنشاطه وفكره في هذه الحقبة .

وعنده ان هذه المذكرات تكون عوناً للباحث الذي يريد ان يتصور تلك الحقبة من تاريخ مصر ، أما فيما يتصل بدقة الوقائع ، فإن هيكل يرى انها دارت حول ما كان يكتب طيلة خمسة عشر عاماً خلال تحريره السياسة : وأن هذا الاتصال المتصل بموضوع بذاته ينقش في الأذهان ما يكتب فلا ينسى أبداً .

ويرى أنه من الضروري على كل من شارك في العمل العام في أي فترة ، أن يكتب عنها ما يكون من بعد مادة للمؤرخ تعينه على رسم الصورة الصحيحة لهذا الطور من أطوار حياة الوطن .

ولا شك ان هيكل كان يحاول ان يدافع عن وجهة نظره ونظر حزبه من الأحداث ، وإن كانت تكشف عن ان هيكل كان له طابعه الفكري الخاص ، بالرغم من اتصاله بحزب الأحرار الدستوريين ، وله آراؤه المتحررة ، ومواقفه التي ربما تعارضت مع الحزب ، وهو لذلك يتحرز من أن يوصف هذه المذكرات بأنها دفاع عن السياسة التي ناصرها ، ولأنه كان في أكثر أطوارها في غير الجانب الذي عليه الجمهور .

٣ – أما مذكرات « محمد كرد علي » ، فهي على نحو يختلف عن طريقتي شفيق وهيكل ، فلا هي يوميات ولا هي عرض تحليلي ، وإنما هي جزيئات

أشبه بالخواطر والمقالات والزوايا المختلفة المتصلة بحادث من الأحداث أو فرد من الأفراد ، أشبه بالوقائع والملاحظات ، عرض فيها رأيه وموقفه، وحاول تصوير مجتمعه ، فلا هي تسجيل للتطور السياسي على نحو تاريخي كما فعل شفيق وهيكل ، ولا هي عرض قصصي لحياته أو للحياة السياسية أو الاجتماعية في دمشق . وإنما هي قطاعات منفصلة أقرب الى الخواطر التي تكتب في أوقات متفرقة ، وقد عرض في عدد منها مطالع حياته ، ثم جعلها متصلة بالأحداث والأشخاص والأخطاء المتعددة التي صادفته خلال حياته الطويلة منذ مطالع القرن وعن رحلاته وهجرته الى مصر وعمله الصحفي ، وجريدته المقتبس ، ومواقف حكام سوريا ، وقد ضمنت الحديث عن عشرات ممن عرفهم في مصر وسوريا ولبنان وتركيا ، ومن التقى بهم وتحدث معهم ، وقد اتسمت بالهجوم على عديد من السياسيين السوريين والاتراك . وقد تناولت الصراع بين العرب والترك في عهد الاتحاديين، كما تناولت صلاته بعلماء اوروبا وباحداث العالم العربي.

وهو يرى أن دافعه في كتابتها ان ينتزع قيوداً أثقلته ، وأن يشق طريقاً جديداً من طراز غير مقيد ، سمته اسلوب مطلق ، متابعاً طريقة من سبقوه من الغربيين في تدوين مثل هذه الارتسامات .

يقول : أحاول اليوم ، وقد رأيت الدنيا مهزلة ، وذقت حلوها ومرها وكرعت خلها وخمرها،ان أهزل أحياناً وأسخر احياناً وأضحك احياناً وأبكي احياناً ، لأن نفسي سئمت التزام الجد وتبرمت من الاضطراب زمناً طويلاً .

وتقع مزكرات كرد علي في ثلاث أجزاء تضم ٩٩٦ صفحة وحوالي ٤٠٠ خارطة صدرت عام ١٩٤٨ ، ومعنى هذا انها تضم خواطر ٥٠ عاماً .

وهي في تقدير الباحثين تصور مشاعره وعواطفه غير متجردة تجاه الأحداث والأفراد . وقد أحدث نشرها دوياً في سوريا ومصر نظراً لجرأة ما تناولته من الرأي في بعض الأحيان ، وهي انطلاقة رجل ظل مقيداً في آثار الأبحاث العلمية حتى بلغ سناً عالية فقد ولد سنة ١٨٧٦ أي أنه كان عند إصدارها ونشرها في سن السبعين بعد أن انفضت المواكب ولم يعد في حاجة الى

تملق أحد ، وقد اختار أسلوب السخرية كما أشار في المقدمـــة ، في كشف ستر هؤلاء الذين اتصل بهم ، وقد لاحظ الباحثون بعض التناقض في الأخبـــار التي أوردتها المذكوات على نحو يجعل هذه المذكرات في حاجـــة الى حذر شديـد للانتفاع بها تاريخياً . وقد أشار الى ذلك شفيق جبرى حين قال : « أن كرد علي لم يدون كل حق عرفه الناس وإنمـــا دون كل حق اعتقد هو نفسه أنه حق وخالفه أكثر الناس فيـــه ، دون حقاً صادف هوى في نفسه وكان باطلاً في نفوس الناس . »

ويمكن القول بأن مذكرات كرد علي لم تكن مضطردة اضطراداً تاريخياً في خواطرها الربعمائة ، وإنما كانت متناثرة عليها طابع العاطفة والإحساس الذاتي في الإعجاب أو البعض ، وقد عبر عن هذا بما سماه « هتك الستر » حين قـال : « ولعلي تعمدت أحياناً هتك سترتهم لأنهم يهتكون بأعمالهم ستر هذه الأمة ولا يبالون . »

ويمكن أن تتميز مذكرات كرد علي بجوانب واضحة :

● جانب العمل السياسي والاتصال بالاتحاديين وجمال باشا السفاح وغيرهم ، وهذا أقرب الى التاريخ منه الى المذكرات .

● كثرة المقارنـــة بين مصر والشام ، حيث اتصل بهما في أوائل القرن وأصدر صحفاً بها وعاش فترة طويلة بالقاهرة فهو يقارن بينهما في الصحافة وفي النكتة ويعرض أخبار الرجال الذين عرفهم في مصر .

● خصوبة وتعدد الجوانب والمعارف والاتصالات والأعمال ، ممـا يعطي صورة حياة مليئة بالحيوية والعمل .

وأشار كرد علي أن ما أورده في هذه المذكرات هو نص ما كتبه بالصورة التي كتبه بها لأول مرة ، وأنه لم يدخل عليها شيئاً من التعديل ، وأنـــه بدأ إعدادها عام ١٩٣٩ وانتهى عام ١٩٤٨ .

٤ — أما النوع الثاني من المذكرات فيضم تاريخ حياة الكاتب وبعض الوقائع على نحو استطرادي لا يرقى الى ترجمة الحياة في فنيتها وشمولها .

● فمذكرات عرابي هي دفاع عن موقفه من الثورة العرابية وعرض تاريخي كامل لحياته منذ مطالعها حتى حادث النفي عام ١٨٨٢ وقد دعاه الى كتابتها انه اطلع على كثير من الجرائد والتواريخ العربية والافرنجية الموضوعة عن (النهضة المصرية) المشهورة بالثورة العربية ، فلم يجد فيها ما يقرب من الحقيقة ولا ما يشفي غليل روادها من ابناء الامة ، لذلك رأى ان يكتب للناس كتاباً يهتدون به الى هذه الحقيقة المرموقة « تمحيصا للتاريخ من دون الاهباء الفاشية والمغتربات الباطلة » وقد سماه (كشف الستار عن سر الاسرار في النهضة المصرية المشهورة بالثورة العربية في عام ١٢٩٨ ر / ١٢٩٩ هـ وفي ١٨٨١ / م) .

ورأى ان ذلك قياماً بالواجب عليه لابناء وطنه وتصحيحاً للتاريخ وخدمة عامة للانسانية .

وقد بدأ عرابي المذكرات بتاريخ حياته ونسبه (فهو عربي شريف الارومة مصري المواطن والنشأة والتربية) ثم تحدث عن حياته في الجيش قبل الثورة ووصف ما كانت عليه مصر في عهد اسماعيل من الظلم ، وفي عهد توفيق عن الفساد ، مما دفعه هو والضباط الاحرار وكبار المفكرين لانقاذ الوطن مما يعانيه والدفاع عن كرامته .

● ومذكرات الشيخ محمد عبده تتكون من عملين : فقد كتب سيرة حياته وكتب مذكرات عن الثورة العرابية ، وقد ضمت سيرته وقائع حياته وبيئته وتربيته بالازهر ولقائه لجمال الدين . وعمله في الجريدة الرسمية كما تناولت سيرته حكم محمد علي واسماعيل . أما مذكراته عن الثورة العرابية فقد تناول فيها مقدمات الثورة ووقائعها بالعرض والبحث ، كما تناول عواملها البعيدة في عصر اسماعيل . وكان قد كتبها بامر من الخديو عباس وقدمها اليه وقال في مقدمتها :

« أمرتني أن أكتب ما شهدت وما سمعت وما علمت وما أتقدم في الحوادث العربية منذ نشأتها الى نهايتها ، علم بعوامل هذه الفتنة تقرر تبعه الخطيئة على من اقترفها ويرثى منها من رمى بها . وقد كان الساعي في تسكينها حاثي التراب في وجهها وقوف على أسرار النازلة يبعد بالعقل الرشيد عن الاعتزاز بظواهر

ليست لها سرائر وصور إنما تكشف عن غير وغير ... »

وقد أشار الشيخ محمد عبده في الدوافع التي دعته الى كتابة سيرته فقال:

« ما أنا ممن يكتب سيرته ولا من يترك للأجيال طريقته فاني لم آت لأمتي عملاً يذكر ، ولم يكن لي منها اليوم أثر يؤثر ، حتى أكون لأحد منها قدوة أو يكون لأحد فيَّ أسوة ، وهذا الذي أجد من استصغار أمري وخفاء أثري وظهور عجزي عن بلوغ ما يرمي إليه فكري ، كان يمنعني من أن أكتب شيئاً يتعلق بحياتي ، تعرض فيه بداياتي وشيء من أعمالي بعدها وصفاتي ، حتى أكون به باقياً عند من يطالعه بعد مماتي ، ولكن عرض لي أن زرت يوماً بعض أصدقائي من الغربيين ممن نظروا في الآفاق وبحثوا في العادات والأخلاق فدار الحديث بيننا عن شئون بعض الأمم الحاضرة وما يجري فيها عما أدت إليه حوادثها الماضية فذكرت لهم ما عندي في ذلك ، وما أقيم عليه رأيي من مشاهدات في أيامي الخاليات ، فرأوا فيما ذكرت شيئاً يستحق أن يذكر ، ولا ينبغي أن يهمل ويهدر ، وقالوا : « أنهم يتمنون أن يرونه منقولاً الى لغتهم ، مقروءاً في قولهم بلسانهم ، ولن يكمل ذلك حتى يكون مدرجاً في سيرتي معروضاً في تصاعيف وصفي لمعيشتي وما اتصلت به من أدوار وما تدرجت إليه من آراء وأفكار .

هذا الذي لفتهم الى دعوتي لتحرير سيرتي ، نزر قليل مما أقصه كل يوم على أبناء جلدتي » .

● أما عبد الرحمن الرافعي فقد كانت أهم الدوافع التي حدت به الى كتابة مذكراته هي أنه بعد أن ترجم لمئات من الشخصيات في تلك الحقبة من الزمن التي أرخها والتي تزيد على مائة وخمسين عاماً من تاريخ مصر الحديث كان لا بد أن يترجم لنفسه .

« وقد عمل المتقدمون مثل ذلك ، ففي الخطط التوفيق فصل كبير عن المرحوم على مبارك عن تاريخ نفسه » . وعنده ان الترجمة للنفس من أشق الأمور على الانسان ، فقد يحمل هذا على محمل المباهاة والأنانية ، وهو لم يقصد الى ذلك

وانما قصد الى أن مثل هذه المذكرات فيها من الحقائق والخواطر ما لا تتسع له كتب التاريخ ، وهي على ذلك قد تفيد من يريد ان يتفهم العهد الذي عاش فيه وشاهد حوادثه وحقائقه .

٥ – وهناك نوع آخر من المذكرات الشبيهة بالتراجم الذاتية ، وهي كتاب الاعتراف لعبدالرحمن شكري ، أصدره عام ١٩١٦ وقد أجمع المؤرخون على أنها مذكراته الخاصة ، وإن كان قد حاول إبعاد الصورة عنه بأن جعل اسم صاحب المذكرات (م. ن) ، وقال انه صار يهيم في فيافي السودان حتى وصل الى بلاد نيام ، فأكله أهلها !..

وقد كتب شكري هذه المذكرات تحت عنوان كتاب الاعتراف « قصة نفس » وحاول أن يصور شخصيته على نحو واضح ، فهو ضعيف العزيمة كثير الاحلام ، والاطماع والأماني وكذلك الخوف ، مهيج العواطف ولكنه غير عظيمها ، كثير الغرور لأنه كثير الأحلام والأماني ، ليس عنده شيء من الاعتماد على النفس ، شديد الإحساس ، ولكنه يبكي في ضحكه ويضحك في بكائه ، كثير الشكوى والتضجر قليل الصبر ، تحز في نفسه قيود القدر المحتوم ، فيجتهد أن يصدها عنه فلا يقدر ، فيزداد حزناً ويأساً ، ويفكر ولكن تفكيره غير منظم ، وهو كثير الحيرة والشك بالرغم من غروره بترك ما يعنيه الى ما لا يعنيه ، لا يعرف أي أفكاره وعاداته القديمة خرافات مضرة ، ولا أي أفكاره وعاداته الجديدة حقائق نافعة ، من أجل هذا يضره القديم كما يضره الجديد ، فهو في قديمه وجديده ، غريق في لجتين ، او مثل كرة في أرجل المقادير ، فالى اين يقذف بها المقادير .. »

وهذه الصورة التي رسمها عبد الرحمن شكري ، انما قصد بها تصوير مشاعره وأحاسيسه هو ، وكل كتابه يدور حول تصوير ازمته النفسية التي كانت تعروه خلال هذه الفترة من حياته ، وقد لجأ شكري الى تصوير مشاعره في أكثر من صورة منها مذكرات مجبون ، وحديث ابليس ..

٦ — وهنـــاك مذكرات اخرى منشورة في الصحف والمجلات لم تجمـع في مؤلفات ، وبعضها لم يكتمل اصلاً . وأهم هذه المذكرات :

مذكرات محمد فريد التي تصور جانباً من حياتنا السياسية في فـترة من أدق الفترات ، وقد نشر جانباً منها في مجـلة كل شيء ، كما صور عبد الرحمن فهمي بعض ذكرياته ، وصور عبد الرحمن عزام قصة حياتـه واشتراكه في معـارك طرابلس ، أما مذكرات أحمد حشمت وشبلي شميل ، فقد تحدثت الصحف عن أنها نشرت فعلاً ، غير أنها لم تجدها في دار الكتب ، ولم تعثر عليها عنـد احد من الوراقين .

أما جرجي زيدان فقد نشرت فصول من مذكراته في الهلال، أما مذكرات سعد زغلول فقد نشرت منها فقرات على فترات متعددة ، ونشر جانب منها في عام ١٩٦٣ في جريدة الاخبار اليومية .

أما الشيخ أبو العيون فقد صورت مذكراته معركته مع القضايا الاجتماعيـة وأهمها قضية البغاء . وكان العقاد قـد نشر فصولاً من حياته تحت عنوان : « مذكرات قلم » ، وله كتاب في سلسلة إقرأ بعنوان « في بيتي » . أمـا ثورة ١٩١٩ فقد لقيت عناية ثلاثة من الكتاب الذين سجلوها ونشرتهـا البلاغ ، وهم محمد الخضري وعبد الوهاب النجار وامين الرافعي .

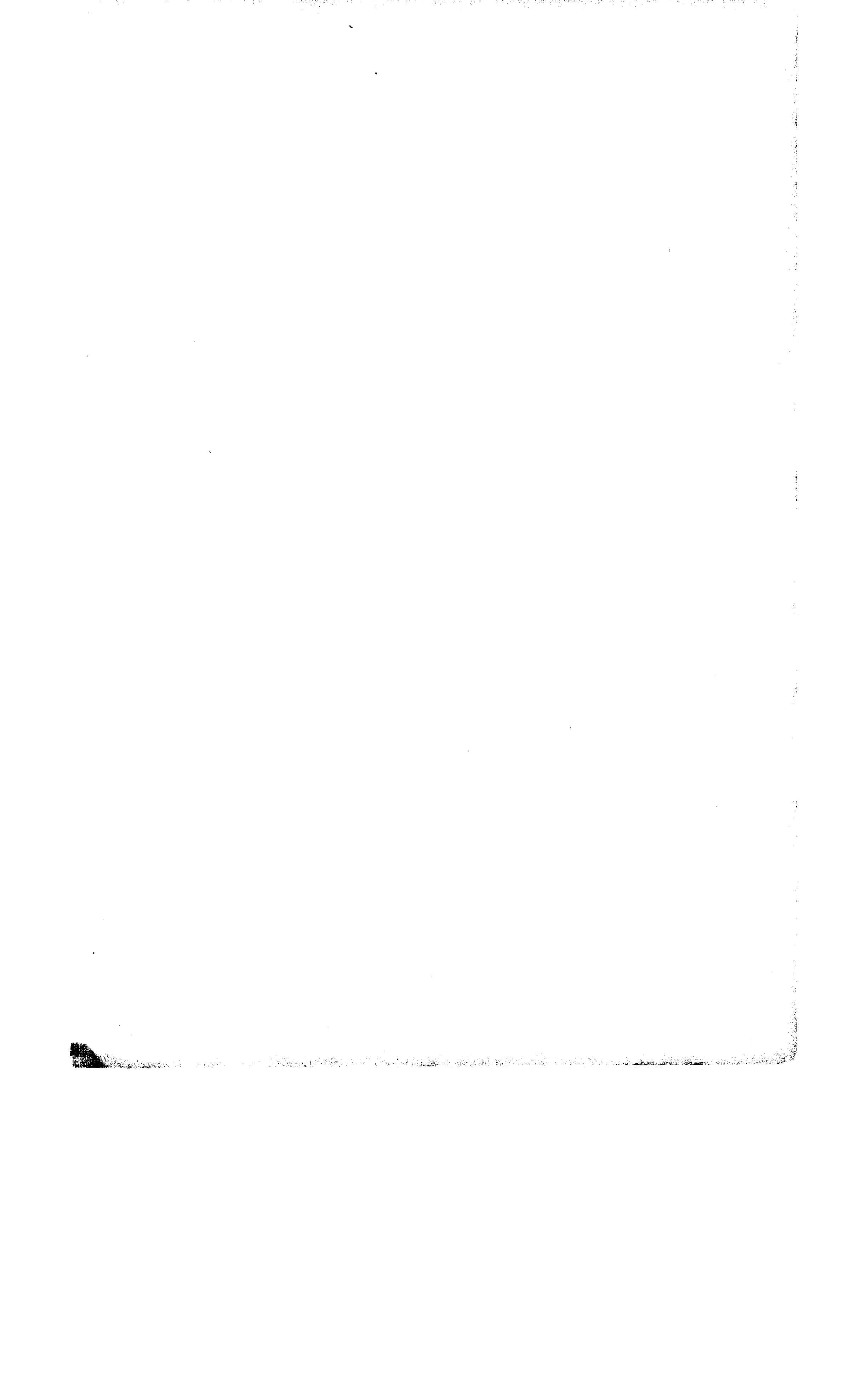
٧ — ومن هـذه المذكرات المنشورة مذكرات « احمد حافظ عوض » عن مطالع حياته الصحفية ، بدأ نشرها في ٣٠ يوليو ١٩٣٧ في كوكب الشرق ، وصور فيها كيف اشتغل بالمؤيد مترجماً بأربعة جنيهات في الشهر ، وصور كيف اشترك مع محمد فريد في إخراج مجلة الموسوعات وقد صدر العدد الأول منهـا في ١٥ نوفمبر ١٨٩٨ .

وتحدث عن اول لقاء له مع الشيخ محمد عبده ، عام ١٨٩٨ ، وكان الشيخ عبده يلقي دروس الانشاء في الرواق العباسي ، وكان الشيخ محمد عبـده يعرف الفرنسية ولا يعرف الانجليزيـة ، فكان يستعين بـه في أحاديثه مع الانجليز

والايرلنديين .

* * *

ولا شك ان هذه المذكرات جميعها تعطي صورة الحياة النفسية والاجتماعية للكاتب على نحو من الانحاء ، وعندي أن هذه المذكرات في حاجة الى دراسة واسعة تستعرض من جوانبها عرضاً شاملاً يكشف عن طوابعها ومضمونها .



كتابة الرسائل
في الأدب العربي المعاصر

« أدب الرسائل » فن قديم في الأدب العربي ، اذا كان قد تطور في ادبنا المعاصر ، فانما تطور في مضمونه واسلوبه ، وبقي يحمل خاصيته الاصلية وهي : الاخوانيات او مواصلة البحث حول شيء أو أشياء من مسائل الفكر او قضايا السياسة او الحب وقد يحدث ان يتصل الحديث عن طريق الرسائل بين صديقين امداً طويلا ، وقد يتصل الحديث بين انسان مرموق وعشرات من النــاس في عديد من المسائل والقضايا والمجاملات .

ولعل اقدم ما بين ايدينا من هذه الرسائل ، رسائل ابراهيم اليازجي واغلبها في الشوق والتعازي والشكر ، ولا تضم اشياء ذات دلالة الا في عباراتها العربية البليغة واسلوبها المسجوع، ومن الرسائل التي طبعت وأذيعت رسائل احمد تيمور الى انستاس الكرملي ورسائل الرافعي الى محمود ابوريه ورسائل رشيد رضا وشكيب ارسلان : الاولى أذاعها شكيب بعد وفاة رشيد وضمنها كتابه « رشيد رضا او اخوة اربعين عاماً » أما رسائل شكيب الى رشيد فقد أذاع قدراً منها احمد الشرباصي في دراسته عن « امير البيان شكيب ارسلان » . وقد نشر رشيد رضا عديداً من رسائل الشيخ محمد عبده في الجزء الثاني من تاريخه كما اذيعت ونشرت رسائل مي ورسائل جبران وأذاع توفيق الحكيم رسائله الى صديقه

الباريسي « أندريه » في كتابه « زهرة العمر » .

وهناك رسائل مفردة او قليلة حفظت لعبدالله فكري وعبدالكريم سليمان واحمد مفتاح وعبدالعزيز شاويش وحفنى ناصف وأديب اسحق ، نشر بعضها في كثير من المؤلفات الأدبية ذات الطابع المدرسي .

ومن أحدث هذه الرسائل التي لا تدخل في مرحلة دراستنا — رسائل أمين الريحاني التي نشرت عام ١٩٦٠ وجمعت (٤٠٠ رسالة) له الى عديد من اصدقائه أمثال سركيس وصروف وزيدان وأحمد زكي وخليل سكاكيني والشبيبي وشوقي وعلي يوسف وخليل ثابت وجبران ولطفي جمعه وعبدالمسيح حداد وساطع الحصري وفارس الخوري والرصافي وشكيب ارسلان ومارون عبود ومصطفى الغلاييني وبشر فارس وفيلكس فارس وكرد علي وخليل مطران والنشاشيبي وعبدالقادر المغربي .

وفيما عدا ذلك فان هناك رسائل قليلة منشورة صادفتنا في بطون الصحف ونحن نلم بدراسات عنها منها رسائل لسعد زغلول في مجلة كل شيء والاهرام ورسائل من احمد زكي الى شكيب ارسلان في كوكب الشرق ورسائل متعددة لأحمد زكي في الشورى .

ورسالة من رشيد رضا الى الشيخ الخضري في مجلة الرسالة .

وهناك مجموعة رسائل من اعلام متعددين الى كامل كيلاني ضمنها كتاب « كامل كيلاني في مرآة التاريخ » .

وفي مراجعة شاملة لمادة رسائل في (دار الكتب المصرية) لا نستطيع ان نعثر على شيء اكثر وقد اطلقت كلمة « رسائل » في بعض الاحيان على مقالات منوعة حين اطلقت على « الرسائل الزينبية » لزينب فواز او رسائل رفيق العظم .

وليس معقولاً أن يكون هذا هو كل محصول الرسائل في الادب العربي المعاصر ولكنه على الأقل محصول الرسائل المذاعة . اما فيما عدا ذلك فنحن نعلم ان هناك رسائل متعددة مدفونة في بطون الاضابير فان شكيب ارسلان مثلاً

على حد ما اذاع عن نفسه كان يكتب (١٧٠٠) رسالة في العام ، وقد امضى في مهجره مغترباً عن وطنه خمس وعشرين عاماً . ولم يظهر من هذه الرسائل الا ما يزيد عن مائتي رسالة هي التي حصل عليها الشرباصي في اوراق الشيخ رشيد رضا واذاع منها خمسين رسالة في كتابه . وعند السيد محب الدين الخطيب — اطال الله بقائه — فيما اعلم اكثر من هذا القدر من رسائل شكيب ، ولا بد عند الكثيرين امثال ذلك .

ويقدر ناشر رسائل امين الريحاني (الربعمائة) انه كتب اكثر من ثلاث الاف رسالة . وهناك رسائل من بيرم التونسي الى كامل كيلاني ارسلها اليه خلال فترة هجرته وفي تراث كامل كيلاني رسائل متعددة لم تنشر وقد اذكر ان منها رسائل من « حافظ نجيب » المحتال المعروف .

واين رسائل « مي » الى عشرات من الادباء ورسائلهم اليها . واين رسائل سعد زغلول ومحمد فريد وطه حسين والعقاد والمازني وكرد علي ومخائيل نعيمه وسلامه موسى ولطفي السيد وفارس الشدياق وداود بركات وجرجي زيدان وصروف .

انني اعتقد ان هناك حصاد هائل مبدد من رسائل الاعلام والكتاب والباحثين فقد كانت الرسالة ولا تزال فناً ادبياً قائماً . وهي الى ذلك مرجع تاريخي ووثيقة انسانية وفكرية بعيدة المدى والاثر . واستطيع ان اقدر هذا بالنسبة لظهور رسائل شكيب ارسلان مثلاً التي كشف عنها النقاب احمد الشرباصي في كتابه امير البيان وهي ٥٥ رسالة من ١٣٠ رسالة مخطوطة حصل عليها موجهة من شكيب الى رشيد رضا في فترة ممتدة من ١٩٢٠الى ١٩٣٥ فان مجموع الحقائق والآراء والمعلومات التي قدمتها الى الفكر العربي جديرة بالتقدير، ومن هنا تبرز مدى اهمية هذا العمل وخدمته للتاريخ العربي الذي يكتب الآن من جديد بعد انتحررت الاوطانمن القيود التي كانت تفرض عليها اخفاء بعض جوانبه . فهي تلقي الضوء على كثير من الاحداث وتضع النقط على كثير من الحروف . وفي رسائل شكيب ارسلان آراء متعددة عن الخلافة الاسلامية

والوحدة العربيــة وموقف الاتراك الكماليين من العرب وموقف عدد من الملوك والامراء والاحداث :

ثورة عبد الكريم الخطابي والظهير البربري ، وعلمــاء المغرب المتعاونين مع الاستعمار وكفاح شباب المغرب في باريس من اجل الحرية وكيفية ارسال الصحف في جيوب المسافرين الى طنجة ومراسلاته الخطيرة مع المجاهدين .

وفي هذه الرسائل رموز وإشارات وعبارات ورسوم يدوية قد اصطلح عليها حتى اذا وقعت في ايدي اخرى لا يستطيع ان تصل اليها .

وهي تعطي صورة المجاهد المغترب وهي صورة طالما بحثنا عنها في مذكرات وكتابات اعلامنا الذين هاجروا ولم يتركوا رسائل او مذكرات وافيــة ، وقد اعطتنا هذه الرسائل صورة وافية واضحة الدلالة لرجل عزيز الجاه اغترب عن وطنه وشقي بهذه الغربة وعاش في شوق لامح وعاطفة ثره لوطنه واهله وابنائه وتصور مدى العسر الذي يلقاه في المعيشة بالغربة . وكيف كلفته سياحته الى أوربا وكيف فكر في ارسال اهله ال أوربا . او بيع مزرعته في دمشق. وكيف كتب له بعض دائنيه عندما علموا انــــه انتقل الى جنيف مكاتيب مزعجة ، ينذروه بإقامة الدعوى. ووصل الامر الى رهن بعض الحلي عن أحد الجوهرجية. ومع هذا الفقر والحاجة كان صابراً محتسبــاً يكتب ويؤلف ويرسل مقالاته الى المنار والفتح وكتبه الى الحلبي لنشرها نظير جنيهات قليــلة ويحصل على النسخ فيرسلها الى الحبشة والكونغو وشرق افريقيا وجاوة والى كل اصدقائه في العالم العربي والاسلام لتوزيعها .

ومع هذا العدد القليل من الرسائل ومــــا كشف عن هذه الصورة نجد ان شكيب كان يكتب في العام من ١٧٠٠– ١٨٠٠ مكتوب اي ما يعادل ٤٥ الف رسالة في سنوات مهجره ، فاين هي هذه الرسائل وماذا يمكن ان تكشف عن حقائق وصور . فاذا اضيف اليها الوف الرسائل التي كتبهــا غيره من الاعلام ، تبدو إهمية هذا الفن المخبوء.

* * *

أما رسائل الرافعي الى ابي رية التي نشرها عام ١٩٥٠ فقد بـــدأت بينهما من عام ١٩١٢ حتى عام ١٩٣٤ ، وقد حصل ابي رية على خمسين وثلاثمائة رسالة اذاع منها ٢١٨ رسالة وان اشار في مقدمة الرسائل الى ان لديه ٢٦٢ من الرسائل التي يصح اذاعتها بين النـاس وحبذا لو ان الاستاذ قدم هذا العدد البـاقي كله من الرسائل الى الناس خدمة للتاريخ الأدبي على ما بها من آراء او مسائل خاصة. وتكشف هذه الرسائل عن جوانب كبيرة وبعيدة المدى في حياة الأدب العربي والفكر العربي . وتصحح كثيراً من الآراء وترفـع الزيف عن كثير من الصور ذات القداسة الكاذبة. فقد كشف الرافعي عن رأيه صراحة في الحياة الأوربية. وكان يتطلع الى ان يرصد نفسه وحيـاته للنقد وكشف زيف الأدب [واظن هذه البلاد في حاجة الى رجل يرصد نفسه وحياته لبيان الغلطات ويعيش دائمـاً عدواً مكروهاً في سبيل الله كما كان المرحوم امين بك الرافعي ومن الذي يقدر على هذا في شعب لا يكافىء وكان يتطلع دائمـاً الى الخلاص من الوظيفة والتفرغ للكتابة والشعر . وهو يكاشف بهجومه على المنفلوطي والعقاد وطه حسين وزكي مبارك واعجابه بشاويش والبارودي ويعقوب صروف.

وهو يصور كتابات الشيخ محمد عبده الأولى وينقدها [رأيت كتابة الشيخ ايام بـدء يكتب وهي لا تستحق ان تقرأ ولا تساوي شيئاً بعد سنة واحـدة رأيت للشيخ اثارا لا بـأس بها ولم تكن تمضي سنتان حتى تـدفق الرجل ثم استفاض بعد سنتان ثم ظهر الشيخ محمد عبـده كما عرف بعد ثمان سنين] .

وكشف عن سر عدم رثائه للزعيم محمـد فريد [فأنت لا تعرف الظروف المحيطة بي التي جعلتني ارى السلامة في السكوت ، واعلم اني لو نظمت ذلـك الرثاء كما يجب ان ينظم وفي المعاني التي تليق بـه لرأيت في الصحف خبر نقلي الى قنا او ما دونها فترك الشر ساكناً أجمل ..]

وفي الرسائل هجوم على الأدب العصري [وينبغي يا ابا رية ان تعلم اني غير مبال بأدب هذا الزمن ولا بأدبائه فلا يعنيني ان يكتبوا عن شوقي او غـيره لان النفاق غالب عليهم ولو اتفق لي منصب كبير لكتبوا عني ما لم يكتب عن احد

على ان اجهل الناس] .

وله تطلعات روحيـة فهو يتوقع موت المنفلوطي قبل موتـه بأيام [ومن العجيب أنه قبل أن يموت بأيام وقع في نفسي أنه سيموت ثم استبعدت الخاطر لأني أعرفه ممتلئاً عافية وسروراً ورضاء] .

وللحديث عن غمزاته لهيكل ولطفي السيد [لقد كانت المقـالة الماضية صاعقة على لطفي السيد أظهرت خبـاياه ونواياه وأبانت لهم أنـه فيلسوف سوفسطائي وستكون الثانية إن شاء الله أشد ..]

وله عبارات متعددة عن سقطات للكتاب ونقد لهم ، وهو دائمـاً لا يرضى عن كتاباته [فاني لا أرضى عن شيء مما أكتبه والى الآن لا أشعر أنني عملت شيئاً يسمى] وهو يصف عبدالله عفيفي بالشعرور ، وقـد هاجمه لأنه حل محله في مدح الملك .

وكان دائماً يتطلع الى أمل : ان يفرغني الله لخدمة كتابه ودينه ولغة كتابه مع تيسير أمر العيش ليجتمع البال على شيء واحد .. متى يكتب الإنسان ومتى يقرأ والعمر يتبعثر بهذه الطريقة .

وهو بالرغم خصومته لطه حسين يعرف له : أما طه حسين فليس بالضعف الذي نتوهمه وهو في أشياء كثيرة حقيق بالاعجاب كما باللعنـة ويصل الى قمـة هدفه الفكري في رسالة مؤرخة ١٦ ديسمبر ١٩٣٠ « مصيبة هـذا العصر في الأدب أنه مفلس ناقد ، متفرغ للنقد ، مستجمع أسبابـه بصير بمذاهبه متحقق بكل رسائله . فلو وجد مثل هـذا وأمكنه أن يجد عيشه من عمله الأدبي لهدم وبنى في بضع سنين . مـا لا يفعل مثله مجموع كبير من الأدباء في عصور كثيرة ولكن البلاد ميتة فيست فيها الحياة التي تخرج مثل هذا الامـام وتكفيه وتقوم به فليكن ما هو كائن » .

ويهاجم زكي مبارك ويقول .. انه يكتب للبلاغ بأجر رخيص جـداً وهذا هو الذي يهم البلاغ فلا يزيد إسقاطه . ومن أجل هـذا عزمت إن شاء الله على وضعه في السفود .

ويهاجم العمل في الصحافة « لا تنسى لن الصحافة إنما هي في يد الذين ذكرتهم وان مثل طه حسين أو هيكل والعقاد لا يمكن أن ينصفونا ما دامت الصحافة في أيديهم فهم يكتبون ما شاءوا حقاً وباطلاً .. والعالم الإسلامي مخذول في هذا العصر بدليل أنه ليس له ولا جريدة واحدة من الجرائد الكبرى .

ولو عرفت يا أبا ريه الصحف وأهلها لرأيت أن العمل فيها من أشق الأعمال على النفوس الكريمة فهذه ليست صحفاً وإنما هي حوانيت تجارة . وأنا أفضل عشرة جنيهات في الحكومة على عشرين في جريدة عربية لهذه العلة .

وهاجم رأي هيكل في الاسراء «العجيب انه لم يكتب هذه الكتابة الا بعد ان صدر الكتاب الفرنسي فهؤلاء قوم مستعمرون من عقولهم. ورأيه في الاسراء لا قيمة له البته » .

وعنده ان شوقي أشعر من البارودي،لأن البارودي لا يزيد علىقوة الاسلوب وفخامته ولكن الشعر في معاني شوقي ومواضيعه .

وفي نقده للعقاد يقول : كتبت رداً طويلاً جعلناه كالفخ للعقاد فاني اظهرت غلط النحاة وتركت له ان يجيب هو عنهم لنرى كيف يتخبط في هذا الباب .

وعنده ان لا بد للأعمال الادبية من جو روحي خاص اذا لم يجده العامل فخير له ألا يعمل شيئاً .

ورأيه في هامش السيرة انه تهكم صريح .

* * *

وتصور رسائل الرافعي في جملتها رؤوس موضوعات اهم احداث الأدب وتطوره في خلال فترة تزيد عن ربع قرن . بابحاثها ودراساتها . ومؤلفاتها وأعلامها من وجه نظر الرافعي الى الحياة الأدبية . وهي نظرة الناقد المعارض القوى المعارضة في خصومته للاتجاه المنحرف عن الايمان بالعروبة واللغة العربية والثقافة الاسلامية ومقومات الشخصية العربية والقيم والمقاييس والمثل العليا .

وهي تتناول النثر والنظم والنقد والترجمة وفنون البلاغـــة واللغة ترصد اعماله في التأليف والكتابـــة في المجلات ووجهـــة نظره في عشرات من الادباء والمؤلفات والابحاث . وتبسط صورة الكاتب المتحدي القوي الايمان بما يعتقد . الواضح الاتجاه في تقويمه لكل عمل من اعمال الكتاب وآثارهم .

(٣) وهناك رسائل احمد تيمور الى الأب انستاس الكرملي :

نشرت عام ١٩٢٠ وهي عبارة عن ٥٥ رسالة من تيمور الى الكرمـــلي في الفترة ما بين ١٨٩٦ الى ١٩٣٠ وكان كركيس عياد قد حصل على مجموعة الرسائل التي ضمتها خزانة الكرملي في الفترة من ١٨٩٦ الى ١٩٤٤ الواردة اليه من عشرات الاعلام في العراق وسوريا ولبنان وفلسطين والحجاز ومصر وإيران . ومنهـــا رسائل اعلام المستشرقين أمثال : مرحلبوث ولامنس ومسنيون وهي في مجموعها تضم كثيراً من النكات الأدبية والآثار والملاحظات في اللغة والأدب والتاريخ .

وابرز هذه الرسائل تبادلها مع احمد زكي باشا ، احمد تيمور ، محمود شكري الالوسي ، شكيب ارسلان ، كرد عـلي ، الكاتبة مي ، لويس شيخو ، عيسى اسكندر المعلوف ، يعقوب صروف ، مصطفى جواد .

واغلب رسائل تيمور الى الكرملي اجابات عن طلبات باستنساخ فصول من كتب ، وحديث عن الوراقين والمكتبات وفيها ذكر للخزانة الزكية حيث لم يتيسر البحث لتيمور في الكتب لأنها بعد نقلها الى قبة الغوري لم تزل مكدسة بعضها فوق بعض . وذكر لمعجم العامية المصرية التي يشتغل تيمور في اعداده ، وجمع الالفاظ العامية العراقية ومجلة لغة العرب للكرملي .

وفي الرسائل احـــاديث عن الشيخ طاهر الجزائري ومحب الدين الخطيب والمكتبة السلفية وتوفيق اسكاروس رئيس القسم الافرنجي بدار الكتب .

والكتب المطبوعة في اوربا وأهمها نشوار المحاضرة وابن ماجـــد ، وكيف عني تيمور بمراجعة كتاب نشوار المحاضرة الذي طبعه المستشرق مـــار جليوث وبعث اليه بالاخطاء لايرادها في الطبعات التالية واحاديث عن مطبوعات الهند وبغداد ومصر .

وفي كل رسالة يتحدث تيمور عن كتاب جديد دخل خزانته فهذا كتاب مخطوط غريب الموضوع لأنه من نمط الالفاظ الكتابية غير أنه مسجع في اغلب العبارات وقد ضاعت ورقته الأولى .

وهنا كتب جديدة صدرت مثل حلبة الفرسان شعار الشجعان في الخيـــل وفنون القتال لابن قنديل الاندلس . وهناك حديث عن يوسف اليان سركيس وكيف احضر فوتغرافياً لنقل الكتب بدلاًمن نسخها وحديث عن معلمة الاسلام والاستاذ الالوسي .

وفي نوفمبر ١٩٢٢ جرى الحديث عن نقل الخزانة التيموريـة من قويستا الى دار تيمور باشا الجديدة في الجزيرة : شارع شجرة الدر . وقـــد وردت النقلة الأولى « وانا غارق في الاتربة مستغرق الاوقات في الترتيب ومراعاة الارقـام ولا ادري متى اخلص حتى اسافر لجلب النقلة الثانية فالثالثة فالرابعة .

(٤) اما احاديث الشيخ محمد عبده التي جمعها رشيد رضا في الجزء الثاني من حياة الامام فهي انواع :

● رسائل اصلاحية ودينية الى العلماء والقضاة تتناول عشرات من الفتاوى والمسائل .

● رسائل ودادية كتبها في سجن القاهرة متهماً في الحوادث العرابية عـام ١٨٨٢ والى جمال الدين الأفغاني في بيروت والى سعد زغلول وعلي الليثي .

● رسائل فكاهية هزلية الى الشيخ عبد المجيد الخاني في دمشق .

● عشرات من الرسائل الى اعلام الفكر والأدب في فاس والمغرب الأقصى والشام والى تولستوي والزهاوي والقاسمي ومصطفى عبد الرازق وفرح انطون وعبد الرازق البيطار وسليمان البستاني وحافظ ابراهيم .

* * *

وبعد فان محصول الرسائل الذي بين ايدينا قليل قلة لا تتناسب مطلقاً مع حقيقته . ويرجع ذلك الى ان اصحاب الرسائـل يرون في نشرها كشف لبعض

الاسرار التي قد تتعلق بحياة الاحياء من ذوي الشأن والمكانة وأغلب هذه الرسائل تركت بعد وفاة اصحابها ولم يعرف السلف قيمتها فضاعت او بددت .

وقد تطورت اساليب هذه الرسائل من ناحية الاسلوب والمضمون . حين تحولت من السجع الى الترسل . ومن المجاملات والتحيات الى بحث المسائل والأمور على النحو الذي تكشف عنه هذه النماذج .

١ – من رسائل ابراهيم اليازجي الى صديق

ما زلت ادافع النفس فيما تتقاضاني من شكوى أشواقها ، وفي الشكوى شقاء وأستنزل أثراً من ذلك تتعلل به مسافة البين الى ان يمن الله باللقاء، ومن دون اجابتها مشادة قد شغلت الذرع ، وشواغل قد فرغ من دونها الوسع ، الى ان غلب جيش الوجد على معاقل الصبر. وزاحم مناكب العدواء حتى ضرب أطنابه بين الحجاب والصدر ، فاتخذت هذه الرقعة التي أزجيها اليك وفيها من وفر الشوق ما ينوء برسولها ومن رقة الصبابة ما يكاد يطير بها او يخلفها فيصافح الاعتاب قبل وصولها راجياً لها أن تتلقى بما عهد في سيدي من الطلاقة والبشر ، وان لا يضين عليها بما عودني من تمهيد العذر ويصلني من بعدها بانبائه الطيبة عائدة عنه بما يكون للناظر قرة وللخاطر مسرة ان شاء الله .

٢ – من رسائل احمد تيمور الى انستاس الكرملي :

سيدي الحبيب

وصلني كتابك ، فأشكر لك عطفك علي وعنايتك بي ، وإن كان هذا غير مستكثر على صديق مثلك بلوتـه في السراء والضراء . وقد أوصل صديقنا سركيس مقالتك النفيسة للمقتطف وربما ينشرها في جزأين .

وقد وصلني ايضاً كتابك للاستاذ صروف وللصديق سركيس فأوصلتها في الحال اليها وكان معها كتاب مولانا الامام الألوسي لي ، فرجائي ان ينوب عني سيدي في إبلاغ سلامي وشكري له ، أطال الله حياته وأدام النفع به، وكذلك

سلامي للفاضل السيد بهجة الأثري . لم تزل صحتي تمنعني من العود الى الاشتغال وإن كانت قد تحسنت الآن تحسناً عظيماً . إلا أن للاطباء تحكمات ولا بد من النزول على أحكامهم ، فلا عمل لي الآن إلا في مطالعات سطحية لا قيمة لها في نظري . سلامي لسيدي كثير وأشواقي اليه أكثر .

حفظه الله ورعاه   (٢٠ مارس ١٩٢٤)

٣ — من سعد زغلول الى محمد عبده :

مولاي الافضل ووالدي الأكمل أحسن الله معاده

بعد تقبيل الأيدي الكريمة ، قد ورد الكتاب الكريم على طول تشوقنا اليه فتلوناه ووعيناه في الفؤاد ، وحمدنا الله تعالى على أنكم شرفتم تلك الديار سالمين ، مبالغاً في إكرامكم والاحتفال بكم ، من كرام أعيانها المسلمين ، وأماجد نبهائها المؤمنين ، جزاكم الله عن كل مصري يعرف مقداركم خير الجزاء .

ولهم منا معشر اتباعك ومريديك بما تقبلوك به من كريم الاحتفال وعظيم الإجلال ، ألسنة مرطبة بالثناء عليهم ، وضمائر مطوية على مزيد احترامهم وفائق تعظيمهم ، أما فكري فقد تولاه الضعف من يوم أن صدع الفؤاد بالبعاد . وتمثلت منه بعد تلك الحقائق التي كانت تجلو مطالعها معان نعرفها ، أوهاماً يضيق بها الصدر ولا ينطلق بردها اللسان ، مخافة فوات مرغوب او لحاق مكروه مما تعلمون .

الحال العمومية على ما تركتها . غير أن الناس أخذوا في نسيان ما فات من الحوادث وأهوالها . وقلَّت قالتهم فيها وخفت شماتة الشامتين منهم .

مولاي : ذكرت لحضرتكم أن الضعف ألم بفكري فبالله إلا ما قويته بتواصل المراسلة غير تارك فيها ما عودتنا على سماعه من النصائح والحكم التي نهتدي بها الى سواء السبيل.

وفقنا الله لمتابعتك ولا اطال على البلاد مدة غيبتك،انك أمامها وإن اقتدت

بغيرك ومحبها الصادق وإن لم تعرف بقدرك .

سعد زغلول

٢٤ ربيع الآخر ١٣٠٠ هـ

٤ – من رسائل الشيخ محمد عبده في السجن :

عزيزي

[تقلدتني الليالي وهي مدبرة كأنني صارم في كف منهزم] .

هذه حالتي ! اشتد ظلام الفتن حتى تجسم بل تحجر ، فأخذت صخوره من مركز الأرض الى المحيط الأعلى . واعترضت ما بين المشرق والمغرب وامتدت الى القطبين فاستحجزت في طبقاتها طباع الناس ، إذ تغلبت طبيعتها على المواد الحيوانية فأصبحت قلوب الثقلين كالحجارة أو أشد قسوة .

انتثرت نجوم الهدى وتدهورت الشموس والأقمار وتغيبت الثوابت النيرة وفر كل مضيء منهزماً من عالم الظلام ، ودارت الأفلاك دورة العكس ، ذاهبة بنيراتها الى عوالم غير عالمنا هذا ، فولى معها آلهة الخير أجمعين . وتمحضت السلطة لآلهة الشر فقبلوا الطباع وبدلوا الخلق وغيروا خلق الله ، وكانوا على ذلك قادرين .

رأيت نفسي في مهمة لا يأتي البصر على أطرافه . في ليلة داجية غطى فيها وجه السماء بغمام سوء . فتكاثف ركاماً . لا أرى إنساناً ولا اسمع ناطقاً ولا أتوهم مجيباً . اسمع ذئاباً تعوي وسباعاً تزأر ، وكلاباً تنبح كلها يطلب فريسة واحدة ، هي ذات الكاتب ...

كتابة التاريخ في الأدب العربي المعاصر

هذا فن ثري اتسع نطاقه في الادب العربي المعاصر ، وعمل في ميدانه عديد من الاعلام واستطاع ان يجلي جوانب كثيرة من تاريخ مصر والامة العربية والعالم الاسلامي . وتميز بظهور عدد من رجال الموسوعات امثال : احمد شفيق ، محمد صبري وسليم نقاش وعبدالرحمن الرافعي (التاريخ القومي) علي مبارك وكرد علي (الخطط) ومحمد عبدالله عنان (التاريخ الاسلامي) واحمد كمال وسليم حسن (التاريخ الفرعوني) امين سامي (تقويم النيل) .

وهناك عدد آخر من كتّاب التاريخ أمثال: محمد رفعت وعبد الحميد العبادي وحسن الشريف وشفيق غربال وعبد القادر حمزة وحافظ عوض وداود بركات والياس الأيوبي وعبد الرحمن زكي وعمر طوسون . ثم يجيء كتّـــاب التمدن والتراجم العامة والملاحظات التاريخية أمثال عزيز خانكي وجرجي زيدان وهيكل وعلي ادهم .

وأقدم هذه الموسوعات « الخطط التوفيقية « لعلي مبارك (١٨٢٣–١٨٩٣) سار فيها مسار (خطط المقريزي) الذي سبقته بأكثر من ٤٥٠ عاماً ، في ٢٠ جزءاً (خمس مجلدات) تبلغ الفي صفحة .

وقد صور علي مبارك هدفه من العمل فقال « اعتنى المتأخرون ببيان خطط بلادهم وديارهم وتبعهم من بعدهم على آثارهم لا سيما أهل الديار المصرية»وأشار الى جهد المقريزي (وممن شمر الذيل في ذلك واشتد في السعي حتى بلغ الغاية وسابق فرسان هذا الميدان نابغة زمانه الشيخ الامام علامة الانام تقي الدين احمد بن علي بن عبد القادر بن محمد المعروف بالمقريزي طيب الله ثراه فانه رحمه الله بين خطط القاهرة في زمانه أتم بيان وأضاف « ثم لما تقادم الزمن واستدار ودارت على مصر في الاعصر الخالية دوائر الاهوال والاقدار فاكفهر نجمها وحال حالها» واشار الى أنه تطلع الى هذا العمل وحاول ان يكلف به من يقوم به فلما لم يتحقق ذلك ، أعد نفسه لهذا العمل وجمع لذلك « الكتب العدة واستعد له بكل عدة ووضع خطط المقريزي امامه وبدأ هذا العمل الشاق فصار يذكر في كل مكان من اماكن القاهرة خطته القديمة واسمه وشهرته ثم يعقبه بذكر ما تحولت اليه في وقته .

وقد راجع في سبيل هذا العمل كتباً كثيرة ورسوماً متعددة ، راجع كل ما كتب العرب والافرنج الذين ساحوا في تلك الديار ورسومهم التي بينوا فيها حدود تلك الاقطار وكذلك حجج الأوقاف والأملاك وما وجد مسطوراً على الاحجار والجدران « ملخصاً من ذلك ما يحتاج اليه ولا يحسن جهله بحسب الامكان ولم أزل على ذلك مدة من الزمان » .

وقد وضع في كل بلدة من البلدان التي أوردها تراجم من أحاط به الاطلاع ممن نشأ فيها واستوطنها أو أقام فيها أو دفن فيها أو له مناسبة بها من أعلام العلماء والأمراء ومشاهير الرجال . وقد بدأ من القاهرة قبل قدوم « جوهر الصقلي » على ترتيب حروف المعجم .

ويرى محمد عبدالله عنان ان الخطط التوفيقية : أتم وأوفى من خطط المقريزي وأنه تتبع تاريخ الخطط في ظلمات العصر التركي وحقق المعالم والآثار والمواقع والآثار القديمة في ضوء الاطلال الدارسة والمنشئات المحدثة التي يفصلها عن الماضي قرون طويلة ، وقد استطاع تحقيق المواقع والمعالم ومقارنتها بما كانت عليه في

الماضي . كما تناول جميع المدن والقرى المصرية بافاضة .

(٢) وفي دراسات الخطط تأتي بالتـالي « خطط الشام » لمحمد كرد علي التي صدرت عام ١٩٢٥ أصدره في ستة أجزاء ضمت ١٩٤٤ صفحة كبرى وكان كرد علي قد نشر عام ١٨٩٩ في مجلة المقتطف فصولاً عن عمران دمشق نالت الاستحسان « فوقع في النفس يومئذ أن أتوسع في البحث وأدرس عمران الشام كله » .

يقول كرد علي : فشرعت من ثم أتصفح كل مـــا ظفرت به من المخطوطات والمطبوعات باللغات العربية والتركية والافرنسية ، وقصدت دور الكتب الخاصة والعامـة في الشام ومصر والمدينة والمنورة والاستانة وروميـــة وباريز ولندرا واكسفورد وكمبردج وليدن وبرلـين وميونيخ ومجريط والاسكوريال ، وكنت كلما استكثرت من المطالعة تتجلى أمامي صعوبة العمل الذي وطدت العزم على وضعه ..

وأشار الى أن التضييق السياسي عليه نشأ منه اضطراره الى الارتحـال غير مرة « فأخذت استقرىء المعالم والمجاهل في هذا القطر ، ونزلت على أمم كثيرة في بلاد الغرب فاستفدت من نقلي بعض ما عندهم من اسفارنا وآثارنا .. » .

وأضاف كرد علي الى رحلاته المتوالية الى دور المخطوطات في أوربا ، زياراته لأصقاع الشام ليقابل بين حاضره وغابره .

وقـد تكلم في موسوعته الكبرى عن كل مدينة وبليدة وقريـــة ومزرعة وجبل وواد ونهر وبحيرة وخليج وجون ، ورتب ذلـــك على حروف المعجم ليسهل الرجوع اليه وليكون دليلاً للقريب والبعيد .

واشار الى ان « الشام » في دراسته هي القطر الممتـد من عريش مصر الى الفرات ومن سفوح طوروس الى اقصى البـــادية الى سورية وفلسطين . واراد بالخطط كل ما تناول العمران والبحث في تخطيط بلد بحث في تاريخه وحضارته ، وعنده أن الخطط موضوع جليـل يتعين الاحاطة به على كل من يجب ان يعرف بـلاده .

وقد لاحظ كرد علي أن الغربيين قد كتبوا عن سوريا أبحاثاً ضخمة متعددة

تضمنت خططها وتاريخهـــا واقتصادياتها وعادياتها ، وانهم على حـــد تعبيره « استنفضوا كل بقعة من بقاعنا ومدينة من مدننا وبادية من بوادينا وأجادوا في وصف مادتها وطبيعتها ومصانعها » وانهم كتبوا في الفترة مـــا بين ١٨٠٥ – ١٩٠٣ (٩٥ كتاباً فقط) في آثار البتراء (وادي موسى) على حـين قل جداً من الشاميين أنفسهم من زار هذه الخرائب المهمة .

وقال : إن البحث أجهده وخـــاصة في بعض الأدوار المتأخرة « لأن المتأخرين زهدوا في التاريخ حتى كادوا لا يفرقون بينه وبين أقاصيص العجائز » وأشار الى أنـــه عنى في التاريخ السياسي أن يقلل الحوادث وتسلسل الكوائن ودواعي الأحوال الغربية والبعيدة واستخراج النتائج واستنباط القوانين .

وقد أورد كرد علي لموسوعته ٦٩٥ مرجعاً منها ٥٥٩ مرجعاً بالعربية والباقي بالتركية والفرنسية وقد ضمن الأجزاء الثلاث تاريخ الشام منـذ بدء الخليقة الى الحرب العالمية الأولى ١٩١٩ .

ثم تناول في الأجزاء الثلاث الأخرى : التاريخ المدني وضمنـه العلم والأدب والفنون الجميلة والزراعة والتجـــارة والجيش والجبايـــة والخراج والأسطول والأوقاف والحسبة والبلديات والموانىء والطرق والهندسة والمصانع والبريـــد والقصور والقـــلاع والبيع والكنائس والمساجـــد والمدارس والمستشفيات والبيمارستانات ودور الكتب .

* * *

تأتي الموسوعات التاريخية في الدرجة التالية بعد الخطط وأبرزها :

- حوليات مصر السياسية : لأحمد شفيق
- تاريخ الحركة القومية : عبد الرحمن الرافعي
- تقويم النيـــل : أمين سامي
- مصر القديمـــة : سليم حسن

(١) أما الحوليات فهي في – تقدير أحمد شفيق باشا عمل جديد – في كتابة

التاريخ العربي وانها وضع حديث في الشرق ، لم يطرقه طارق قبل اليوم اقتبسه من أهل الغرب « لأن التاريخ – في الشرق – لا يزال مقصوراً على سرد حوادث الأزمان الغابرة ، وتدوين الحوادث الجارية التي لا تدونها غير الجرائد فجعل الغربيون هذه الحوليات كأنها جريدة الجرائد ، تحوي حوادث العام في مجلد واحد يسهل اقتناؤه وحمله » .

والواقع أن التاريخ العربي الإسلامي القديم كتب في الأغلب بطريقة الحوليات وكذلك تاريخ الجبرتي – والمعتقد أن الجديد في طريقة أحمد شفيق هو تميزها بالتحليل والترابط ، وعندي أنه قد احتفظ في هذه الحوليات بوجهة نظره الى الأحداث وانها لم تكن مجردة على النحو الذي يجعلها سرداً للأحداث .

وقد اتجه أحمد شفيق الى هذا العمل مؤمناً بدعوة أستاذه في معهد العلوم السياسية في باريس وما نصحهم به « إنه سيعود كل منكم الى وطنه وفي نفسه حاجة للاشتغال بتاريخ بلاده ، فإذا تقدم أحدكم لوضع تاريخ فليجعل همه الأول التجرد من كل تحزب او تعصب . وان لا يكون له ضلع مع فئة دون أخرى ، وان يتحرى الصدق في الرواية وتمحيص الحوادث ، وان لا يلهيه التفصيل عن الاجمال ، بل يسرد الحادثة ويشفعها ببيان عللها واسبابها وانتقاد اربابها فينبه الى موضع ما ارتكبوه من خطأ ، وما اتوه من صواب ليكون التاريخ عبرة من اهل الزمن الغابر لأهل الزمن الحاضر » .

يقول شفيق باشا « وعندما انغرست في نفسي هذه الفكرة وتمت ، تطلعت للاشتغال بتاريخ بلادي اتتبع الحوادث وارصد الاخبار واقيد الروايات، واستجمع الوثائق ، وساعدني على ذلك اني تقلبت في وظائف سهلت علي الوصول الى تحقيق الغرض منذ درجت في عام ١٨٨٠ ومكنتني من مخالطة أولياء الأمور من الكبراء والوزراء » .

وقد بدأ احمد شفيق هذه الحوليات عام ١٩٢٤ مرتبطة بحدث كبير في تقديره إذ ذاك – وهو انعقاد مجلس النواب المصري « فاصبح عام انعقاده عاماً تاريخياً في حياة الأمة المصرية » .

وحوليات احمد شفيق مصرية خالصة لا تتطرق الى احوال العـــالم والعالم العربي الا بقدر اتصالها بها ، وقد قدم للموسوعة بتمهيد طويـــل (في مجلدين) يصور تاريخ مصر منذ عهد محمد علي حتى عام ١٩٢٤ وقـد استمر في كتـــابة الحوليات حتى عام ١٩٣٠ فاصدر تسع مجلدات ضخمة .

وقد صور منهجه في البحث فقال « ان الوقائع التاريخية في الحقيقة لا تدون على الوجه الاكمل اثناء وجـود المعاصرين لها ، ولا في كنف الاحوال والمصالح المختلفة التي تكتب في خلالها ، وانما يكون تدوينهـا اكثر كمالاً وأقرب للصحة بقدر بعدها عن الجيل الذي تدون فيه ليكون الذين لعبوا ادوارها قد مضوا ، واصبحت آثار اعمالهم غير متغلغلة في الحياة والمصالح الحاضرة ، ومن اجل هذا فهو بهذه الحوليات انمـا يعد العدة لكي يجعل من الميسور ان يستعرض الباحثون والمؤرخون هذه الأحداث وأنها محاولة لتقديم تاريخ هـذا العصر بكيفية تحفظ الحوادث التي شاهدوها قريبة المنال من اطلاعهم ، ويقول « لعلى بانتهاجي هذا النهج أعين مؤرخي المستقبل في عملهم بتقديم زبـــدة من الحوادث والوقائـــع والوثائق التي يصح ان يرجعوا اليها بـــدل التجائهم الى مطولات الصحف .. » وعنده ان تسجيل الحوادث السياسية وعدم التحيز فيها مهمة شاقة » .

والواقع ان الحوليات تعد من الدعامات القوية بالنسبة لتفاصيل التاريـــخ المصري في هذه الفترة .

ولا شك ان احمد شفيق قدم للتاريخ المصري العربي عملاً ضخماً بحولياتـــه ومذكراته في نصف قرن وكتابه (اعمالي بعد مذكراتي) فهي في مجموعها تلقي اضواء كبيرة على هذه المرحلة من الحياة السياسية المصرية .

(٢) اما تاريخ الحركة القومية فيتميز بأنه ليس حوليات ولا مذكرات وانما هو عمل تاريخي متكامل مرتبط منذ فجر هذه الحركة في أواخر عصر المماليك حتى آخر مرحلة وقف عنها المؤرخ عبد الرحمن الرافعي وقد كان الكاتب حفياً بأن يكتب في الاصل تاريخاً لمصطفى كامل والحركة الوطنية التي حمل لوائها غير أنه رأى أن ذلك لن يحقق على النحو المرغوب فيه الا إذا بدأه منذ فجر الحركة

القومية نفسها .

يقول «فكرت منذ عدة سنين سبقت١٩٢٦(وهو تاريخ ظهور الحلقة الاولى من الموسوعة)ان أضع تاريخاً للزعيم مصطفى كامل باعتبار انه باعث الحركة الوطنية الحديثة، ولكني رأيت أن تاريخ مصطفى كامل يستتبع الكلام منذ مبدأ ظهور الحركة القومية والتطورات التي تعاقبت عليها، فأخذت أدرس الادوار التي تقدمت عصر مصطفى كامل لأقف عند حد يصبح اعتباره مبدأ الحركة القومية ، ورأيي أن الروح القومية بدأت تظهر في البلاد منذ أواخر القرن الثامن عشر وانتهيت الى أن أول دور من أدوارها هو عصر المقاومة الاهلية التي اعترضت الحملة الفرنسية في مصر ثم تطورت الفكرة عندي من تاريخ مصطفى كامل الى تاريخ أدوار الحركة القومية من تاريخ مصر الحديث » .

وقد شغف عبد الرحمن الرافعي منذ صباه بالتاريخ وهو عنده « مدرسة لتقويم أخلاق الشعب والنهوض به في ميدان السياسة والقومية » يقول : « وقد تكشف لي مع الزمن نقائص كثيرة في مجتمعنا وأخلاقنا وثقافتنا ، فوجدت أن التاريخ وسيلة تلجأ إليها أرقى الأمم لتربية الأخلاق وتثقيف العقول وغرس روح الوطنية في النفوس » ومن هنا جاء تعلقه بالتاريخ حيث أراد أن يجعل منه عملاً يؤدي الى النهوض بالمجتمع .

وقد وجه عنايته أساساً الى تاريخنا القومي « أقصد تاريخ مصر كوطن وتاريخها كأمة لها أهداف تنشدها » فهو يتناول تاريخها الحربي وتاريخها الاقتصادي وتاريخها الاجتماعي .

وهو يؤمن بأن الحاضر في الغالب ليس إلا استمراراً للماضي ، ونتيجة مرتبطة بمقدماتها وكذلك شأن المستقبل .

ولم يكن هذا العمل وليد اللحظة ولكنه فكرة العمر فقد ظل سنوات يفكر ويقدر ويتهيب تنفيذ المشروع خشية ألا يتمكن من مواصلة إتمامه واخراج حلقاته كلها حلقة بعد حلقة . الى أن أبعد من الحياة النيابية عام ١٩٢٦ وانقطعت صلته بها وأصبح – على حد تعبيره – عاطلاً عن العمل الذي أعد له

نفسه منذ صباه ، ثم اعتزم أن ينقطع الى جانب عمله في المحاماة الى تنفيذ الفكرة التي كانت تعاوده ، وقد اقتضى هذا العمل منه التفرغ الشامل ، ومـا يزال عبد الرحمن الرافعي يعمل في دأب خلال سبع وثلاثين عاماً لم يتوقف .

وقد غطى هذا العمل جوانب ضخمة من تاريخنا السياسي وأتاح للباحث مراجع شاملة دقيقة وإن كان الرافعي في تواضعه الجم يقول : « لست مدعياً اني وفيت الموضوع حقه وكفايته من الدرس والبحث ، فإني مقر بأن هذا التاريخ بعيد الأفق واسع المدى ، يحتاج الى دراسة متصلة في مستفيضة ومؤلفات عديدة .. »

والواقع ان عبدالرحمن الرافعي كان جريئاً صادق الايمان بعمله حين وصل الى مرحلة الحرج ، فقد كتب تاريخ اسماعيل في خلال حكم فؤاد وكتب تاريخ فؤاد في خلال حكم فاروق ، ومع ذلك فقد استطاع ان يكون صادقاً مع نفسه اكبر مدى مستطاع ، وكان لذلك صدى بعيد المدى فقد قوطع كتابه ورفضت وزارة المعارف — اذ ذاك — ان تقتنيه ، ولعله قد اصابه الكثير من المتاعب في حياته العملية وموقفه السياسي ، ولكن ذلك لم يزعجه ولم يزعزع ايمانه ، كما جرت محاولات لاغرائه دون جدوى .

يقول « سألني سائل : بأي روح ستكتب عن الخديو اسماعيل بالذات . قلت : سأذكر ما له وما عليه ، فقال سائله : لا تكن غبياً ويلزمك ان تراعي الظروف ولاحظ انك ستخرج كتابك عن اسماعيل في وقت يجلس على عرش مصر ابن اسماعيل ، وان الملك فؤاد يهتم باحياء ذكرى والده ، ويوحي باخراج كتب عنه في تمجيده ، وينفق في سبيل ذلك اموالاً طائلة ... » .

ورأى الرافعي انه لو اتصل بمكتبات القصر لدراسة وثائق عصر اسماعيل وكانوا يرحبون بذلك ، سيكون في حرج من أن يقول كلمة الحق ، ولذلك آثر الا يفتح هذا الباب وان يمضي في عمله وفق ما يرضي ضميره .

واذا كان هناك ما يؤخذ على موسوعة الحركة القومية فهي غمطها لحق رجلين اعتقد أن دافعهما كان العمل الوطني الصادق مهما بلغ الخطأ بتصرفاتهما وهما :

احمد عرابي ومهدي السودان .

وقد ضمت موسوعة التاريخ القومي قصة هـــذا التاريخ منذ اوائل حركة المقاومة للحملة الفرنسية وتدرجت بولاية محمد علي وعصره ، وعصر اسماعيل ، والثورة العرابية ومصر والسودان في اوائل الاحتلال ومصطفى كامل ومحمـــد فريـــد وثورة ١٩١٩ وفي اعقاب الثورة المصرية ثم صدر له اخـيراً مقدمات ثورة ١٩٥٢ » .

(٣) اما « تقويم النيل » لامين سامي باشافقد كانت وجه النظر في اعداده « هي وضع تقويم للنيل يتضمن تحاريقه وفيضانه منذ عـــام ٦٢٢ م الى ١٩١٤ معتمداً في ذلك على ما دونه مؤرخو مصر الذين احسنوا صنعاً مع ذكر شذرات تاريخية عن الواقعات الصحيحة التي حصلت بمصر في العصور التي خلت، وايضاح النتائج التي ترتبت على تكيفات النيل وعلى تأثير تلك الحوادث في اراضي القطر المصري وسكانه .. »

وقد بلغ تقويم النيل في أجزائه الثلاثة ومجلداته الخمس حوالي ٢٥٠٠ صفحة من القطع الكبير في عصور حكم محمد علي وعباس وسعيد واسماعيل ..

وقد قدمه على هذا النحو : « تقويم النيل وأسماء من تولوا أمر مصر ، ومدة حكمهم عليها وملاحظات تاريخية عن أحوال الخلافة العامة وشؤون مصر الخاصة عن المدة من ١٥١٧ – ١٨٤٨ ميلادية بما في ذلك عصر محمد باشا مقرراً بوثائق لم يسبق نشرها في أي كتاب » .

طبع الجزء الأول ١٩١٧ والجزء الثـاني ١٩٢٨ والجزء الثالث ١٩٣٦ يقول أمين سامي في تقويم عمله : هذا كتاب ضمنته ثمرة أتعابي مـــدة نصف قرن من الزمان كاتباً منقباً مجتهداً في جمع الحقائق التي تهم الناس ومعرفتها مقتحماً كل ما اقتضت الحال مشقة الأسفار الى خزائن الكتب في حواضر أوروبا رغيرها.

وقد اضطره هذا الى مراجعات في كتاب النجوم الزاهرة عن جدول تحاريق وفيضان النيل المطبوع بمطبعة بريل في مدينة ليدن ١٨٥١ ولما كانت باقي أجزائه ليست موجودة الا في مكتبة باريس فقد سافر الى أوروبا ضيف ١٩٠٣ لهـــذه

الغاية ووجد في المكتبة الأهلية بباريس أجزاء من هـــذا الكتاب بخط المؤلف وأجزاء منسوخة من الأصل .

كما ضمن هذه الموسوعة (١) شذرات تاريخية عن أحوال الخلافة العامة شؤون مصر الخاصة . (٢) النتائج التي ترتبت على تكيفات النيل وعلى تـــأثير تلك الحوادث في أرض مصر . (٣) ثبت بأسماء الخلفـــاء والسلاطين وعمـــالهم بمصر وأحوال الخلافة وشؤون مصر الخاصة .

وقد كلفه هذا العمل مجهوداً ضخماً فقد بدأه مبكراً منذ أوائل القرن تقريباً وكان إذاك ناظراً للمدرسة الناصرية ، يقول في مقدمـــة الجزء الأول الذي ظهر ١٩١٦ : « انني منذ سبعة عشر عاماً اشتغل في وضع كتـــاب يبحث في أحوال النيل وهو الآن شرف التمام ولم أدخر جهداً في تحريره بالأخذ عن أوثق المصادر مما حملني الى الرحلة الى دور الكتب بأوروبا لتصحيح بعض مسائله » وقـــد ظل يواصل البحث عن المراجع في أوروبا وفي الاستانـــة وأمكنه أن يستخرج من ودائع المخطوطات مـــا شاء إخراجه وابتاع من هذه المخطوطات مـــا أمكنه شراؤه حتى بلغ ما أنفقه (أربعـــة آلاف جنيه) « .. دع عنك ما قضاه من الوقت وما بذله من الجهد .. » وكل ذلك في مجـــال التحقيق العلمي يقول : « لم نكن نرضى لأنفسنا أن نكون مجازفين فيما يخيب به فنرمي القول على عواهنه ، بل كنا نتحرى أشد التحري كل المسائل فلا نقدم على الإجابة أو الكتابـــة في شيء منها حتى نتأكد منه ونثبت بأقصى ما في الوسع ، كما تقضي بذلك أمانـــة العلم وكرامة النفس ، حتى لقد كان يكلفنـــا ذلك السفر بأنفسنا ومراجعة مـــا تدعو الحاجة الى مراجعته في أنحاء الممالك الأوروبية ونسخ مـــا يهمنا من ذلك بنفسنا وتضحية نفيس الوقت من أجل ذلك .. »

وهو لا يستكثر الجهد في سبيل إبراز العمل على النحو العلمي الدقيق ويقول قديماً قيل : لا تسأل عن العمل في كم تم ، ولكن أسأل عنـــه كيف تم ، فالبطء مع الأمانة خير من السرعة مع التهاون ..

والواقع انه يمكن القول بأن هذا العمل استنفذ من وقتـــه وحياته أكثر من

٣٦ سنة فقد طبع الجزء الثالث عام ١٩٣٦ وانتهى من البحث حتى عام ١٨٧٩ وأن أضاف بعد ذلك إضافات أخرى ملحق خاص .

(٤) يأتي في نفس المرحلة موسوعة « مصر القديمة » للاستاذ الأثري (سليم حسن) وقد كان مجال تاريخ مصر الفرعونية عمل فكري وتاريخي قديم بدأه أحمد كمال باشا بعدد من المؤلفات :

- العقد الثمين في محاسن وأخلاق وبدائع آثار الأقدمين .
- بغية الطالبين في علوم قدماء المصريين .
- اللآلي الدرية في النباتات والأشجار القديمة .
- الدر المكنوز والسر المفروز في الدلائل والخنايا والدفائن والكنوز.
- الفوائد الهية في قواعد اللغة الهيروغليفية .

وهي لا تصور تاريخاً متصلاً وإنما تصور حلقات مختلفة من هذه الدراسات .
أما سليم حسن فقد بدأ عمله على النحو الشامل وأصدر منها حتى وفاته ستة عشر مجلداً ضخماً . وإن كان المؤلف قد بدأها عام ١٩٤٠ فهي لا تدخل في الأغلب في دراستنا ولكنا نعتقد أنه لا بد من الإشارة إليها .

ويرى سليم حسن أن عمله هذا محاولة جريئة تجمع في مؤلف واحد تاريخ شعب عريق قديم ، له عقيدته وفلسفته في الحياة ، وله ثقافته ونظامه وطرائق معيشته .

يقول : « لم أتخذ من تاريخ الفرعون نموذجاً لتاريخ شعبه ، ولم أجل حياته وعاداته ونظمه وثروته ومعتقداته مقياساً للحكم على أحوال رعيته فقد يكون الفرق بينهما كبيراً بل جعلت الشعب أساساً لما كتبت ، وفي ذلك ما يقربنا من الحقيقة .

وقال : اننا نبني تاريخاً من المادة التي وجدناها مبعثرة في مقابر الدولة القديمة ومعابدها . كان ذلك من غير شك اساساً متيناً ودعامة قوية لدرس كل مدنيات العالم ، اذ ان مصر هي المنبع الأول الذي ظهرت لنا منه كتابات مدونة في الوقت الذي كانت فيه كل ممالك العالم تقريباً تهيم على وجوهها في الغابات .

ويقول : هناك موضوعات جديدة حاولت سبكها على غير مثال سابق ، بل لم يطرق الكثير منها من قبل لقلة المصادر وغموضها ، فاطلقنا للخيال بعض الحرية لينسج من العناصر التاريخية القليلة التي وجدناها عن هذه الموضوعات ثوباً قشيباً تظهر به بين اترابها في الموضوعات التاريخية الاخرى .

وقد سد هذا العمل فراغاً كبيراً في مجال تاريخ مصر القديمة ، وان توفى سليم حسن قبل أن يتمه ، وهناك دراسات اخرى في هذا المجال مطبوعة ومنقوشة في بطون الصحف ، كتبها أمثال محرم كمال وانطون ذكرى وعبد القادر حمزه وأحمد فخري .

أهمها : تاريخ الفن المصري القديم ... محرم كمال
آثار حضارة الفراعنة في حياتنا الحالية ... محرم كمال
على هامش التاريخ المصري القديم ... عبد القادر حمزه
مصر الفرعونية ... احمد خيري
وهو مجال ضخم تحتاج الى دراسة واسعة وتقويم شامل .

(٥) ويمكن ان يضاف الى هذه الموسوعات موسوعة محمد عبدالله عنان عن تاريخ الاسلام في الاندلس في ثلاث مجلدات ، وكان قد بدأ هذا العمل سنة ١٩٢٤ وتوسع فيه بالدراسة والرحلة في خلال اكثر من ثلاثين عاماً .

* * *

وفي مجال البحث عن منهج الكتابة التاريخية نرى أن هناك إجماعاً مقطوعاً به بمحاولة العمل من اجل ابراز الحقيقة . وتجد مجهوداً ضخماً قد بذل في هذا المجال ، مع الحرج الواضح من دراسة التاريخ المعاصر ، والقدرة على اذاعة كلمة الحق بالنسبة للمعاصرين ، وقد لقى شفيق باشا وعبد الرحمن الرافعي عنتاً كبيراً في هذا المجال ، اما شفيق فقد كان رأيه مسايراً لرأي السراي في اغلب الأمور، ولذلك كانت مفاهيمه للثورة العرابية وغيرها بها كثير من التعنت اما الرافعي فقد واجه الكتابة عن ملوك وحكام كان سلطانهم ونفوذهم ممتداً وقائماً .

كما يبدو خطر العمل التاريخي في ذلك الجهد الضخم المبذول من أجل العثور على النص وتحقيقه والسفر من أجله واستقرائه ، ثم الانتفاع به ، ولا شك كانت كتابة التاريخ في العشرينات من هذا القرن عملاً جديداً ، فان معظم هذه الاعمال الكبرى التي قـــام بها شفيق باشا والرافعي وصبري وعنان وسليم حسن وأمين سامي قد بدأت في وقت متقارب . ولم يكن التاريخ في هـــذه المرحلة يحظى باهتمام كبير . ولذلك ظلت فترة طويلة دون ان تجد الاقبال والقبول بين القراء ، وهنا كانت مهمة المؤرخ ومدى ما فيها من حرج ويرى الدكتور صبري ان الناس يظنون ان عمل المؤرخ ينحصر في نقل الحوادث وسردها ولعل لهم عذراً لان معظم الكتب ان لم تكن كلها قد ظهرت بالعربية في تاريخ مصر الحديث خـلو من روح البحث العلمي (تاريخ مصر الحديث ١٩٢٦) .

والتاريخ عند صبري علم بالغاية التي يرمي اليها وهي الاهتـــداء الى الحقيقة وبوسائل البحث التي يريد الوصول بها الى هذه الغاية . وهو فن يحتاج الى مرانة طويلة وذوق سليم فيستمد منها المؤرخ قدرة المصور الماهر في تمثيل الوقائع تمثيلاً رائعاً يبهرك بحقيقته وجماله ..

وعنده ان شخصية المـــؤرخ يمكن ان تظهر بوضوح في حسن استخلاص الوقائع من منابتها والجمع في كتابته بين الايجاز والوضوح » .

(٢) ويأتي بعد ذلك عامل هام اشار اليه كل البـاحثين في الاغلب وهو ان حقائق التاريخ المصري او العربي كانت في الاغلب مشوشة في الاذهان او مجهولة او مكتوبة باسلوب الاجنبي الذي اما أنه خصم او غير ملم بدرجة كافية بالوقائع والظروف ... فضـــلاً عن وجهة النظر الاجنبية التي لا تنظر الى الحـوادث المصرية – على حد قول الدكتور صبري – الا من ناحية واحدة ، من أجل هذا كانت أمانة المؤرخين العرب كبيرة .

ومن هنا كانت مهمة المؤرخ العربي في دحض الحجج المغرضة والاعـــتماد على الوثائق والمستندات في ذلك وكتابة التاريخ على النحو الموضوعي .

وقد حرص الدكتور صبري ان يكتب مؤلفـــاته باللغة الفرنسية اولاً ثم

يترجمها الى العربية — وله في ذلك وجه نظر « لان هـذه اللغة لغة علمية كثيرة التداول ، ولأن الامانة العلمية وقوة الحكم والتقدير متوفرتان عند الاوروبيين . ولأن مصدر تشويه الحقائق ونشرها شرقاً وغرباً هو في أوربـا ... »

ويرى الدكتور صبري أن « الاعتدال » هو أهم مميزات الروح التاريخي الذي يجب ان يهيمن على نفس المؤرخ ، فلا يندفع في حماسة لتأييد وجه نظر او رأي من الآراء .

(٣) ولعل اهم ما يعانيه المؤرخ هو مراجعة الروايات المختلفـة واستخلاص الحقائق من بينها بعد ترجيح ما يراه أقرب الى الصواب بحكم خبرته وبحكم اتفاق المراجع على بعض الروايات .

والاستاذ عنان يسجل هذا المعنى في مقدمة موسوعته الضخمة عن الأندلس فيقول : « لقد عانيت مشقة كبيرة في التوفيق بين الروايات المختلفة واستخلاص الحقائق منها ، وكثيراً ما راجعت صحائف المولفات الافرنجية لأظفر منها بنبذ اجتماعية أو سياسية قد تخلو منها المؤلفات العربية ، وكان رائدي في نقلها منتهى الحذر والتحقيق ، دفعاً لما قد يغشاها من المؤثرات الدينية والقومية .

ويؤكد عنان ما أشار اليه كرد علي والدكتور صبري من اضطراب الروايات التاريخية الافرنجية بالنسبة لتاريخنا نتيجة التعصب أو التشيع لرأي معين .

(٤) ويصل « محمد رفعت » الى معنى عميق في التحقيق العلمي حـين يؤكد بأن من واجب المؤرخ ان لا يأخذ من العلماء الاوربيين أنفسهم وانمـا يعتمد على المصادر التي يأخذ منها هؤلاء العلماء رأساً .

وقد جمع محمد رفعت في منهجه بين عدة عوامل هامـة ، « توخيت اسلوباً سهلاً وطريقة علميـة غايتها الوحدة التاريخية واتجاه السياسة العامـة وربط الاسباب بالمسببات واغفال التفاصيل المخلة ، وإبداء النقـد على حسب الحقائق المقررة لا على حسب ما تمليه العواطف » .

(٥) ومن قضايا التاريخ العربي المعاصر اختلاف وجهات النظر بين الكتّـاب في العصر الواحد ، ويرجع هذا بالفعل الى الفكرة الأساسية للكاتب وارتباطـه

بهذا الجانب أو ذاك من الجوانب السياسية القائمة . ويبرز هـــذا في الخلاف بين عبد الرحمن الرافعي والعقاد وهو منهج البحث في التاريخ القومي .

فالرافعي من اقطاب الحزب الوطني بمفاهيمه الجريئة في الحريـة والاستقلال والجلاء ، وما لها من اتصال بتقدير وإعجاب بمصطفى كامل ومحمد فريد، والعقاد معروف بصلته بسعد زغلول والوفد المصري والاول .

ومن هنا تختلف وجهات النظر فيما بينهما في أغلب الامور في هذه الفترة . وقد حاول العقاد ان يأخذ على الرافعي مـا اسماه عدم تجرد الكاتب من النظرة الحزبية . ومن ذلك موقفه من سعد زغلول وبعض وقائع حياته وعمله .

والواقع انه يمكن ان يوجه نفس الاتهام الى العقـــاد في موقفه من الحزب الوطني ومصطفى كامل .

ومما يذكر ان هذه المرحلة التي كتبها اقلام ثلاثة هي الرافعي الحركة القومية والعقـــاد (تاريخ سعد زغلول) وهيكل (المذكرات السياسية) تكشف عن مدى اختلاف الكتاب الثلاثة في النظر اليها والى وقائعها ويرجع هذا الى ان كل منهم قد نقل وجه نظره وصور الجانب المتصل بالحزب او الهيئة التي كان متصلاً بها .

* * *

ولا شك ان كتابة التاريخ العربي المعـــاصر قد تطورت كثيراً منذ فجر النهضة الى اوائل الحرب العالمية الثانية وغطت مجالات متعددة .

في التاريخ الاسلامي : جرجي زيدان . محمد عبدالله عنان . عبد الحميد العبادي

في التـاريخ القومي : عبد الرحمن الرافعي . محمد رفعت . شفيق غربال . محمد صبري . عمر طوسون .

في التـاريخ العـــام : محمد عبدالله عنان . حسن الشريف . عزيز خانـــكي .

في التاريخ الفرعوني : احمد كمال . سليم حسن . محرم كمال .

* * *

وقد وجهت الى بعض مؤرخي هذه الفترة انتقادات تتصل بالاشارة الى شيء من انحراف المنهج . ولا شك ان جرجي زيدان – وهو ليس مؤرخاً على الوجه المفهوم – بالرغم من كتاباته عن التمدن وقصصه الاسلامي قد واجه حملة ضخمة وصف فيها بالتحامل على العرب حيث نسب حريق مكتبة الاسكندرية الى عمر بن الخطاب . وصور العرب في صورة العصبية على التهجم . وقد صور الشيخ شبلي النعماني اتجاه جرجي زيدان في كتاب التمدن الاسلامي بقوله : ان الغاية التي توخاها المؤلف ليست الا تحقير الأمة العربية وابداء مساوئها . ولما كان يخاف ثورة الفتنة غيّر مجرى القول وألبس الباطل بالحق. « وقد اعتذر عنه رشيد رضا بان ما وجه اليه من النقد انما يرجع الى أنه كان يقوم على الكتابة في مباحث لم يسبق له دراستها معتمداً على مراجعتها في مظانها . وقد يضاف الى هذا ان اعتماد جرجي زيدان على المصادر الاجنبية دون حذر بما كان مصدراً من مصادر بروز هذا اللون من الهجوم على العرب والطعن فيهم .

أدب التراجم الذاتية

كان من أبرز مظاهر الأدب العربي المعاصر كتابة التراجم الذاتية يكتبها الأدباء عن أنفسهم وحياتهم ، تكون أحياناً شاملة ، أو تعنى بفترة من فترات الحياة أو قطاعاً من قطاعات الفكر ، تضم هذه التراجم رأي أصحابها في الحياة وتضم أبرز الأحداث وترسم صورة البيئة الأولى وتحولاتهم من اتجاه الى اتجاه ، ومن وضع الى وضع .

كتب بعض الأدباء هذه الفصول الذاتية بأسمائهم صريحة كما فعل طه حسين وأحمد أمين وسلامه موسى واختفى آخرون وراء شخصيات أخرى ، كما فعل عبد الرحمن شكري في يوميات مجنون ، ومصطفى عبد الرازق في مذكرات الشيخ الفزاري ، وكتبها بعضهم بضمير الغائب ، كما فعل فارس الشدياق وطه حسين أو بضمير المتكلم كما صنع أحمد أمين وسلامه موسى .

ولكل كاتب طابعه في يومياته ومذكراته . سجلها طه حسين قصة بأسلوبه الاستعراضي وسجلها أحمد أمين بأسلوب علمي وكتبها سلامه موسى على نحو تحليلي.

وقد كتب كثيرون فصولاً من التراجم الذاتية ضمنوها بعض كتبهم أو ظلت مطمورة في بطون المجلات والصحف ولعل أقدم هذه الترجمات هي (الساق على الساق) للشدياق فقد صدرت مطبوعة عام ١٨٢٢ .

وكتب جمال الدين حياته بقلمه ، نشرتها مجلة الجامعة عام ١٩٠٦ وللشيخ

محمد عبده ترجمة منشورة في كتاب رشيد رضا عنه ، وكتب أحمد شوقي سيرة حياته ونشرها في مقدمة ديوانه الاول كما ترجم الزهاوي لنفسه في فصول ورسائل .

أما في العصر الحديث فقد ظهرت ترجمات الأيام لطه حسين وحياتي لأحمد أمين وتربية سلامه موسى و « كذا أنا يا دنيا » لخليل سكاكيني وهموم الشباب لعبد الرحمن بدوي . وصدرت بعد هذه المرحلة التي ندرسها أي بعد سنة ١٩٤٠ سبعون لميخائيل نعيمة ومذكراتي لعبد الرحمن الرافعي .

أما في مجال الدراسات المنطوية فنجد كثيراً عن حياة توفيق الحكيم في زهرة العمر وعودة الروح وكتب مصطفى عبد الرازق فصولاً عن حياته تحت عنوان مذكرات الشيخ الفزاري نشرت ضمن آثاره المطبوعة .

وكتب الزيات فصولاً كثيرة عن حياته وحبه ، كما كتب العقاد في الهلال بعد عام ١٩٤٦ فصولاً متعددة عن قطاعات من حياته وتطلعاته الأولى كما نشر في آخر ساعة في الفترة الاخيرة فصولاً تحت عنوان« حياة قلم»وكتب زكي مبارك والمازني عن حياتهما كثيراً في خلال مقالاتهما .

وربما رسم المازني نفسه في قصته ابراهيم الكاتب بالرغم مما اشار اليه في مقدمة القصة من أن بطل القصة ليس هو «اني لست بابراهيم الذي تصفه الرواية» وقد وجد كثير من النقاد الصلة بين المازني وبطل روايته وكتب عبد الرحمن شكري كثيراً عن حياته في كتبه الاعترافات ومذكرات مجنون ولم يصور هيكل حياته وان صور رحلاته . ولكنه عرض في كتابه منزل الوحي لتجربة فكرية بعيدة المدى في تحوله الى الدراسات الاسلامية ..

... وكتب صيرة حياته في مجال المذكرات كثيرون منهم احمد شفيق وحافظ عوض وطنطاوي جوهري . وعبدالله نديم وعبد الرحمن الرافعي ومحمد بيرم وهيكل ومحمود ابو العيون ولطفي السيد وعبد العزيز فهمي وكرد علي .

ويرجع الدافع في كتابة التراجم الذاتية عند كتابها الى عدة عوامل ، فبعض هذه التراجم كتب تحت تأثير الازمة النفسيه ، او تسجيل الذكريات الشابة بعد

ارتفاع السن أو شغل أوقات الفراغ بكتابة خفيفة . بين الكتابات العقلية أو السياسية .

وربما ذكر الكاتب لبعض وقائع حياته وأغضى عن وقائع اخرى ، وربما ذكر الحق ، واخفى بعض الحق ، وليس من المعتقد ان يكتب الكاتب في ترجمته الذاتية كل شيء . ذلك لأن كتابة التراجم الذاتية يرتبط دائماً بفكرة اذاعتها ونشرها على الناس . ومن العسير ان يقول الكاتب عن نفسه كل شيء . أو أن — يعري نفسه بحيث يذكر مساوئها أو أهوائها على نحو واضح صريح . وقد اشار أحمد امين في مقدمة كتابه (حياتي) الى هذا المعنى فقال « لم اذكر كل الحق ولكني لم اذكر أيضاً الا الحق ، وإذا كنا لا نستسيغ عرى كل الجسم فكيف نستسيغ عرى كل النفس » .

ويبدو مما أجمع عليه الباحثون أنه من الاستحالةعلى المترجم نفسه ان يقدم— صورة حقيقية عن حياته . فالانسان بطبعه يرفض فكرة الكشف الكامل عن حياته وأهوائه واخطائه . فاذا كشف الكاتب عن جانب من هذه الجوانب فانما يستهدف تحقيق غاية هي الدفاع عن نفسه او تغطية جانب من النقص في الناحية الاخرى .

هذا فضلاً عن أن الذاكرة نفسها لا تستطيع ان تحتفظ طويلاً بالصور التي تمر عليها في نفس الحالة النفسية او تحت تأثير نفس الدوافع . فان تحول حياة الانسان من حال الى حال يؤثر في تكوين ذكرياته ، بل أن صور الألم والحرمان قد تتبدل مع الزمن وتأخذ طابعاً آخر تخف فيه حدة الواقع .

والعمل الفني في كتابة التراجم يتطلب ان يتحرر الكاتب من سرد الوقائع مع إضفاء بعض الظلال والأضواء ، مع تأكيد الذات والحرص على إعطاء صورة البطولة .

(٢) ويمكن القول بأن الشدياق وطه حسين قد استطاعا في جرأة ان يسجلا كثيراً من وقائع حياتها المضطربة ، دون خجل أو خشية الاتهام بالنقص ، فكان الشدياق جريئاً في ترجمته الذاتية (الساق على الساق فيما هو الفارياق) حيث

أعطى نفسه الحرية الكاملة ، في تصوير حياته والجهر بالمسائل الجنسية مع سخرية ومجون واضح في عرضه لمختلف جوانب العادات والصور ، وكانت سخريته من رجال الدين بالغة ، كما انتقد كثيراً من عادات الغربيين والشرقيين على السواء .

وقد وصل في إبراز الألفاظ الماجنة حداً بالغاً متجاوز الحد في تقدير النقاد .

أما طه حسين فقد صور جوانب يخفيها كثير من الناس ، اغلبها يتصل بعلته وأثرها في تصرفاته ، مما كان يضحك بعض اخوته . من ذلك وصفه لطعامه ، وكيف رفع اللقمة الى فمه ذات مرة بيديه الاثنين ، فأضحك من رآه وكان موضع سخريتهم ، مما حمله على أن يتناول طعامه من بعد بمفرده . وقد اعترف طه بأنه كان سريع النسيان ، وكان خجولاً يجلس من أبيه ومن سمار ابيه (مزجر الكلب) وكان يرى الدنيا بيديه ، فيبعث بالنعال الموضوعة حول دكة معلم الأطفال ، ثم يمعن في تقليبها واختيارها حتى يعرف عدد ما فيها من خروق ورقوع .

(٣) وقد أجمعت أغلب هذه التراجم الذاتية على تصوير مراحل الطفولة والشباب ، غير ان طابع كل كاتب كان واضحاً في طريقة العرض وتوسيع مجال الحديث عن النفس او تضييقه .

وتعطي هذه التراجم في أغلبها صورة الحزن والفقر والانقباض والألم ، وترسم صوراً متعددة لأزمات نفسية متعددة . وليس هذا غريباً ، فان أغلب هؤلاء الكتاب نشأوا في بيئات فقيرة . وتطلعوا منذ صباهم الى المجد فضاقوا بهذه الحياة . ومرت بهم أزمات الخروج من البيئة الضيقة أو الريفية الى البيئة المثقفة الثرية ، وكانت هناك مقاومات وتحديات .

فطه حسين وأحمد امين وعبد الرحمن شكري يصورون أزمات الشباب ، وان قل عرض احدهما لصلته بالمرأة والحب .

(٤) يرجع العامل الأول في كتابة هذه المذكرات عند طه حسين الى أزمة نفسية وعوامل خاصة هي التي دفعته الى الجري وراء ماضيه واجتراره وبعثه

من جديد ، ويعزو بعض الكتّاب هذا الاتجاه الى أزمة [كتاب الشعر الجاهلي] عــام ١٩٢٤ التي دفعته الى أن يشق طريقاً جديداً بعيداً عن الميدان موضوع الجدل ، وأن يرجع الى تصوير طفولته .

ومثل هذا يقال عما كتبه عبدالرحمن شكري في مذكرات مجنون التي تصور فترة من شبابه ، فقد عاش أزمة نفسية جارفة لم يجد مخرجاً منها إلا في تسجيلها على هذه الصورة الجريئة الواضحة ، مما اضطره الى أن يلبسها ثوب انسان بعيــد كل البعد عنه .

أما الشيخ مصطفى عبد الرازت فقد كان سمت العلماء والعمامــة ، وطابع الوقار ، فضلاً عن الحياة والمحافظة على التقاليد ، كل هــذا دفعه الى أن يصور مشاعره تحت اسم الشيخ الفزاري ، وقد كانت مشاعره دفاقة فعلاً في هــذه الصور التي عرضها ، ولعله اجرأ هؤلاء الكتاب حيث رسم صورة لعاطفتــه تجاه المرأة .

(٥) وفي مجال الكتابات الوجدانية فقد احتال الرافعي في كتبه الثلاثــة : السحاب الأحمر ، رسائل الأحزان ، أوراق الورد ، لتصوير عاطفته ومشاعره ، كما فعل زكي مبارك . أما طه حسين ، فقــد كتب فصولاً مختلفة عن تصوير عاطفته مع المرأة التي أحبها وكيف التقى بها .. وربما فعل ذلك توفيق الحكيم في قصة « الرباط المقدس » . أما المازني فقــد كانت كتاباته عن المرأة متعددة موزعة كثيرة بحيث لا يمكن الكشف عن الحقيقة فيها ، وإن عرفت له رسائل عاطفية .

(٦) اختلف أسلوب العرض في هذه التراجم ، أما الشدياق فقد كتب حياته بضمير الغائب ، ورمز لنفسه بإسم (الفارياق) مجمّعاً من كلمتي فارس الشدياق ، صور مطالع حياته ، وما لقيه من متاعب في شبابه . وأسفاره . وندد بجماعــة الاكليروس وهاجمهم . وقد تأثر في ذلك بموقف أخيه سعد معهم ومقتله .

وقــد عني الشدياق بإيراد الألفاظ المترادفة لأصناف المأكول والمشروب والحلى والجواهر وأوصاف الرجال والنساء .

ويبدو الشدياق في هذه المفكرات متقدماً زمنه جريئاً في النقد آخذاً حريته الكاملة في نقد المجتمع والدين والعرض الصريح للمسائل الجنسية ولعله كان مقلداً لروسو في ذلك .

أما طه حسين فقد عني بتصوير حياته من خلال البيئة الضيقة الريفية ورسم صورة الصراع بين الإنسان وبيئته والانتصار عليها ، مع سخرية على ما تعارف عليه الناس ومهاجمة الأولياء ودلائل الخيرات . كما صور الصدام السافر بينه وبين الأزهر . وموقف الكفيف من المجتمع وكشف عن مواقف الجرح والإهانة في إطار من صور الريف والربع والأزهر .

وبالجملة فإن طه حسين كان صريحاً وجريئاً في هذه المذكرات . وقد بلغ في تصوير عيوبه النفسية وعيوب بيئته الى حد كبير .

ومن خلال هذه المذكرات كشف صورة العصر وكيف واجه المدينة بعد أن ترك القرية والتقى بالأزهر ثم انفصل عنه الى بيئة الجامعة . وكشف عن الصراع بين بيئة الطرابيش وبين العمائم .

وتعطي « الأيام » طابع الحزن والقلق الواضح في حياة طه حسين ولكنها تعطي أيضاً صورة القدرة على المقاومة والمواجهة للتحديات .

ولما كان الكاتب مكفوفاً فقد كانت طريقة تصويره للأماكن والأشياء مختلفة عن طريقة المبصرين . فهو يصف أزيز الماء حينما يوضع فوق النار وعند اشتداد الغليان وأصوات العربات ورائحة الطعام وأصوات الملاعق وهي تضرب في أطراف الأطباق أو الأكواب وصوت الصاعدين على درجات السلم .

ويتصل بهذا ما كان يلقاه كمكفوف في بيئته الأولى وفي بيئة الازهر حينما كان أشياخه يقولون له أسكت يا أعمى .

اما أحمد أمين في كتابه (حياتي) فهو متأثر بطه حسين ولكنه يحمل طابع صاحبه وهناك التقاء كثير في وقائع الحياة مع اختلاف في تصويرها فاحمد أمين عاش حياة الأزهر والحي والحياة الفقيرة وحياته تحمل طابع الحزن والقلق ، ولكن مواجهته للأمور تختلف عن مواجهة طه حسين لها ، وقد تحدث أحمد

امين بأسلوب علمي تقريري ، بينما يحدث طه حسين باسلوب شعري استعراضي وفي ذلك فوق ما بين الثقافتين وطابعي النفس فطه حسين يحب الاتصال بالحياة والاندفاع فيها اما أحمد أمين فيزور عنها ويحب الاعتكاف والوحدة .

وسيرة أحمد أمين اقرب الى التاريخ من ناحية واكثر تصويراً للبيئة ولقضايا الحياة وفيها روح التواضع والصراحة . وهي اقرب الى المذكرات . وقد عرض احمد امين لصلته بالمرأة وكشف عن عاطفته ازاء السيدة الانجليزية التي علمته الحياة .

وطبيعة احمد أمين التي تؤمن بأن من الحق ما يرزل قوله وتنبو الاذن عن سماعه ولا تستسيغ عرى كل النفس ، تبدو واضحة في مداراته ، وبعده عن الاسراف في التفاصيل والاغضاء عن تصوير الاتفعالات . وهو في ذلك اقرب الى العالم منه الى الاديب فكتاباته عقلية لا وجدانية ، وهو كزميله طه ترك الازهر وخلع العمامة واستبدل الزي ولكنه لم يصل الى مداه في الجرأة وتقبل الحضارة الغربية . فقد هزته المدنية الغربية ولكنه ظل أكثر أمانة للشرق والفكر العربي الاسلامي وهو يطمع في المزاوجة ولعل سر هذا انه لم يتصل ببيئات الغرب الا بالمطالعة .

ويبدو أحمد امين في قصته حزيناً مفرطاً في الجد لا يتطلع الى المجد أو الشهوة مع بساطة العيش وعدم الاحتفاء بالمأكل والمشرب .

وقد ضمن حياته حديثاً تاريخياً عن الحركة الوطنية والسفور والحجاب والجوانب السياسية والاجتماعية .

وقد صور النقاد الفارق بينه وبين طه حسين ، فطه يختار من حياته صوراً فيصقلها ويحولها ثم يعرضها متأنقاً . اما أحمد أمين فأنه يؤرخ كل وقائع حياته غير معني بأن تكون الصورة انيقة أو رائعة .

ويقول احمد امين : ان طه يحب المجد ويحب الدوى ؟ وانا احب الاختفاء ، وهو فعال اذا كره أو احب وانا معتدل اذا احببت أو كرهت ، وهو واسع النفس أمام الاحداث وانا قلق مضطرب غضوب ضيق النفس بها .

وبالجملة فان في (الايام) حديث طويل حول الذات بعكس (حياتي) التي ضغط فيها العنصر الذاتي لايمـــان صاحبها بان الحديث عن النفس بغيض ثقيل .

وفي (الايام) اسلوب وصورة وفي (حياتي) قصة ووقائع .

وقد اشار احمد امين الى ذلك فقال : انه يصور حياته لانها تصور جانباً من جوانب جيله وانه كان يدون مذكرات يومية ومفكرات عن اهم الاحداث والرحلات .

(٧) اما سلامة موسى فقد تعرض لحيـاته العقلية في كتابه (تربية سلامة موسى) وصور تطوره الفكري منذ شبابه وبعـد اتصاله بالبيئات الفكرية في لندن وباريس واتصاله بالجماعة الفابية .

وقال سلامة موسى ان الدافع الاول لكتابته السيرة انه منعزل عن المجتمع الذي يعيش فيه ، لا ينساق معه في عقـــائده وعواطفه ورؤياه ، فالسيرة عنده هي التبرير لموقفه مع هذا المجتمع وهو موقف الاحتجاج والمعارضة .

يقول : قضيت عمري الى الآن وهو يقارب الستين في بقعة مضطربة من هذا الكوكب هي مصر : وعشت هـــذا العمر ، وانا ارى انتقالها المتعثر من الشرق الى الغرب ، اي من آسيا الى أوربا » .

وعنده ان لكل سيرة عيب واضح هو الذاتيـة ، اذ يشق على اذكى انسان ان يحلل نفسه ويعرض لتاريخه على نحو موضوعي .

وان من عيوب السيرة الذاتيـة ان مؤلفها لا يبوح بكل ما يعرف ، خاصة اذا كان البوح متصلاً باشخاص لا يزالون احياء .

وعنده ان الكاتب مهما بلغ من المقدرة لا يحسن التحليل لنفسه لان كثيراً مما يراه غيره يعمى هو لذاتيته عنه .

وهو لفرط اهتمامه بالجانب الفكري والثقافي من حياته يرى ان العوامل التي تكون الشخصية هي ليست المدرسة او العـائلة فقط ولكنها ايضاً الشارع الذي نختلط بابنائه والصحف والكتب التي نقرأها والعمل الذي نرتزق منه .

(٨) ويكره بعض الكتاب البوح والاعتراف ؛ ويرى العقاد ان هذا اللون

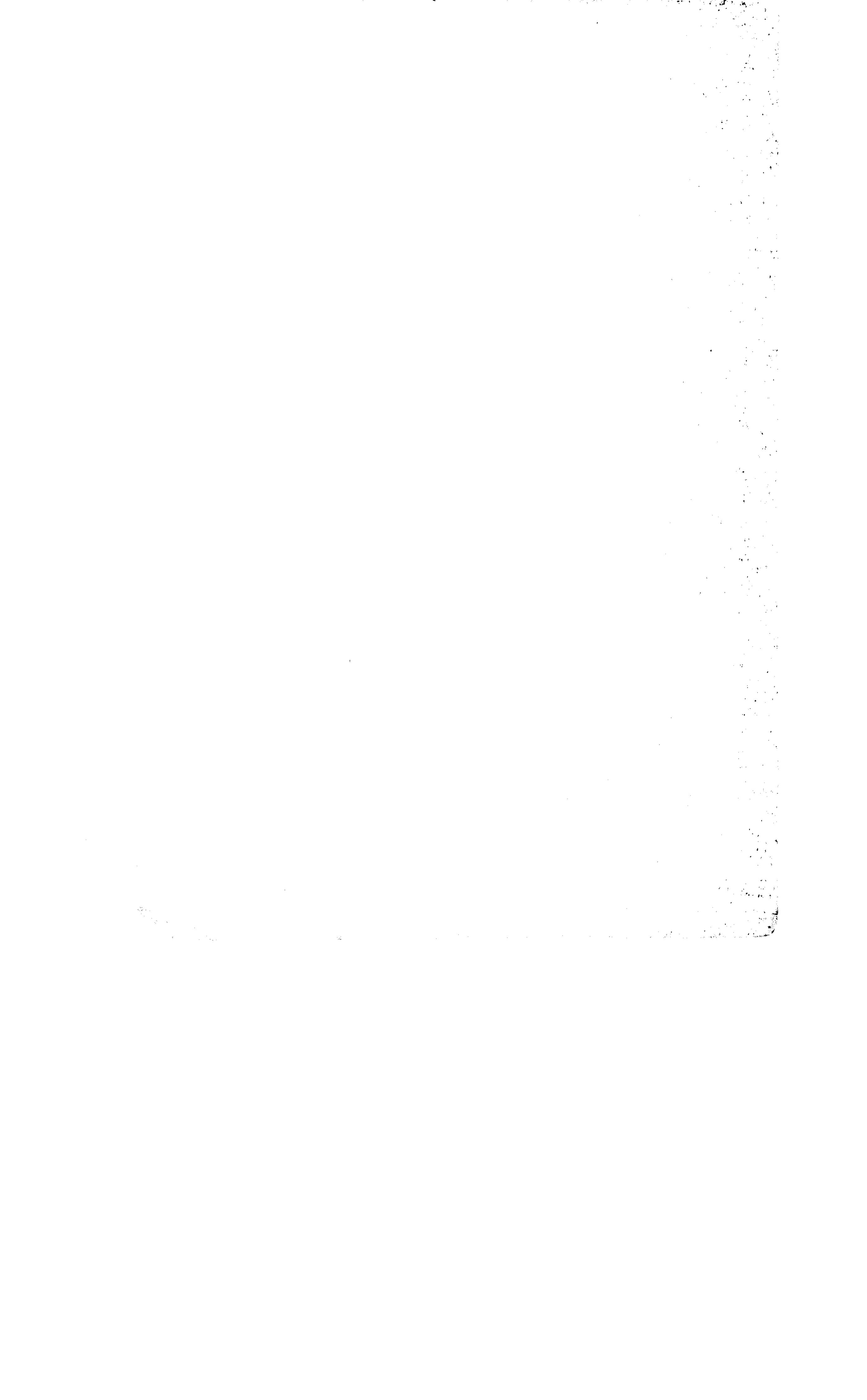
من الكتابة من ادب الضعف ، غير ان الفصول التي نشرت في الهلال ومقالات « حياة قلم » يمكن ان توصف انها من الترجمة الذاتية ومنها [اعترافاتي . ابي . امي . كنت شيخاً وحي الخمسين . وحي الستين] . وكتابه (في بيتي) ايضاً يكشق عن جوانب كثيرة من حياته ويترجم له . وكان قد سجل في الرسالة انه ينتوي تأليف كتاب عن حياته ولعله يفعل وعنده انه من العسير ان يترجم الانسان لنفسه ، فالعين لا ترى نفسها الا بمرآه ، والشيء اذا زاد قربه صعبت رؤيته ، والنفس لا ترى شخصها الا في قول عدو او صديق .

ومزاج العقاد أقرب الى الحزن والانقباض ، ولعل هذا المزاج الحزين هو الذي اغراه بالفكاهة التي يراها حاجة نفسه وضرورة لازمة ، ولعله قد استطاع ان يُفضي كثيراً عن طريق الشعر مما لم يحوجه الى كتابه سيرة حياة ، والعقاد ممن يؤمنون بالمذهب النفسي في مباحث الفكر ، ولعله وجد في تصوير كثير من الاعلام الذين كتب عنهم مخرجاً لمشاعره وتصوير لنفسيته كما رأى من تشابه وتلاق في الصورة او الرأي .

(٩) وبعد : فهناك اجماع على انه من الصعب ان يصور الكاتب حياته او يترجم لنفسه .

ويقول ميخائيل نعيمه في كتابه (سبعون) ليس ما انكشف لك من حياتي كان كل ما في حياتي ، ان الذي انكشف فيه الرغوة وفيه الصريح .

واذا كانت التراجم الذاتية لا تسطيع ان تعطي كل شيء عن حياة كتابها فلا اقل من انها تلقى اضواء على هذه الحياة وتكشف عن الطوايا والغايات .



طابع الأدب المكشوف
في الأدب العربي المعاصر

كان ظهور الادب المكشوف امراً طبيعياً في حياتنــا الأدبية وظاهرة لا تختلف عن ظواهر الأدب في كل عصر ، وقــد عرف الادب العربي القديم أدب المجون والكشف ، وحفلت كتب الأدب القديم بكثير من نصوصه الصريحة التي ضمتها الأغاني ودواوين الشعراء وألف ليلة وغيرها ..

وقد جرى التساؤل مبكراً في مجال الأدب العربي المعاصر : عما إذا كان من الخير ان يظل الأدب مستوراً تراعى فيــه الأخلاق أم مكشوفاً لا شأن له البتة بالأخلاق ..

١ — وفي هذا التساؤل ما يوحي بأن هناك وجهتي نظر في الموضوع :

وجهة النظر في ضرورة الحرية المطلقة وعدم التقيد بالاخـلاق ، واصحاب هـذا الرأي يرون ان موضوع الأدب هو الطبيعة البشرية بخيرها وشرها ، وان من حق الأديب ان يكون حراً في تصوير هذه الطبيعة ، وله أن يبحث بصراحة تامة الجوانب الجنسية كما يبحث العالم تماماً .

ويرى اصحاب هذا الرأي أن الصراحة في الكشف لا تضر بقــدر ما يضر الاخفاء ، وان على الأديب ان ينزع الى السمو في كشف هذه العلاقة ، دون ان

يستثير في القارىء شيئاً من الشهوات الدنيا .

ويتعلل اصحاب هذا الاتجاه بما اكده علم النفس من أن الصراحة في كشف حقيقة الغريزة الجنسية والكلام عنها بوضوح ضروري ، وان مجانبة الموضوع والابتعاد عنه يؤدي الى الانحراف .

ومن شأن الأدب الصريح في رأيهم ان يفتح باب التسامي بأن يجعل حب المرأة،الى حب للفنون الجميلة وعندئذ يتحول الشهوة الى عمل شريف ايجابي قوي.

اما ستر الحقائق فهو يجذب النفوس الى البحث عنها وان ابعاد المسائل الجنسية عن الادب يجعل الذهن اعلق بها ويفتح الطريق للكاتب المنحط الذي يلجأ الى الرجس والدعارة [1] .

وعندهم انه فرق بين الأدب الصريح وبين أدب الدعارة ، ففي الأدب الصريح يكون من حق القصصي تصوير اخفى الغرائز البشرية وادناها والهبوط الى اعماق الفطرة الجنسية، للبحث عن اطوارها وتقلباتها وتفاعلها وذلك كجزء من دراسة الانسان ، والكشف عن ميوله الكمينة ونزعاته الشاذة الغريبة التي قد لا تقرها قوانين المجتمع للعمل على محاربتها وكبحها .

وهنا يكون ادب الدعارة هو اللون الذي يجب محاربته ، وان الأديب الامين لا يبالغ في وصفه ولا يضفى على ذلك الجانب حلة خيالية براقة تستهوي القارىء[2] .

* * *

٣ — ويرى انصار الأدب المستور ان الحديث عن تفصيل ما بين الرجل والمرأة من مظاهر الرغبات البدنية من شأنه ان يضعف المقاومة وقوة المناعة . وان الحرية المطلقة في تصوير الميول والعلاقات الجنسية من شأنها ان تغري بهذا الانحراف وانه من الخير القصد في هذه الحرية وتقييد الصور الوصفية بتحفظات

---

(١) سلامة موسى — المجلة الجديدة (يناير ١٩٢٨)

(٢) ابراهيم المصري (البلاغ) ٢/٤/١٩٣٣ .

تستوجبها العادات الموروثة والآداب المألوفة .

وان من شأن الآداب والفنون ان تكون حذماً واعواناً لمثال الانسانية المنشودة وانه ليس من مهمة الأدب ان يجعل همه مصروفاً الى سرد مجرد الوقائع المادية إذا كانت مزرية بالغاية الانسانية العليا مغرية باللذائذ الدنيا وان شهوات البدن إذا خرج بها صاحبها عن حرمة الافراد أو الجماعة أو وقف عليها فكره وجهوده فان ذلك سيشل مواهبه العليا .

وعندهم انه لا فاصل بين الأدب القومي والخلق الاجتماعي ، وان التفاعل بين الادب والأخلاق متواصل لا ينقطع ، وان القول بانقطاع الأدب عن الاخلاق مذهب لا تؤيده ابسط حقائق الكون ، وانما يقول به بعض مدارس الفن ، وعندهم ان الآداب والفنون لا يمكن ان تقوم بذاتها ولذاتها .

وليس معنى هذا هو تحريم العلم بدخائل الأمور على الشبان والفتيات ، وإنما يحسن أن يجيء علمهم بها عن طريق علمي لا عن طريق الاغراء وإهاجة الغرائز[1] .

* * *

٤ – والواقع أن الكتابة المكشوفة في الأدب المعاصر هي أمر متصل الى حد كبير بالنظرية التي راجت في أواخر القرن التاسع عشر ، وهي نظرية « الفن للفن » ، وأنه لا صلة بين الفن الادبي وبين أخلاق الأمم ، وإن من حق الكاتب أن يصور الغرائز والعواطف على نحو حر كامل الحرية دون أن يتقيد بأي قيد .

وقد سقطت هذه النظرية في البيئات التي ظهرت فيها ، ولم يتحقق لها الاستمرار أو البقاء فقد كان الأدب في هدفه الأصيل له الغلبة دائماً ، هذا الهدف هو التسامي بالنفس الانسانية ودفعها الى الأمام وإفساح الطريق أمامها للقوة والإيجابية والكمال والسعادة ومن شأن هذا الاتجاه الواضح الإنساني الصريح أن

(١) توفيق دياب (السياسة الاسبوعية) ٢٦ - ١١ - ١٩٢٧ .

يغلب دائماً على الدعوات التي تهدف الى تمييعه أو تحريف غايته .

فضلاً عن أن الأدب في حقيقة أمره إنما يصور الانسانية في مجموعها ولا شك أن جوانب الانحراف ليست إلا صوراً ضئيلة في حياة المجتمع .

فإن رسم هذه الصور على النحو المكشوف الصارخ هو تجاوز عن الحق والصدق ، وانه يعطي صورة توحي بغير الواقع نفسه ، ولذلك فهي تنزع عن الكاتب أولى صفات الحرية وهي الأمانة والاخلاص ، وليس شك أن الصراحة والكشف عن حقيقة الغرائز الجنسية ، أمر ضروري يحول دون الانحراف ، ولكن المجال العلمي هو طريق هذه الغاية .

أما عن طريق الأدب فإن الكاتب الذي يتطلع الى إعطاء فنه كثيراً من الخيال والبهرجة ، لا يستطيع أن يحقق هذه الغاية على النحو الإيجابي الانشائي المتسامي إلا إذا كانت أمانته لفنه كبيرة .

وهو ما لم يتوفر في كتاب الجنس والكشف الذين يكونوا في الاغلب منحرفين ، وهم بكتاباتهم هذه لا يمثلون المجتمع وانما يمثلون الاهواء النفسية التي تتضارب في اعماقهم ، وربما صحبها عدوان وانحراف يدفع اثارة هذا الفن واذاعته على انه صورة واقعية للحياة ..

وقد فرق الاوربيون بين ادب الطبيعة (ناتورالسم) وبين ادب الدعارة (بورنوجرافي) .

وإذا كان من حق الكاتب الحرية المطلقة فانه لا بد ان يكون مؤمناً بالانسانية ايماناً صادقاً وأنه يكون هدفه واضحاً في التسامي بها ودفعها الى الرقي والكمال والقوة .

وفي ادبنا العربي المعاصر جرت دائماً مقاومة هذا الفن الرخيص وقد حاول الكثيرون نقل فنون هذا الادب من الأدب العربي بالإضافة الى بعث اثار المجون وشعره في الأدب العربي امثال أبا النواس ووالبه والخليع ، وقد عني طه حسين بذلك في مترجماته للقصص المكشوفة الفرنسة وبعث اخبار شعراء المجون في احاديث الاربعاء .

وقد اخذ طه حسين اتجاه من يرون اطلاق الفن من قيود التسامي فلا حرج على الفنان ان يصور الرذيلة بريشة الإغراء، وقد جرى في ذلك على المذهب الذي عرفته أوربا وتنزه عنه كل عظماء الفكر .

وقد واجه القارىء العربي هذا اللون بازدراء كبير، وهاجمه كثير من الكتاب امثال المازني والدكتور حسين الهراوي وتوفيق دياب .

وفي عدد من المجلات الهازلة جرت في فترات متعددة محـاولات لأنشاء هذا اللون من الأدب غير ان المشاعر العربية قاومته واحتقرته .

وقد تطور الادب المكشوف فيما بعد الحرب العالمية الثانية الى مرحلة اخرى، ليس هذا مكان بحثها .

الإقليمية في الأدب العربي المعاصر

ظهرت الدعوة الى الفرعونية والفينيقية والآشورية والبابلية والبربرية في الأدب المعاصر مغلفة بطابع ربط الحاضر بالماضي ، وتجاوز قوى الترابط الحية المتصلة التي يطبعها طابع الثقافة العربية الإسلامية الى إحياء الثقافات القديمة وبعث الحضارات السابقة الممتدة الى ألوف السنين والتي فقدت آدابها وأفكارها في الأغلب ولم يبق منها إلا المعالم الأثرية .

ولا شك كانت الدعوة فيمن حملها في أول الأمر غير عربية الفكر أصلاً . ولا منبعثة من صميم تفكيرنا الذي كان يجري في طريقه الواسع العميق مرتبطاً بالثقافة العربية التي كونتها الحضارة والفكر خلال أكثر من خمسة عشر قرناً والتي كانت في مقوماتها عصارة الثقافات والحضارات الفارسية والهندية واليونانية والمسيحية واليهودية القديمة .

ولم يكن الفكر العربي الإسلامي الذي تكون منذ ظهور الاسلام في العالم فكراً دينياً أو إسلامياً بمعنى الدين أو الاسلام أو الطائفية فهو ليس فكراً محدوداً قوامه مفاهيم أو طقوس ، ولم يقم في ظل كهنة أو عوامل لها طابع الحدود الداخلة في مجال العبادات أو التراتيل أو التهاويم التي تجعله فكراً مغلقاً .

ولكنه كان فكراً متفتحاً ارتبط بكل الثقافات والحضارات التي عاصرته وترجم منها ونقل وأضاف الى مفاهيمه وشخصيته واشترك في تكوين واعداد عقول مسلمة ومسيحية ويهودية . كما هي عربية وفارسية وهندية . ولكنه ظل قائماً على أساس وقيم روحها الأديان والقيم وطابع الشرق ومفاهيمه فهو ليس فكراً محدوداً .

غير أن الدعوات التغريبية كانت حريصة على أن تمزق وحدة هذا الفكر بأن تؤجج دعوات إقليمية ضيقة تتصل بالاقليم أو القطر وتبرز طابع حضارة قديمة له وتعلي من أمرها وتحاول أن تجعل منها قوة فكرية حية تغطي على الثقافة المشتركة المتصلة ذات الطابع الأصيل والتي تربط الأمة كلها في مجال الفكر وان قطعت بينها الروابط في مجال السياسة أو تقسيم الرقعة الى أقطار وممالك ودول .

ومن هنا كان النص على إحياء الأدب العامي والأقاصيص الأسطورية والأغاني العامية باعتبار انها صورة الناس في أحوالهم وطباعهم وممثل عواطفهم وإحساساتهم .

وقد سبق في مجال الأدب العربي المعاصر امثال يعقوب صنوع ومحمد عثمان جلال وامام العبد وعبدالله نديم بكتاباتهم وأزجالهم وسخرياتهم العامية وقد حاول « أحمد ضيف » ان يعمق هذا المجرى حين أشار في مقدمة (بلاغة العرب) وهي محاضرات القاها في الجامعة المصرية في العشرينات من هذا القرن ان الأدب العربي ليس الا (أداب العرب) وهي ليست أداب أمة واحدة وليست لها صفة واحدة ، بل هي اداب أمم مختلفة المذاهب والاجناس والبيئات ومن شأن اختلاف الامم تعدد ادابها .

وقد حاول تنمية هذه النظرية في اقليمية الأدب « امين الخولي » خلال فترة عمله بالجامعة وأنشأ كتابه (في الأدب المصري) ومحاضرات مختلفة عن (مصر في تاريخ البلاغة) واذاع نظرية التقسيم المكاني للأدب بدلاً من التقسيم الزماني واستهداف درس الأدب العربي اقليمياً بعد اقليم . على أساس ان لكل

اقليم طابعه الخاص . وأن الأمة الإسلامية هي خلق غير تام التجانس .

وربما وصلت العبارات الى حدود المبالغة في القول بأن الهدف هـــو تحرير الدراسة الأدبية من رق التقسيم الزمـــاني الذي نقله بعض رواد النهضة عـــن الغربيين .

ويقول دعاة هذه النظرية ان « مصرية الأدب » لا اتصال بينها وبين الدعوة الى الفرعونية . انما هي تدرس المصرية الأدبية في صورتهـــا العربية ودورها الإسلامي وهم يسلمون بأن هذه العصور عربية السحنة عربية الجذر وإسلامية العرق .

ودعت النظرية أهل الاقطار العربية إلى اتخاذ هذا الاتجاه بأن تؤرخ البلاد العربية هذا التاريخ الادبي الاقليمي .

وتطرقت النظرية الى مهاجمة فكرة التقسيم الزماني واعلان خطأها ومجمل القول عندهم ان اقليمية الأدب تصحيح مـــادي لخطأ شائع وان لكل بيئـــة منفردة مزاياها وخصائصها التي تنفرد بها بين الاقاليم ، وتلك المزايا والخصائص هي التي توجه الحياة الادبية فيها وتؤثر في سيرها باختلاف هذه المميزات المادية والمعنوية.

وقد جرت محاولات في لبنان وسوريا والعراق لاقامة الأدب وعزله عـــن المجال الشامل الموحـــد للأداب العربي . ونشرت مؤلفات تصور محاولة رسم طابـع اقليمي معزول عن الشكل العربي العـــام وجرت دراسات لخلق ادب مصري وادب عراقي وادب سوري ولكنها جميعاً لم تجد مجـالاً واضحاً حقيقياً يعطيهذه المحاولاتقيمة حقيقية ثم فشلت هذه الدعوة كدعوة انفصالية لعوامل متعددة :

- لأنها دعوة مستوردة ودخيلة وليست نابعة من الوجدان العربي .
- لأنها تخلط بين العالم العربي والعالم الأسلامي .
- لأن تقسيم الأدب الىعصور او تقسيمها الى اقطار نظريات غربيةأساساً.
- لأن وحدة الأدب العربي قائمة في المشاعر والأهداف والمعاني ومواجهة الأحداث وآية ذلك مواجهة العالم العربي للاستعمار الغربي في أقطـاره المتعددة

وكيف برز في صورة موحدة تدل على وحـــدة المعين ووحدة الأستجابة والمواجهة .

● لأن اقليمية الأدب ليست نقصاً ولا خروجاً عن وحدة الأدب العربي فان لكل قطر طابعه واحداثه وموحياته ومرئياته وجوه الخـــاص . وهذا يستوحيه الأدب في جزئياته وهو ليس تجزئه ولا اقليمية ، لأنه لا يحول دون وحدة المشاعر والاهداف والقيم والمواجهات التي تربط الأدب العربي في العالم العربي كله .

● حافظ الادب العربي على وحدته وطابعه الشامل في مختلف العصور وفي أحلك فترات الضعف .

● ليست هناك فروقاً أساسية بين الأقطار العربية وان كانت فروقاً في الفروع .

وفي هذا المجال جرت دعوى المقارنة بين المصريين والعرب ولم تكن هذه المقارنات الا ترديداً للآراء التي روجها امثـــال رينان وغيره من خصوم الفكر العربي الاسلامي .

كما كشفت الابحاث الأثرية عن وجود روابط وعلاقـــات تدحض فكرة الفرعونية والفينيقية والبربرية . بعد ان تبين ان معظم الموجـــات البشرية التي أنبثقت في مصر أو صعدت الى البحر الابيض في الشام او انـــدفعت غرباً الى الساحل الإفريقي انما كان مصدرها الجزيرة العربيـــة . وان الفراعنة عرب والفينيقيين عرب والبربر عرب.

طابع التغريب
في الأدب العربي المعاصر

ليس من الغريب أن يتأثر الأدب العربي المعاصر بالآداب الغربية في الأسلوب والمضمون الى حد كبير . ولكن الذي يلفت النظر ويستثير الانتباه هو ذلك الطابع الواضح من التغريب . ومحاولة القضاء على القيم الأساسية للفكر العربي الإسلامي ومسخها أو السخرية منها أو هدمها لاحلال قيم أخرى بدلاً منها . لقد كان الاحساس الغامر في هذه الفترة هو الشعور بالتخلف عن الغرب . وكان التطلع الى الحرية والاستقلال مشوباً بالرغبة الى السبق في كل ميدان حتى نصل الى درجة الغرب فنقف في صفه وبذلك تتحطم تظريته في الوصاية والحماية التي يحاول أن يتعلل بها من أجل البقاء في أرضنا .

غير أن وسائل الوصول الى درجة الغرب في الحضارة كانت تضل الطريق أحياناً في نظر بعض الباحثين والأدباء الذين كانوا يعتقدون أننا لا نستطيع أن نحقق الحرية والقوة وبلوغ درجة التساوي مع الأمم الغالبة إلا بنقل الحضارة والثقافة الغربيين نقلاً كاملاً . وإنكار كل صلات الماضي ومقومات كياننا الأصلي من ناحية اللغة والتاريخ والدين والفكر فهناك الحديث عن أن المصريين أمة غربية وليست شرقية أو اننا أمة من أمم البحر الأبيض المتوسط لا صلة لنا

بافريقيا ولا بآسيا ومن هنا فإننا لا بد أن نذهب مع هـــذه الحقيقة الى غايتها فننكر تنكراً كاملاً للشرق وننضم لأوروبا في منظماتها وتزدري أدبنا القديم فهو أدب القرون الوسطى . ونرى الدين خرافة ومن أجل هذا يجب أن نقبل على النظريات الغربية ونؤمن بها ونشك كل الشك في كل ما يتصل بماضينا فلا نصدق ما فيه من بطولات أو قيم . وهي بطولات – في رأيهم – لا قيمة لهـا في عالمنا الجديد . أما القيم فانها قيم الصحراء .

وإن التحقيق العلمي يحتم علينا أن لا نصور التاريخ بصورة الحماسة والعاطفة وان علينا أن نتخلى عن مشاعرنا الخاصة حين النظر في هذا التاريخ .

ويتصل هذا بآراء المتعصبين من المغتربين الأوروبيين فالعرب والشرق هم من الجنس السامي المعروف بضيق الفكـر والاهتمام بالتفصيلات دون النظر الى الأمور ككل .

ويجري مع هذا احتقار الدعوة الى الوحدة العربية واتخاذ بديل عنها في اتصال نزعات الفرعونية في مصر والفينيقية في الشام والاشورية في العراق والبربريـــة في المغرب .

ثم ان العرب مدينون لليونان وان فكرهم الفلسفي مأخوذ عن اثار اليونان وان عصر الامويين عصر شك ومجون . وهكذا ، وفي مجـــال التربية كانت الدعوة دائماً الى اراء [ديوي] التي تفصل الدين عن المدرسة ، ولا شك كان هذا التيار كله عنيف ومثير . ربما كان دافعه كسب الشهرة ومغايظة الجماهير ، وربما كان ورائه هدف كبير من خلق جو فكري مضطرب شاك . وفي الأغلب كان كبار الكتاب يرضخون لاراء المستشرقين ، وكان في صدر هؤلاء الدعـاة طه حسين ومحمود عزمي وسلامه موسى ومحمد عبدالله عنان وأحمد أمين اسماعيل مظهر وحسين فوزي وزكي نجيب محمود .

ولكن هذه الحملة التغريبية لم تكن الا شبهات وشكوك لقيت كثـــيراً من المراجعة والمناقشة والمعارضة ودارت من حولها المعارك الحامية . ثم تغير الرأي فيهـــا من بعد بالنسبة للكتاب أنفسهم فإن هيكل واسماعيل مظهر ومنصور

فهمي وزكي مبارك تحولوا عن آرائهم التغريبية وتحول محمود عزمي عن الدعوة الفرعونية الى الدعوة العربية .

بل ان النظريات التي اعتمد عليها كتاب التغريب واستوردها من الغرب قد سقطت فعلاً فنظريات دارون وفرويد وماركس اصابها التحول والتغيير والقيت عليهـا شبهات كثيرة وتحول الجارون في تيار البحث عنها الى اراء جـــديدة وسقطت نظرية الجنس التي حملها فرويد . كما سقطت نظرية الاجناس التي حملها جونيو وانكر العلماء بعد بحث مستفيض الفروق الجسيمة والذهنية بين الساميين والآريين .

وتبين الدكتور منصور فهمي انه خدع حـين استسلم لآراء استاذه الباحث اليهودي في نظريته عن تعدد زوجات النبي ، وعـاد طه حسين وسلامه موسى يشعران بالقومية العربية بعد ان هاجماها بشدة . وثبت كذب الصراع بين العلم والدين. ولم يصدق القول بأن العصر الأموي عصر شك ومجـــون وان الاعتماد في دراسة عصر كامل على بعض الشعراء الهازلين لا يمكن ان يعطي صورة هـذا العصر وتحطمت كل اعمال التنكر لعظمة التاريخ العربي والتراث العربي بعد ان اكتشف دعاة التغريب بأن كتاباً غربيين متصفين — غير خدام للاستعمار — قد أعلنوا رأيهم في تقدير هذا التاريخ وهـذه البطولات وتقييمها على اساس علمي صحيح .

وفشلت الدعوة الى الاسلوب العلمي في البحث بعـد ما تخطاه دعاة التغريب انفسهم فاعلنوا حمـاستهم في مهاجمة القرآن والاسلام والعروبة والتاريخ العربي واللغة العربية .

وعندما تكشف ان كثيراً من المستشرقين المتعصبين كانـوا يفرضون الفرض ويبحثون لها عن أسانيد ودلائـل من عبارات مقتضبة من القرآن او الحديث او المصادر القديمة .

وانكشف ايضاً مدى الدعوة التغريبية في انـكار فضل العرب على الحضارة وفضل المصريين على اليونان .

وهوجمت بعنف الدعوة الى ترجمة القصص الاباحية بالاضافة الى قصص المتحللين في العصر الأموي والعباسي ، وفي هذا يقول رجل من زعماء المدرسة الحديثة هو المازني : « للقارىء ان يتساءل لماذا يؤثر الدكتور (طه حسين) نحواً آخر من انحاء الأدب العربي وليس هذا كله ما فيه ولا هو خيره . لماذا عنى على وجه الخصوص بقصص الزناة والزوائي وبحكايات الجهاد — كما يقول هو « بين العواطف والشعور من جهة وبين العقل من جهة اخرى ، وبين العواطف والمشاعر الفردية من ناحية بين القانون والاوضاع الاجتماعية من ناحية اخرى . وبين العواطف وبين الواجب وبين العقل وبين الدين ثم بين القانون وبين الدين ايضاً . الا ترى ان صنيعه في اختيار هذه القصص كصنيعه في اختيار من كتب عنهم من العباسيين ؟ فكما انه ترك ابا تمام والبحتري والشريف ومهيارا والمتنبي والمعري من فحولة شعراء العرب وفضلائهم ووقع على أهل المجون والخلاعة والاستهتاك ، كذلك لم تبق من كنوز الادب العربي الا هذه القصص الحافلة بضروب الاثام والمنكرات » .

انه ما من عصر يمكن ان يكون له جانب واحد كما يريد ان يصور لنا العصر العباسي وانه لم يخل زمن قديم او حديث من مثل ما يضيف الدكتور » .

وقد صور مستر جب في دراسته « عن الأدب المصري » فبراير ١٩٣٠ — السياسة الاسبوعية) افتتان الكتاب والقراء بتيارات معينة في الأدب الفرنسي لا بالادب الفرنسي في جملته . صلة وثيقة بين روح الأدب العربي واثارة مذهب الرومانسترم اذا تصورنا الثمرة التي قد تؤدي الى انتاجها التلقيح بهذه العناصر السلبية والمتشككة في الثقافة الفرنسية الحديثة . فان المرء لا يسعه الا أن يشاطر المحافظين خوفهم من أن يكون (التخريب) هو كل ما تقضي به الدراسات الأوروبية » .

* * *

وقد جرت الدعوة الى نسيان القومية والدين كشرط اساسي من شروط

البحث العلمي ويرد على هذا الدكتور محمد احمد الغمراوي فيقول : « ان الباحث يستطيع ان يراعي الدقة العلمية التامة في البحث وهو متذكر دينه كل التذكر . ويعتقد صحته كل الاعتقاد ، غير مجوز على قرآنه خطأ او على توراته . بل ان التدين الصحيح يزيد الباحث المخلص اذا أمكن حرصاً على الحق واستمساكاً به اذا وصل اليه . ان التدين الصحيح والعلم الصحيح ممكن اجتماعياً اذن وكثيراً ما اجتمعا ، كما ان العاطفة العلمية القوية والعاطفة الدينية القوية لا تتعارضان بل تتضافران في خدمة العلم » .

* * *

وفي مجال كتابة السيرة ظهرت الدعوة التغريبية واضحة ، فطه حسين الذي هاجم الشعر الجاهلي وأعلن شكه وريبه في كثير من الوقائع والحقائق الواضحة في التوراة والقرآن ، يتطور بعد سنوات من هذا الرأي الى كتابة هامش السيرة محيياً بها اخبار واحاديث وصفها بان العقل لا يطمئن اليها ولا المنطق . وقد وسع على نفسه في القصص ومنحها من الحرية في رواية الاخبار واختراع الحديث .

وقد اعترض الدكتور هيكل في اتخاذ النبي وعصره مادة لادب الاسطورة واشار الى ما اتصل بسيرة النبي ساعة مولده وما روى لما حدث له من اسرائيليات روجت بعد النبي ثم قال : « لهذا وما اليه يجب في رأيي ان لا يتخذ مادة لأدب الاسطورة فانما يتخذ من التاريخ واقاصيصه مادة لهذا الأدب ما اندثر او ما هو في حكم المندثر وما لا يترك صدقه او كذبه في حياة النفوس والعقائد اثرا ما ، والنبي وسيرته وعصره يتصل بحياة ملايين المسلمين جميعاً ، بل هي فلذة من هذه الحياة . ومن أعز فلذاتها عليها واكبرها اثرا في توجيهها ، وطه يعلم اكثر مما اعلم ان هذه الاسرائيليات انما أريد بها اقامة اساطير ميثولوجية اسلامية لأفساد العقول والقلوب من سواد الشعب ولتشكيك المستنيرين ودفع الريبة الى نفوسهم في شأن الإسلام وبنيه وقد كانت هذه غاية الاساطير التي

وضعت عن الأديان الأخرى. ومن أجل ذلك ارتفعت صيحة المصلحين الدينيين في مختلف العصور لتطهير العقائد من هذه الأوهام » .

* * *

ويمكن القول بأن القضايا التي واجهتها دعوة التغريب هي القومية العربية ، اللغة العربية . انكار فضل العرب على الحضارة . اتهام العقل العربي . نظرية الجنس والكشف في الأدب . نظرية الاجناس . معركة الحروف اللاتينية . معركة الفرعونية والفينيقية انكار فضل المصريين على اليونان . تحريف السيرة باذاعة الاساطير . القضاء على القيم في مجال التاريخ والبطولة والتشكيك في القرآن وتاريخ الرسول . اذاعة دعوة الأدب للأدب . قصة الذهاب الى آخر الخط مع الحضارة . اتهام الدين ومعركته مع العلم .

وقد كانت هذه الدعوات متصلة في العالم العربي كله في خلال الفترة التي نؤرخها ومنذ الربع الآخر من القرن التاسع عشر الى اوائل الحرب العالمية الثانية . وهو طابع هادف . معروف هدفه وغايته . ونستطيع أن نؤكد ان كل نظرية من هذه النظريات قد واجهتها مراجعة علمية صحيحة مدعمة بالبيانات والاسانيد وأن الشكوك التي بعثتها هذه النظريات قد تبددت وان عدداً من المثقفين قد تحول عن آرائهم . وان عدداً من كتاب الغرب كان هدفه العلم والعلم وحده وأعلن رأيه الحق . ومن هنا اهتزت هذه الدعوة واصابها التخلخل .

ولا يمنع هذا من الاشارة بأن كثير من دعاة التغريب قد تحول عن آرائه تحت حكم الظروف والتطورات السياسية ولكن بعض هؤلاء لم يزل مصمماً على رأيه ولم يزل يقف في صف التغريب .

الإسلاميات في الأدب العربي المعاصر

من أبرز نزعات الأدب العربي المعاصر : نزعـــة الأحياء للتاريخ الإسلامي والاعلام والرواد في مجال الكتابة التاريخية وتأديب التاريخ على السواء .

وقــد مرت فترة طويلة على الأدب العربي المعاصر شغل فيها بقضايا الوطنية والقومية والحرية عن هــذا الجانب ، فكانت أبحـــاث مؤلفاته ، وافتتاحيات صحفه كلها تدور حول قضية الحريـــة ومقاومة الاستعمار ، حتى الأبحـــاث والدراسات التي شغلت بها الصحف ذات الطابع الاسلامي الواضح كالمنار والفتح كانت تغلب عليها الأبحاث الاسلامية التقليدية أو الأبحاث الاسلامية السياسية .

أما الكتابة الأدبية للتاريخ الاسلامي ورسم صور اعلامه كالنبي والخلفـــاء والصحابة والفلاسفة والعلمـــاء والحكام على النحو الحديث في طريقـة العرض والتحليل فقد اختفت فترة طويلة حتى برزت في الثلاثينيات قوية غاية القوة .

ولا شك كانت هناك أبحاثاً إسلامية متعددة ككتابات جمـــال الدين ومحمد عبده ورشيد رضا وفريـــد وجدي .. وغيرهم من أعلام الدراسات الاسلامية الخالصة .

ويجمع النقاد والمؤرخون على أن « الدكتور هيكل » هو أول من فتح الطريق أمام هذا اللون الجديد عام ١٩٣٢ بكتابه « حياة محمد » الذي نشره فصولاً في ملاحق السياسة وقدمها على أنها من تأليف اميل درمنجم وترجمة وتعليق هيكل . وقد أشار هيكل الى هذه الظاهرة في كتابه فقال : « إن مصر كانت في هذه الفترة تتدافعها موجة من دعوات المبشرين للطعن في الاسلام ثم استفحل أمر هذه الطائفة وكتبت الصحف منددة بها وداعية الحكومات الى محاربتها وإيقاف نشاطها وقد شعر هيكل أن عليه أن يعمل من أجل إفساد الغاية التي ترمي إليها هذه الخطة لذلك فكر وأطال التفكير وهداه تفكيره الى دراسة حياة محمد صاحب الرسالة الاسلامية وهدف مطاعن المسيحية من ناحية ، ومرمى جمود الجامدين من المسلمين من ناحية أخرى على أن تكون دراسة علمية على الطريقة الغربية الحديثة خالصة لوجه الحق ، ولوجه الحق وحده .

وقد أشار الى أنه قرأ كتاب درمنجم فأعجب به وحاول تلخيصه ، غير أنه رأي من الضروري إعادة النظر في ابن هشام وطبقات ابن سعد ، ومغازي الواقدي وروح الاسلام لأمير علي ، ثم انتهز فرصة وجوده بالأقصر في شتاء ١٩٣٢ وبدأ يكتب ، يقول : « وقد ترددت يومئذ في أن اجعل البحث الذي أطالع قرائي به من وضعي أنا خيفة ما قد يقوم به أنصار الجمود والمؤمنون بالخرافات من ضجة تفسد ما أريد » .

ولعل هيكل قد اتجه الى هذا اللون الاسلامي في الأدب نتيجة تطور طبيعي في تفكيره . فقد حاول أن يتخذ من ترجمة الأدب الأوروبي وسيلته الى خلق ثقافة عربية جديدة فلم يجد السبيل ممهداً الى ذلك دون ارتباط حاضر الأمة بماضيها فاتجه الى الفرعونية محاولاً أن يربط بينها وبين حاضرنا فلما لم يجد ذلك هو الطريق اقتنع بأن الطريق هو في بعث تاريخنا العربي الاسلامي وذلك في إجلاء صورة محمد ﷺ وصحبه أبي بكر وعمر .

وقد صور هذا المعنى بجلاء في عبارته :

« لقد خيل إلي زمناً كما لا يزال يخيل الى أصحابي أن نقل حياة الغرب

العقلية والروحية سبيلنا الى هذا النهوض ، وما أزال أشارك أصحابي في أنا ما نزال في حاجة الى أن ننقل من حياة الغرب العقلية كل ما نستطيع نقله . لكني أصبحت أخالفهم في أمر الحياة الروحية وأرى أن ما في الغرب منها غير صالح لأن ننقله فتاريخنا الروحي غير تاريخ الغرب وثقافتنا الروحية غير ثقافته. خضع الغرب للتفكير الكنيسي على ما أقرته البابوية المسيحية منذ عهدها الأول، وبقي بريئاً من الخضوع لهذا التفكير . بل حوربت المذاهب الاسلامية التي أرادت أن تقيم في العالم الاسلامي نظاماً كنيسياً أهول الحرب، فلم تقم لها فيه قائمة أبداً... كيف نستطيع أن ننقل ثقافة الغرب الروحية لننهض بهذا الشرق وبيننا وبين الغرب في التاريخ وفي الثقافة الروحية هذا التفاوت العظيم ؛ لا مفر اذاً من أن نلتمس في تاريخنا وفي ثقافتنا وفي أعماق قلوبنا وفي أطواء ماضينا هذه الحياة الروحية نحمي بها ما فتر في أذهاننا وجمد من قرائحنا .

وقد خفي هذا الكلام عني سنوات كما لا يزال خفياً عن كثيرين منهم . وقد حاولت أن أنقل لأبناء لغتي ثقافة الغرب المعنوية وحياته الروحية لنتخذها جميعاً هدى ونبراساً . لكنني أدركت بعد لأي أنني أضع البذر في غير منبته . فإذا الأرض تهضمه ثم لا تتمخض عنه ولا تبعث الحياة فيه .. وانقلبت ألتمس في تاريخنا البعيد في عهد الفراعنة موئلاً لوحي هذا العصر ينشىء فيه نشأة جديدة فإذا الزمن وإذا الركود العقلي قد قطعا ما بيننا وبين ذلك العهد من سبب .

ورويت فرأيت ان تاريخنا الاسلامي هو وحده البذر الذي ينبت ويثمر ففيه حياة تحرك النفوس وتجعلها تهتز وتربو .

آمنا الى أن امة لا يتصل حاضرها بماضيها خليقة ان تضل السبيل وان الامة التي لا ماضي لها لا مستقبل لها . ومن ثم كانت الهوة التي زادت عمقاً بين سواد الأمم في الشرق والدعوة الى اغفال ماضينا والتوجه الى وجهة الغرب بكل وجودنا. وكان النفور عن الأخذ بحياة الغرب المعنوية مع حرصه على نقل علومه

وصناعاته والحياة المعنوية هي قوام الوجود الانساني للأفراد والشعوب ، لذلك لم يكن لنا مفر من العود الى تاريخنا نلتمس فيه مقومات الحياة المعنوية لنخرج من جمودنا ، ونتقي الخطر الذي دفعت الفكرة القومية الغرب اليه فأدامت فيه الخصومة بسبب الحياة المادية التي جعلها الغرب الهه .

ولم البث حين تبينت هذا الأمر ان دعوت الى احياء حضارتنا الشرقية ومصدر الحضارة سنا الأرواح المضيئة ، وكم في ماضينا من أرواح ذات سناً باهر قادرة بقوتها على أن تبعث الحضارة الإسلامية خلقاً جديداً . كما بعث فلاسفة اليونان الحضارة الغربية المدنية . ومحمد بن عبدالله هو النور الأول الذي استمدت هذه الأرواح منه ضياءها وهو الشمس التي امدت كل هذه الاقمار بسناها لذلك جعلت سيرته موضع دراستي .. »

* * *

وهكذا بدأ هذا التيار الجديد في احياء الأدب الإسلامي ممثلاً في عرض جديد على الطريقة العلمية لحياة النبي العربي وصحبه ورسم صورة شائقة لعصره وأثره .

ويمكن ان تكون هذه المحاولة مسبوقة بكتابات الشيخ الخضري عن تاريخ الأمم الإسلامية أو غيرها ولكن كتابات الخضري تدخل في مجال البحث التاريخي لأنها كانت في الأغلب فصولاً من دراسات جامعية ولأنها لم تأخذ طابع الكتابة الادبية الخالصة .

ومن هيكل بدأ لون جديد اطلق عليه من بعد « تأديب التاريخ » وقد برز ذلك في كتابات طه حسين والرافعي وعبد الحميد المشهدي والزيات .

وكانت مجلة الرسالة مجالاً لتعميق هذا اللون من الأدب فقد بدأت دورها الاول في يناير ١٩٣٣ باول فصول طه حسين عن « هامش السيرة » ثم نشرت دراسة مطولة عن « عمر بن عبد العزيز » بقلم عبد الحميد العبادي عام ١٩٣٣ . ثم بدأ الرافعي فصولاً فلسفية وقصصية حول السيرة وتاريخ الاسلام عام

١٩٣٤ بدأها بمقالة « الاشراق الالهي وفلسفة الاسلام » وسمو الفقر وهي أولى مقالاته في هذا المجال بعد كتابه عن إعجاز القرآن .

واصدرت الرسالة أول عدد عن الهجرة (ابريل ١٩٣٤) متضمناً كتابات منوعة في الادب الاسلامي باقلام : الرافعي وطه حسين واحمد امين والعبادي وفريد ابو حديد وتوفيق الحكيم وعنان وعبد الوهاب عزام والبشري وسهير القلماوي ومحمود ومحمد شاكر وعلي الطنطاوي .

ثم كان عدد الهجرة من الرسالة عام ١٩٣٥ أوسع نطاقاً وأكثر عدداً من الكتّاب حيث ضم على عبد الرازق وامين الخولي وعلي الطنطاوي والزهاوي وأحمد أمين والرافعي والحكيم وعنان وابو حديد والعريان وغنيم والمازني وابراهيم مدكور وعبد الوهاب عزام وأمجد الطرابلسي وطه حسين والغمراوي .

وتوالت اعداد الرسالة الخاصة عن الهجرة كل عام وواصل الرافعي فصوله : تاريخ يتكلم ، اليمامتان .. الى عديد من هذه اللوحات الرائعة التي قدمها من اعماق التاريخ الاسلامي وحلاها باسلوبه البليغ .

وفي دمشق كتب « معروف الارناءوط » كتابه « سيد قريش » وتابعه بعدد آخر من القصص الاسلامية .

وفي نفس الوقت اتسع مجال التراجم الاسلامية الادبية تتناول عديد من اعلام الاسلام على نحو شائق . وكان عبد الحميد المشهدي ينشر هذه الفصول في مجلة الصرخة وطه حسين ينشر فصوله في الرسالة والثقافة . وكان طه يتناول هامش السيرة اما المشهدي فكان يتناول السيرة نفسها . ومضى الطريق الى بعث – الادب الاسلامي يعمق في كتابات منوعة عن الأدب الاسلامي والقصص الاسلامي والتاريخ الاسلامي وتأديب التاريخ وتراجم الاسلام ودراسات عن الاسلام نفسه .

وكانت شخصية النبي ابرز الشخصيات التي سلطت عليها الاضواء . وقد استلفتت هذه الظاهرة عدد من الباحثين وحاول تفسيرها . فمن هؤلاء العقاد الذي كتب في أغسطس ١٩٣٥ في جريدة روز اليوسف يقول :

« نحو عشرين كتاباً صدرت عن الإسلام في أقل من عام من أشهرها الإسلام و (الحضارة العربية) لكرد علي و (ضحى الإسلام) لأحمد أمين و (حياة محمد) للدكتور هيكل و (الإسلام والتجديد) لمترجمه عباس محمود و (على هامش السيرة) لطه حسين و (الشرق الإسلامي) لحسين مؤنس و (من اخلاق العلماء) للأستاذ محمد سليمان و (حاضر العالم الإسلامي) لعجاج نويهض وكتب أخرى عن حياة النبي لفريد وجدي ورشيد رضا وغيرهم من افاضل العلماء . وهذا عدا (مجلات اسلامية) كثيرة .. وكل اولئك « ظاهرة » اجتماعية أحق بالبحث ويزيدها استحقاقاً ان معظم المؤلفين هنا من غير الدينيين المتفرغين للمسائل الدينية الذين لا يستغرب منهم طرق هذه الموضوعات .

وقال « ان السبب العالمي الأكبر (لهذه الظاهرة) هو فشل الفلسفة المادية في اقناع العقول وارضاء النفوس وطمأنة الضمائر بعد اجتياحها العالم زهاء قرن كامل ، واغترار الناس بها في غير طائل وانتظارهم منها التعليلات والتفسيرات التي تعبوا في البحث عنها والرجوع بها الى الجامدين المتفننين وهم لا يفقهون بم يجيبون ولا يبيحون الناس ان يفقهوا ما يجهلون .

اما السبب الشرقي فهو « اليقظة العربية » واللياذ بالعقيدة التي تعيد ذكرى المجد القديم . وتحمي أصحابها من غارات اعدائها في العصر الحديث ففي الحجاز واليمن والعراق وسورية وفلسطين ومصر وطرابلس وتونس والجزائر ومراكش والسودان والصحارى الإفريقية والهند والجزر الاسيوية حديث دائم عن الإسلام والعرب ورغبة دائمة في القراءة عن تاريخ المسلمين وزعماء المسلمين وما يرجى بعد اليوم للإسلام والمسلمين . ومن كان قد اطلع على طرف من العلوم العصرية من ابناء هذه الاقطار المترامية فهو يشتاق ان يرى الاسلام على هدي هذه العلوم وان يحكم الصلة بين زمانه وآرائه وبين ما سلف من الازمنة والآراء .

والتبشير يلي هذه الاسباب في العمق والقوة فإن حركة المبشرين قد اشتدت اثناء الازمة المالية والضنك السياسي فحولت اليها كثيراً من سخط الناس على الحالة الاقتصادية والحالة السياسية فوق ما أشارته من غيرة الناقمين على

الاستعمار .

ويحيط بهذه الاسباب جميعاً سبب شامل ، ذلـــك هو الفزع من الشيوعية والاعتصام منها بالعقائد الروحية التي لا تسيغ المذاهب المادية ... »

وقد استمر خطر هـذا التيار وعمق على توالي السنين فأضاف إليه كتّابــاً جدداً منها علي أحمد باكثير ومحمد سعيد العريان ومصطفى عبد الرازق وابراهيم جلال وبنت الشاطىء وعبد الحميد السحار وقدم محمـــد صبيح عديداً من هذه الشخصيات الاسلامية واشترك معه فيهـا فتحي رضوان ومصطفى الوكيل وفي الاربعينات بدأ العقاد جولته في المجال بكتابة « عبقريـــة » وقد لقيت هذه الدراسات تقديراً كبيراً من القراء حتى أن حياة محمد وعبقرية محمد وغيرهما طبعا مرات متعددة . بل أن عبقرية محمد طبع ثلاث مرات في عام واحد : ويرجع ذلك في تقدير العقاد الى الحاجة العقلية والنفسية التي اقتضاها بين قراء العربية . وتوسع المجال أمام طه حسين بعد هامش السيرة في أجزائه الثلاث فكتب الفتنة الكبرى وعلي وبنوه. وقد اختلف طابع الكتابة بين هيكل وطه حسين والعقاد.

فهيكل أقرب الى المؤرخ يرسم صورة شاملة ويعرض للروايات المختلفة أمـا طه حسين فيتناول الأساطير والقصص المتصلة بالسيرة فيتوسع فيهـــا ويضيف إليها ويحذف منها . أما العقاد فإنه كاتب الترجمـة على النحو النفسي الحديث ، وقد واجهت طريقة طه حسين كثيراً من النقد . فقـد كان الاتجاه الى الأساطير وتأكيدها وإذاعتها مرتبطة بالسيرة عملاً غير مقبول من الناحيـة العلمية وسبيل الى إشاعة الشكوك والاسرائيليات في الفكر الاسلامي والتاريخ الاسلامي.

أما الزيات فقد كتب عديداً من الفصول الاسلامية . أما كتابه عن عبقرية الاسلام فلم يظهر بعد . وكان هدفه أن يعارض بـــه كتاب (شاتوبريان) عن عبقريـــة المسيحية معتقداً أن الأهوال التي يمر بها العالم الاسلامي لا سبيل الى تجنبها إلا بالروح ؛ واثقاً من أن الاسلام يضع هذه الأسس والقواعـد التي تضمن نظام العالم وسلامه ويرى أن الأصول الاسلامية أفضل ما في الديمقراطية وأعدل ما في الاشتراكية وأجمل ما في المدنية .

وقـــد ظهرت مترجمات لصلاح الدين والظاهر بيبرس وشجرة الدر وقطر الندى والامام الشافعي ومنصور الأندلس ومحمد عبده ومهدي الله والمعز لدين الله وبطلة كربلاء وسعد بن أبي وقـــاص وعلي بن أبي طالب . ومن تأديب التاريخ قصتي : على باب بزويله للعريان و « واسلاماه » لباكثير . وكشفت هـــذه الدراسات في مجموعها عن أمجاد الشخصية الاسلامية ودور البطولة الذي قـامت به خلال حقب التاريخ .

ويتصل بهذا البحث دراسات الاحياء الإسلامي التي قامت بهـــا المدرسة الإسلامية السلفية التي كان قوامهـــا رشيد رضا ومحب الدين الخطيب وشكيب ارسلان وصادق الرافعي وأحمد زكي باشا ومحمد مسعود وعـــلي الغاياتي وأحمد تيمور وعبد الرحمن الكواكبي وعبـــد القادر المغربي ، والالوسي والبيطار ، والاثري وقد اصدر رشيد رضا المنار أكثر من ٣٦ عـــاماً كما اصدر محب الدين الخطيب الزهراء ثم الفتح أكثر من عشرين عاماً.وكانت كتابات شكيب ارسلان المتعددة خلال اكثر من أربعين عاماً ومقالات أحمد زكي باشا لهـــا اثرها البعيد المدى في الكشف عن جوانب الفكر الإسلامي والعربي وتوجيهه وتصحيح كثير من المناهج .

وقد عرضت المنار والفتح والعرفان لقضايا العالم الإسلامي السياسية في ضوء مقاومة الاستعمار والدعوة الى الوحدة وحملت حملات متعددة ضخمة على فرنسا وانجلترا وايطاليا .

كما بحث هؤلاء الاعـــلام ازمات الفكر الإسلامي واسباب تأخر المسلمـين وكشفوا عن عظمة جوهر الامة العربية والتراث الإسلامي والقيم والمقومات التي اقامها الاسلام ونمتها الثقافة العربية .

وقد هيت هذه المدرسة بطريق السيد جمـــال الدين الافغاني باعث النهضة الفكرية الإسلامية العربية في الشرق ومحمد عبده المجدد الإسلامي واقامت دعوة البعث على أساس تطهير الإسلام من الخرافات والوثنيات والعودة الى المنابـــع الأولى ومحاربة كل الوان البدع .

كما دافعت عن الإسلام والفكر الإسلامي ضد حملات الغرب . وواجهت معركة التبشير التي مرت بمصر والعالم الإسلامي خلال سنوات طويلة امتدت بعد الحرب العالمية الأولى وأخذت صورة عنيفة شغلت الصحف . وكانت جزءاً من الحملة التغريبية الكبرى للقضاء على مقومات الفكر الإسلامي كما واجهت دعوات الشعوبية الى الفرعونية والقبعة والعامية واستطاعت ان تثبت في محيط المقاومة وأن تؤدي دوراً ايجابياً . وقد اتصل بهذا التيار تيار آخر هو الاحياء العربي الذي اشترك فيه عديد من الكتاب واستهدف بعث التراث العربي الاسلامي ممثلا في أمهات الكتب العربية الخالدة . واتصل هذا بطبع المخطوطات واستقدام المؤلفات التي طبعت في الغرب وتحقيق الاصول كتاريخ الطبري وخزانة الأدب وصبح الأعشى والاغاني .

وكان الايمان باحياء هذا التراث وبعثه عملا كبيراً تعمق مجراه واتسع في الثلاثينيات ثم امتد بعد ذلك . وتأسست جمعية تحمل اسم احياء الأدب المصري الإسلامي اشترك فيها احمد احمد بدوي والدكتور محمد ضياء الدين الريس .

وقد مضت هذه التيارات الثلاثة متجاورة متشابكة واتسع نطاقها في الاربعينيات وهو ليس موضع دراساتنا التي نقف بها الى اوائل الحرب العالمية الثانية .

فهرست

كتب للمؤلف

١ ـ موسوعة الادب العربي المعاصر : (عشرة مجلدات)
٢ ـ الاعلام الالف : (اربعة أجزاء)
٣ ـ شخصية محمد (صلعم)
٤ ـ رواد القومية العربية
٥ ـ العالم الاسلامي والاستعمار
٦ ـ القومية العربية والوحدة الكبرى
٧ ـ الشخصية العربية
٨ ـ نحن العرب
٩ ـ هذا هو جمال
١٠ ـ معارك المقاومة العربية
١١ ـ من اعلام الاسلام
١٢ ـ اعلام لم ينصفهم جيلهم
١٣ ـ اضواء على تاريخ الاسلام
١٤ ـ جولات في الادب والفن والحياة
١٥ ـ نزعات التجديد في الادب العربي المعاصر (مصر)
١٦ ـ اضواء على حياة الادباء المعاصرين
١٧ ـ الكتاب المعاصرون : اضواء على حياتهم
١٨ ـ الاحزاب السياسية في مصر
١٩ ـ اعلام في مجالات مختلفة (١) محمود تيمور (٢) المراغى (٣) جرجي زيدان
٢٠ ـ (٤) الزهاوي [٢١] (٥) زكي مبارك : كاتب لم ينصفه جيله .
٢٣ ـ احمد زكي : الملقب بشيخ العروبة .
٢٢ ـ اخرجوا من بلادنا :